غيوم ميسو

كيف سأكون من دونك؟

مكتبة

رواية

للنشر سما

سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

غيوم ميسو

كيف سأكون من دونك؟

الكتاب

كيف سأكون من دونك؟

تأليف

غيوم ميسو

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى، 2025

الإيداع القانوني:

2024MO6087

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-86-0

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للرواية:

Que serais-je sans toi ?

By: Guillaume Musso

© XO Éditions 2009

All rights reserved

مكتبة

t.me/soramnqraa

غيوم ميسو

كيف سأكون من دونك؟

روايـة

ترجمة: حسين عمر

مكتبة
t.me/soramnqraa

المركز الثقافي العربي

سـما للنشـر

إلى إنغريد،

هذه الحكاية المكتوبة في السحر
المؤلم لذلك الشتاء. . .

لطالما فضّلتُ جنون المشاعر
على حكمة اللامبالاة.

آناتول فرانس

كلّنا نعرف. . .
هذه العزلة التي تُضنينا أحياناً.
التي تؤرق ليالينا وقد تُعكّر صفو أصباحنا الباكرة.

إنّها الحزن الذي يُصيبنا في يومنا الأوّل في المدرسة.
إنّها اللحظة التي يقبّل فيها أجمل فتاةٍ في باحة المدرسة.
إنّها مطار أورلي أو محطّة قطار الشرق في باريس في نهاية علاقة حب.
إنّها الطفل الذي لن ننجبه معاً أبداً.

إنّها أنا أحياناً.
إنّها أنت أحياناً.

ولكن يكفي أحياناً
لقاءٌ واحدٌ. . .

1

في ذلك الصيف...

الحب الأول هو دائماً الحب الأخير.
الطاهر بن جلون

سان فرانسيسكو، كاليفورنيا
صيف 1995

مكتبة
t.me/soramnqraa

غابرييل في سن العشرين.

إنّها أمريكية، طالبة في السنة الثالثة بجامعة بيركلي.

في ذلك الصيف، كانت ترتدي غالباً بنطال جينز كاشف اللون وقميصاً أبيض وبلوزةً جلدية ضيّقة على جسمها. يجعلها شعرها الطويل الأملس وعيناها الخضراوان البرّاقتان بشذور الذهب تشبه صور المغنيّة فرانسواز هاردي الملتقطة من قبل المصوّر والمخرج جان-ماري بيرييه في ستينيات القرن العشرين. في ذلك الصيف، كانت توزّع أيامها بين المكتبة العامّة في الجامعة ونشاطها كمتطوّعة في مركز إطفاءٍ في شارع كاليفورنيا بسان فرانسيسكو.

في ذلك الصيف، ستعيش قصّة حبّها الأولى.

مارتن في سن الحادية والعشرين.

إنّه فرنسي، وقد نال حديثاً شهادته في القانون من جامعة السوربون.

في ذلك الصيف، سافر إلى الولايات المتّحدة بمفرده لكي يُحسّن لغته الإنجليزية ويكتشف البلد من الداخل. ولأنّه لم يكن يملك فلساً واحداً في جيبه، قام بممارسة أعمالاً صغيرة، بحيث عمل أكثر من سبعين ساعة في الأسبوع: عمل نادلاً، وبائعاً للمثلّجات، وبستانياً...

في ذلك الصيف، منحه شعره الأسود معتدل الطول بعض ملامح آل باتشينو في بداياته.

في ذلك الصيف، سيعيش قصّة حبّه الأخيرة.

كافتيريا جامعة بيركلي

- غابرييل، ثمّة رسالة لكِ.

رفعت المرأة الشابّة، التي كانت جالسةٌ إلى طاولةٍ، عينيها عن كتابها وسألت:

- ماذا؟

وضع كارليتو، مدير المؤسّسة، مغلّفاً كريمي اللون بجانب فنجان الشاي خاصّتها وكرّر:

- ثمّة رسالة لكِ، يا جميلتي.

قطّبت غابرييل حاجبيها.

- رسالة ممّن؟

- من مارتن، الفتى الفرنسي. لقد انتهى عمله، ولكنّه أتى إلى هنا هذا الصباح، وترك هذا المغلّف.

نظرت غابرييل إلى المغلّف وهي في حيرةٍ ودسّته في جيبها قبل أن تخرج من الكافتيريا.

في ظلّ هيمنة برج الساعة خاصّته، كان حرم الجامعة المخضوضر الواسع يغرق في جوٍّ صيفي. سارت غابرييل في الممرات والممرّات المتقاطعة إلى أن عثرت على مقعدٍ شاغرٍ في ظلّ أشجارٍ معمّرة.

هناك، غارقةً في وحدتها، فتحت الرسالة بمزيجٍ من التوجّس والفضول.

*

26 أغسطس 1995

عزيزتي غابرييل،

أردتُ فقط أن أخبركِ بأنني سأعود غداً إلى فرنسا.

أردتُ فقط أن أخبركِ بأنّه لم يهمّني شيء خلال إقامتي في كاليفورنيا أكثر من تلك اللحظات التي أمضيناها معاً في كافتيريا الحرم الجامعي في الحديث عن الكتب والسينما والموسيقى وإصلاح العالم.

أردتُ فقط أن أخبركِ بأنني وددتُ في بعض الأحيان أن أكون شخصية روائية. لأنّ البطل، في روايةٍ أو في فيلم، ربّما سيكون أقلّ رعونةً لكي يجعل البطلة تفهم أنّه معجبٌ بها، وأنّه يستمتع بالحديث معها، وأنّه ينتابه شعورٌ خاصّ حينما ينظر إليها. مزيجٌ من العذوبة والألم والدفء. تواطؤٌ غريب، وحميمية مربِكة. شعورٌ نادر، لم يسبق له أن أحسّ به أبداً. شيءٌ لم يعرفه من قبل.

أردتُ فقط أن أخبركِ بأنني، بعد ظهيرة أحد الأيام، بينما باغتنا المطر في الحديقة وعثرنا على ملاذٍ تحت سقف واجهة المكتبة العامّة، شعرتُ، مثلكِ كما أعتقد، بلحظةٍ من الارتباك والانجذاب زعزعت كياننا لبرهةٍ. أعلم أننا كدنا نتبادل قبلةً في ذلك اليوم. لم أُقدم على تلك الخطوة لأنّكِ كنتِ قد حدّثتِني عن ذلك الصديق الذي يقضي عطلته في أوروبا والذي لا يمكنكِ أن تخونيه، ولأنني لم أشأ أن أكون في نظركِ رجلاً «مثل الرجال الآخرين» الذين يغازلونكِ دون خجل ودون احترام غالباً.

بيد أنني أعلم أنه لو أننا تبادلنا قبلةً، لغادرتُ مبتهجَ القلب، غير مبالٍ بالمطر أو الطقس الجميل، لكوني عزيز عليك ولو قليلاً. أعلم أن تلك القبلة كانت سترافقني أينما حللتُ ولزمنٍ طويل، مثل ذكرى مشعّة أتشبّثُ بها في لحظات وحدتي. ولكن في نهاية المطاف، يقول البعض إنّ أجمل قصص الحب هي تلك التي لم يُتح لنا الوقت لكي نعيشها. فربّما أقوى القبل هي التي لم نحصل عليها أيضاً...

أردتُ فقط أن أخبركِ بأنّه حينما أنظرُ إليكِ، أفكّر في الأربع وعشرين صورة للثانيةِ الواحدة في الأفلام. بالنسبة إليكِ، الصور الثلاث والعشرون الأولى مضيئة ومشرقة، ولكن ابتداءً من الصورة الرابعة والعشرين ينبعثُ حزنٌ حقيقيٌّ يتناقضُ مع النور الذي تحملينه في داخلكِ. مثل صورةٍ لا تتجاوز عتبة الشعور، مثل صدعٍ رفيعٍ من النور تحت التوّج: صدعٌ يعرّفكِ بصدقٍ أكثر من عرضِ مزاياكِ أو نجاحاتكِ. تساءلتُ مرّات عديدة عمّا يجعلكِ حزينةً إلى هذا الحدّ، وتمنّيتُ مرّات عديدة لو أنّكِ تحدّثينني عن ذلك، ولكنكِ لم تفعلي أبداً.

أردتُ فقط أن أخبركِ بأن تعتني بنفسكِ، وألا تكوني عرضةً للكآبة. أردتُ فقط أن أخبركِ بألا تدعي الصورة الرابعة والعشرين تنتصر عليكِ، وألا تدعي الشيطان يتغلب على المَلاك.

أردتُ فقط أن أخبركِ بأنني، أنا أيضاً، وجدتُكِ رائعة ومشرقة. ولكن هذا الوصف يُكرّرُ لكِ خمسين مرّة في اليوم، الأمر الذي يجعل منّي في النهاية رجلاً مثل الرجال الآخرين...

وأخيراً، أردتُ فقط أن أخبركِ بأنني سوف لن أنساكِ أبداً.

مارتن

*

رفعت غابرييل رأسها. تسارع نبض قلبها لأنّها لم تكن تتوقّع ذلك.

منذ السطور الأولى، أدركت أنّ هذه الرسالة ستكون مميّزة. إنّها تعرف هذه القصة بكلّ تأكيد، ولكن ليس من هذه الزاوية بالضبط. نظرت من حولها، خشية أن يكون وجهها قد فضح شعورها. حين أحسّت بأن الدموع تصعد إلى عينيها، غادرت الحرم الجامعي واستقلّت مترو الأنفاق لكي تذهب إلى قلب سان فرانسيسكو. كانت قد نوت أن تظلّ تعمل لوقتٍ أطول في المكتبة العامّة، ولكنها أدركت أنّها لن تكون قادرة على ذلك الآن.

وهي جالسة على مقعدها، تأرجح ذهنها بين الدهشة التي أثارتها رسالة مارتن والمتعة الموجعة التي انتابتها وهي تقرأها. لا يحصل كلّ يوم أن يخصّها أحدهم بهذا النوع من الاهتمام. كما لا يحصل كلّ يوم أن يركّز أحدهم على شخصيتها أكثر من الأمور الأخرى.

كان الجميع يعتقد أنّها قويّة واجتماعية، في حين أنّها كانت

ضعيفة وضائعة إلى حدٍّ ما وسط تناقضاتها كامرأة شابّة. كان أناسٌ يعرفونها منذ سنوات يجهلون كلّ شيء عن عذاباتها، في حين أنّه عرف أن يقرأ ما في داخلها وأن يفهمها في غضون بضعة أسابيع.

في ذلك الصيف، ضربت الحرارة شواطئ كاليفورنيا، ولم توفّر سان فرانسيسكو رغم خصوصية ظروفها المناخية. في عربة المترو، بدا الركاب خامدين، كما لو أنّهم فقدوا وعيهم من جرّاء السُبات الصيفي. لكنّ غابرييل لم تكن معهم. لقد غدت فجأةً بطلةً قروسطية، غارقة في عصرٍ فروسيّ. عصرٌ يُشكّل الحبّ الراقي أولى مظاهره. لقد أرسل لها الشاعر الفرنسي من القرون الوسطى كريتيان دي تروا للتوّ رسالةً وهي عاقدة العزم تماماً على أن تحوّل الصداقة التي تكنّها له...

قرأت وأعادت قراءة رسالته التي أراحتها تارةً وآلمتها تارةً أخرى مراراً وتكراراً.

لا، يا مارتن بومون، أنت لست رجلاً مثل الرجال الآخرين...

قرأت وأعادت قراءة رسالته التي جعلتها سعيدة، يائسة، متردّدة مراراً وتكراراً.

متردّدة إلى درجة أنّها نسيت أن تنزل في محطّتها المقصودة. توقّف القطار في محطّة أخرى، فسارت تحت الحرارة لكي تعود إلى منزلها.

أحسنتِ أيتها البطلة، أحسنتِ!

*

مكتبة
t.me/soramnqraa

في اليوم التالي
الساعة التاسعة صباحاً
مطار سان فرانسيسكو إس إف أو
إنها تمطر.

كان النوم لا يزال في عيني مارتن، فتثاءب وشدّ بيده على العمود الحديدي للحافلة التي تأرجحت عند منعطفٍ. كان يرتدي معطفاً من الجلد، وبنطال جينزٍ مثقوب، وينتعل حذاءً رياضياً مهترئاً، ويرتدي قميصاً رياضياً عليه صورة فرقةٍ لموسيقى الروك.

في ذلك الصيف، كان لكلّ شاب شيءٌ عليه صورة المغنّي كيرت كوبين.

تلاطمت في ذهنه ذكريات هذين الشهرين اللذين قضاهما في الولايات المتّحدة. كانت تلك الذكريات ملء عينيه وملء قلبه. لقد أخذته كاليفورنيا بعيداً جدّاً عن إيفري وعن الضاحية الباريسية. في بداية الصيف، كان ينوي أن يتقدّم لمسابقة ضباط الشرطة، ولكن هذه الزيارة غيّرت كلّ شيء، فقد اكتسب الفتى ابن الضاحية الثقة بنفسه في هذه البلاد حيث الحياة قاسية كما في غيرها، ولكن حيث حافظ الناس على الأمل والطموح لتحقيق أحلامهم.

وكان حلمه، هو، أن يكتب القصص. قصصٌ تلامس حياة الناس، قصص أشخاصٍ عاديين تحصل لهم أمورٌ غير عادية. لأنّ الواقع لا يكفيه ولأنّ الخيال لطالما كان حاضراً في حياته. فمنذ أن كان صغيراً، غالباً ما أخرجه أبطاله المفضّلون من آلامه، وواسوه في خيباته وأحزانه. لقد غذّوا خياله وصقلوا مشاعره لكي يجعلوه يرى الحياة عبر منظورٍ يجعلها مقبولةً.

أنزلت المركبة القادمة من شارع باول ستريت الركاب أمام

المطار الدولي. وسط الزحام، أمسك مارتن بغيتاره فوق عربة الأمتعة، ومحمّلاً بحملٍ ثقيلٍ، كان آخر من خرج من الحافلة. دسّ يده في جيبه ليتلمّس بطاقته، وحاول أن يستدلّ على طريقه في هذه المتاهة الحضرية.

لم يرَها في الحال.

كانت قد ركنت سيارتها في الصف الثاني، تاركةً المحرّك يدور.

غابرييل.

كانت مبلّلةً بالكامل من جرّاء المطر. هي تشعر بالبرد، وترتعش قليلاً.

هي وهو، تعرّفا على بعضهما. هي وهو، ركضا نحو بعضهما.

تعانقا وقلباهما ينبضان، كما يفعل المرء في المرّة الأولى، حين لا يزال يؤمن بذلك.

ثمّ ابتسمت واستفزّته:

- إذاً، يا مارتن بومون، هل تعتقد حقاً أنّ القبلات التي لا نحصل عليها هي الأقوى؟

تبادلا القبلات.

التقى فماهما وامتزجت أنفاسهما، وتشابك شعرهما المبلّل. وضع يده على رقبتها، ووضعت يدها على خدّه. وفي عجالةً، تبادلا بعض كلمات الحبّ الطائشة.

- «ابقَ لمزيدٍ من الوقت!»، طلبته منه.

ابقَ لمزيدٍ من الوقت!

هو لا يعرف ذلك بعد، ولكنّه لن يرى ما هو أفضل من هذه اللحظة في حياته. ليس هناك ما هو أكثر صفاءً أو أكثر ضياءً أو أكثر

دفئاً من عيني غابرييل الخضراوين اللتين تلمعان تحت المطر، في صباح ذلك الصيف.

وليس هناك ما هو أكثر عذوبةً من صوتها الذي يناشده: ابقَ لمزيدٍ من الوقت!

*

سان فرانسيسكو

28 أغسطس - 7 سبتمبر 1995

دفع مارتن مئة دولار إضافية، فاستطاع أن يؤجّل موعد رحلته. مبلغ سيسمح له أن يعيش الأيام العشرة الأكثر أهميةً في حياته.

أحبّا بعضهما.

في مكتبات شوارع بيركلي التي لا تزال رائحة الحياة البوهيمية تفوح منها.

في إحدى دور السينما في شارع ريد ستريت حيث لم يشاهدا الشيء الكثير من فيلم **مغادرة لاس فيغاس**، لكثرة ما انشغلا عنه بالقبلات والمداعبات.

في مطعمٍ صغيرٍ، أمام هامبرغر ضخم بالأناناس على طريقة هاواي وزجاجة من نبيذ سونوما.

أحبّا بعضهما.

تسكّعا معاً في الشوارع ولعبا مثل الأطفال، وركضا على طول الشاطئ ممسكين بيدَي بعضهما بقوّة.

أحبّا بعضهما.

في غرفة جامعية حيث ارتجل لها على غيتاره نسخة خاصّة من أغنية **فالس الأزمة الألف** لجاك بريل. رقصتْ له، بنعومةٍ وهدوءٍ في

البداية، ثمّ بإيقاعٍ أكثر حيويةً، وهي تدور حول نفسها، فاردةً ذراعيها ورافعةً راحتَي يديها نحو السماء مثل رقصة الدراويش الشرقية.

ألقى بآلته الموسيقية وانضمّ إليها في حالتها من السموّ الروحي. شكّلا لعبة بلبل الدوّار الذي انتهى بالانهيار على الأرض حيث...

... أحبّا بعضهما.

حلّقا وطارا.

إنّهما آلهة، إنّهما ملاكان، إنّهما وحيدان.

تلاشى العالم من حولهما وتحوّل إلى مجرّد ديكور مسرحٍ كانا الممثلين الوحيدين على خشبته.

أحبّا بعضهما.

بحبٍ يسري في دمهما.

بثمالةٍ مستمرة.

في اللحظة الراهنة وإلى الأبد.

وفي الوقت ذاته، كان الخوف في كلّ مكان.

الخوف من الحرمان.

الخوف من أن يجدا نفسيهما بلا أوكسجين.

إنه الوضوح والارتباك في آنٍ واحدٍ.

إنه البرق والفناء في آنٍ واحدٍ.

إنه أجمل ربيع وأعنف عاصفة.

ومع ذلك، أحبّا بعضهما.

*

أحبّته.

في منتصف الليل.

في سيارتها التي ركنتها في موقفٍ للسيارات في تندرلوين،

الحي الساخن للمدينة. كان راديو السيارة يهتزّ بصوت موسيقى الراب وبأنغام أغنيةٍ شهيرة لفرقة نيرفانا.

إنّه حبّ الخطر، جسد الآخر الذي يتماوج تحت فيض مصابيح السيارات، تحت طائلة التعرّض لهجوم العصابات أو مداهمة رجال الشرطة.

هذه المرّة، لم يكن حبّ «باقات الورود»، أو حبّ «الكلمات الرقيقة»، بل كان حبّ «الحديد الحامي» الذي يُنتَزَع أكثر ممّا يُمنَح. في هذه الليلة، ما بينهما هو جرعة، حقنة، ومضة مدمنِ المخدّرات. أرادت أن تُظهرَ له هذا الوجه منها، الوجه الأقلّ ملاسة خلف الصورة الرومانسية: الصدع، الصورة الرابعة والعشرين. أرادت أن ترى إن كان سيلحق بها إلى هذا الميدان أم أنّه سيتركها في منتصف الطريق.

في تلك الليلة، لم تعد حبيبته، بل عاشقته.

because the night belongs to lovers
because the night belongs to us.

(لأنّ الليل ملك العشاق
لأنّ الليل ملكنا).

*

أحبَّها.

بلطف وحنان.

على الشاطئ، في الصباح الباكر.

نامت على معطفه. وضع رأسه على بطنها.

عاشقان شابّان، تغلّفهما الرياح الدافئة، تحت الضوء الوردي لسماء كاليفورنيا.

استرخى جسداهما، تلاصق قلباهما، مسمّرين ببعضهما، في حين كان جهاز الراديو الصغير الموضوع على الرمل يبثّ أغنيةً قديمة.

*

8 سبتمبر 1995

الساعة التاسعة صباحاً

مطار سان فرانسيسكو إس إف أو

نهاية الحلم.

وقفا في بهو المطار، وسط الحشود والصخب.

انتهى بالواقع إلى الفوز في مباراته على وهم حبٍّ خارج الزمن.

كان ذلك قاسياً. كان موجعاً.

بحث مارتن عن نظرة غابرييل. في ذلك الصباح، اختفت شذور الذهب من عينيها. لم يعودا يعرفان ما الذي يقولانه لبعضهما. فتعانقا، وتشبثّ كلٌّ منهما بالآخر، محاولاً أن يجد فيه القوّة الت ي يحتاجها. في هذه اللعبة، كانت غابرييل أكثر مهارة منه. كانت تعلم أنّها تسرق أيام السعادة هذه من الحياة، في حين انه كان يعتقد أنّها ستدوم إلى الأبد.

ومع ذلك، هي مَنْ شعرت بالبرد. فخلع معطفه المصنوع من الجلد ووضعه على كتفيها. رفضت ذلك في البداية، وكأنها تقول **أنا فتاةٌ قويّة، فتاةٌ لا تحتاج شيئاً**، لكنّه أصرّ عليها لأنّه رأى بوضوح أنّها ترتجف. وبدورها، نزعت عن رقبتها سلسلتها الفضّية التي يتدلّى منها مجسّمٌ صغير لنجمة الجنوب، ودسّت الحليّ في راحة يده.

صدر النداء الأخير إلى الركاب بالصعود إلى الطائرة. اضطرا لأن يفترقا.

للمرّة الألف، سألها:

- هذا الصديق المسافر إلى أوروبا، هل تحبّينه؟

ولكن، كما في كلّ مرّة، وضعت إصبعها على فمه وخفضت عينيها.

فانفصل جسداهما عن بعضهما، وغادر نحو منطقة الصعود إلى الطائرة دون أن يكفّ عن النظر إليها.

*

9 سبتمبر

باريس

مطار شارل ديغول

بعد التوقّف في مطارين والتأخير لعدّة ساعات عن الموعد المحدّد، حطّت رحلة شركة أير لينغس للطيران الأيرلندية في مطار رواسي بعد ظهيرة التاسع من سبتمبر. في سان فرانسيسكو، كان الفصل لا يزال صيفاً. أما في باريس، فكان الخريف قد حلّ. كانت السماء سوداء، وملبّدة.

انتظر مارتن أمتعته وهو لا يزال مربكاً بعض الشيء وقد احمرّت عيناه بسبب قلّة النوم. على شاشةٍ تلفزيونية، كانت امرأةٌ شديدة الشقار تصرخ «لقد وهبني الرب الإيمان». لقد غادر أمريكا بيل كلينتون هذا الصباح، ووصل إلى فرنسا جاك شيراك هذا المساء. هو يكره بلده لأنّه ليس بلد غابرييل.

استلم حقيبته وغيتاره ثمّ بدأ رحلة العودة إلى منزله: سوف يستقلّ قطار RER B السريع حتى محطّة شاتليه-ليهال، ثمّ يأخذ قطار RER D السريع باتجاه كورباي-ايسون ومنه إلى ايفري، ومن ثمّ يستقلّ الحافلة إلى حيّ بيراميد. أراد أن ينقطع عن العالم بفضل

الموسيقى، لكن بطاريات جهاز الاستماع خاصّته كانت قد أسلمت الروح منذ وقتٍ طويل. كان مذهولاً وتائهاً، كما لو أنّ قلبه قد حُقِنَ بالسمّ. ثم انتبه إلى أنّ دموعاً تسيل على خدّيه وأنّ بعض الأوغاد الصغار من حيّه ينظرون إليه ساخرين منه. حاول أن يتمالك نفسه: فالمرءُ لا يُظهر علامات ضعفٍ في ايفري، في حافلةٍ متوجّهةٍ إلى حيّ بيراميد. فأدار رأسه، لكنّه أدرك للمرّة الأولى أنّه لن ينام معها هذه الليلة.

وعادت الدموع تسيل من جديد.

*

منتصف الليل.

غادر مارتن الغرفة الصغيرة التي يقيم فيها ضمن شقّة منخفضة الإيجار تعود لجدّيه.

وجد المصعد معطّلاً، فنزل التسعة طوابق مشياً على القدمين. رأى صناديق البريد منزوعة من مكانها، وصادف مشاجراتٍ في بيت الدرج. تبيّن له أنّ لا شيء قد تغيّر في هذا المكان.

بحث طيلة نصف ساعة عن مقصورة هاتفية غير مخرّبة، ودسّ في شقّ الجهاز بطاقته التي تحتوي على رصيدٍ من خمسين وحدةً وأدخل رقماً هاتفياً عابراً للمحيط.

*

على بعد اثني عشر ألف كيلومتر منه، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف ظهراً في سان فرانسيسكو. رنّ الهاتف في كافتيريا جامعة بيركلي . . .

*

49، 48، 47...

منقبض البطن، أغمض عينيه وقال ببساطة:

- هذا أنا، يا غابرييل. أنا وفيٌّ لموعدنا في منتصف الظهيرة.

في البداية، ضحكتْ لأنّها فوجِئَت ولأنّها كانت سعيدة، ثمّ أجهشت بالبكاء لأنّه كان من المؤلم جدّاً ألا يكونا معاً.

... 38، 37، 36...

قال لها إنّه مشتاقٌ إليها كثيراً، وإنّه يعشقها، وإنّه لا يعرف كيف يعيشُ من دون...

... قالت له كم ترغبُ في أن تكون هناك، إلى جانبه، لتنام معه، وتقبّله، وتداعبه، وتعضّه، وتقتله حبّاً.

... 25، 24، 23...

استمع إلى صوتها وصعد كلّ شيءٍ إلى السطح: نمش بشرتها، ورائحة الرمل، والرياح العابثة بشعرها، وكلماتها وهي تقول: «أقبّلك»...

... كلماتها وهي تقول «أقبّلكَ»، ويدها التي تتشبّث بعنقه، وعيناها اللتان تبحثان عن عينيه، وعنف وعذوبة عناقهما.

... 20، 19، 18...

نظر بفزعٍ إلى شاشة جهاز المقصورة وآلمته السرعةُ التي نفدت فيها وحدات البطاقة الهاتفية.

... 11، 10، 9...

ثمّ لم يعودا يقولا شيئاً، لأنّ صوتيهما اختنقا.

اكتفيا فقط بالإصغاء إلى دقّات قلبيهما اللذين نبضا في تناغمٍ

وإلى عذوبة أنفاسهما التي نجحت في أن تمتزج ببعضها، رغم هذا الهاتف اللعين.

. . . 3، 2، 1، 0. . .

*

في ذلك الوقت، لم تكن هناك إنترنت، أو بريد إلكتروني، أو سكايب، أو مراسلة فورية.

في ذلك الوقت، كانت الرسائل الغرامية المرسلة من فرنسا تستغرق عشرة أيام لكي تصل إلى كاليفورنيا.

في ذلك الوقت، حين كنتَ تكتب «أحبّكِ»، كان عليك أن تنتظر ثلاثة أسابيع حتى تتلقّى الجواب.

وانتظار كلمة «أحبّك» لمدّة ثلاثة أسابيع أمرٌ غير إنساني حين يكون المرء في العشرين من عمره.

*

فراح الفارق الزمني بين رسائل غابرييل يتّسع شيئاً فشيئاً، إلى أن انقطعت تماماً.

ثمّ لم تعد تردّ على المكالمات الهاتفية تقريباً، لا في الكافتيريا ولا في غرفتها الجامعية، تاركةً شريكتها في السكن تستلم رسائلها.

ذات ليلة، استشاط مارتن غضباً، فانتزع سمّاعة الهاتف واستخدمها في تحطيم الجدران الزجاجية لمقصورة الهاتف العمومي. جعله الحنق الشديد يفعل ما أدانه دائماً عند الآخرين. أصبح مثل أولئك الذين يكرههم: الذين يخرّبون الأملاك العامّة، الذين يحتاجون إلى شرب نصف دزينة من علب الجعّة قبل أن يخلدوا إلى النوم، الذين يدخّنون لفافات الحشيش طوال النهار غير مبالين بأيّ شيء: بالحياة، وبالسعادة، وبالشقاء، وبالأمس، وبالغد.

وهو في لجّة الاضطراب والغضب، ندم على مصادفته الحبّ لأنّه لم يعد يعرف كيف سيستمرّ في العيش الآن. كان كلّ يوم يُقنع نفسه بأنّ كلّ شيء سيكون أفضل في الغد، وأنّ الزمن كفيلٌ بأن يشفي كلّ شيء، ولكن في اليوم التالي، كان يغرق في اليأس أكثر.

*

بيد أنّ مارتن قال في نفسه ذات يوم إنّه لن يتمكّن من استعادة غابرييل إلا بالسعي من كلّ قلبه. فوجد في الفعل قوّة الصعود إلى السطح. عاد إلى الجامعة وتوظّف في الفرع الثاني من متجر كارفور في إيفري كعامل مستودع، كما عمل حارساً في موقف سيارات في الليل وبدأ يدّخر كلّ قرش يكسبه.

كان بحاجةٍ وقتها إلى أن يكون لديه أخٌ أكبر، أو أبٌ، أو أمٌّ، أو صديقٌ وفيّ، شخصٌ ينصحه بألّا «يمنح كلَّ قلبه». لأنّه حين يفعل المرءُ ذلك، يجازفُ بألّا يعود قادراً أن يحبّ بعد ذلك أبداً.

ولكن لم يكن لدى مارتن مَنْ يُصغي إليه عدا «قلبه الكبير الأحمق».

*

10 ديسمبر 1995

غابرييل، حبي،

دعيني أناديكِ بذلك مرّة أخرى، حتى لو كانت هذه هي المرّة الأخيرة.

لم أعد أختلق لنفسي الأوهام، فأنا أشعر بأنّكِ تفلتين منّي.

بالنسبة إليّ، لم يفعل الغيابُ سوى تقوية مشاعري، وأتمنّى أنّك أنتِ أيضاً لا تزالين تشتاقين إليّ قليلاً.

أنا هنا، يا غابرييل، معكِ.

قريبٌ إليكِ أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

نحن الآن مثل شخصين يتبادلان الإشارات، كلٌّ منهما على الضفة المقابلة من النهر. يلتقيان أحياناً لبرهةٍ قصيرة في منتصف الجسر، ويقضيان لحظةً معاً، بمنأى عن الرياح العاتية، ثمّ يعود كلّ منهما إلى ضفّته، في انتظار أن يلتقيا مرّة أخرى في وقتٍ لاحقٍ، لوقتٍ أطول. لأنّه حين أغمض عينيّ وأتخيّلُ حالنا بعد عشر سنوات، تراود ذهني صورُ سعادةٍ لا تبدو لي غير واقعية: شمس، وضحكات أطفال، ونظرات متواطئة لزوجين لا يزالان عاشقين.

ولا أريدُ أن أفوّت على نفسي هذه الفرصة.

أنا هنا، يا غابرييل، على الضفة الأخرى من النهر.

أنتظركِ.

الجسر الذي يفصل بيننا قد يبدو في حالٍ رديئة، ولكنّه جسرٌ متين، مبنيٌّ من أخشاب الأشجار التي قاومت الكثير من العواصف.

أنا أفهم أنك تخافين من السير عليه.

وأعلم أنّك قد لا تعبرينه أبداً.

ولكن اتْرُكِي لي أملاً.

أنا لا أطلب منكِ وعداً، ولا جواباً، ولا التزاماً.

أريدُ فقط إشارةً منكِ.

وهذه الإشارة، لديكِ وسيلةٌ بسيطةٌ جداً يمكنكِ إيصالها إليّ من خلالها. سوف تجدين مع رسالتي هديّة عيد ميلاد مميّزة:

بطاقة طائرة إلى نيويورك بتاريخ 24 ديسمبر. سوف أكون في مانهاتن في ذلك اليوم وسوف أنتظركِ طوال النهار في مقهى ديلالو، في أسفل مبنى إمباير ستيت. تعالي قابليني هناك إن كنتِ تعتقدين أنّ مستقبلاً يمكنه أن يجمعنا...

قبلاتي،

مارتن.

*

24 ديسمبر 1995

نيويورك

الساعة التاسعة صباحاً

صرّت خطوات مارتن على الثلج المتساقط حديثاً. كان الطقس شديد البرودة، لكنّ السماء زرقاء صافية، لا يشوبها سوى هبوب رياحٍ تتلاعب ببعض ندائف الثلج.

جرف سكان نيويورك الثلج عن أرصفتهم بمزاجٍ رائقٍ تغذّيه الزينة وترانيم الميلاد المنبعثة من كلّ المحلّات.

دفع مارتن باب مقهى ديلالو. نزع قفّازيه، وطاقيته، ووشاحه وفرك يديه ببعضهما لكي يتدفّأ. لم يكن قد نام منذ يومين وأحسّ بأنّه مضطربٌ ومنفعل كما لو أنّه محقونٌ بالكافيين.

كان المكان دافئاً وعابقاً بروح الميلاد، مثقلاً بأكاليل الكريسماس، ومجسّمات الملائكة المصنوعة من السكّر، وأشخاص صغيرة مصنوعة من خبز الزنجبيل المدلاة من السقف. يفوح في الأجواء مزيجٌ من روائح القرفة والهيل وفطائر الموز. وفي الخلفية الصوتية، تتناوب على الراديو الأغاني الخاصّة بالميلاد مع موسيقى البوب المعاصرة. في ذلك الشتاء، كان الافتتان بفرقة أويسس

الموسيقية في أوّجه وكان ألبومها الشهير **وندروول** يُبَثّ على محطّات الراديو كلّ ساعة.

طلب مارتن كوباً من الشوكولا الساخنة مع قطعٍ من المارشملو قبل أن يجلس إلى طاولةٍ بالقرب من النافذة.

سوف تأتي غابرييل، إنّه واثقٌ من ذلك.

عند الساعة العاشرة، تحقّق للمرّة الألف من مواعيد البطاقة التي أرسلها إليها.

المغادرة - 23 ديسمبر: **الساعة العاشرة وخمس وخمسين دقيقة مساءً** - من مطار سان فراسيسكو إس إف او.

الوصول - 24 ديسمبر: **الساعة السابعة وخمس عشرة دقيقة صباحاً** - من مطار نيويورك جي إف كي.

لم يشعر بالقلق: مع تساقط الثلج، ستتأخّر الرحلات لبضع ساعات. على الجانب الآخر من زجاج النافذة، انصبّ مدٌّ بشريٌّ على الرصيف، مثل جيشٍ سلميٍّ بادل مسدّساته بأكوابٍ تعلوها أغطية بلاستيكية.

في الساعة الحادية عشرة، تصفح مارتن صحيفة **يو إس إيه توداي** التي كان أحد روّاد المقهى قد تركها على الطاولة. في الصحيفة، كان الجدال لا يزال مستمراً حول تبرئة اللاعب أو جيه سيمبسون، وارتفاع مؤشرات سوق الأوراق المالية، و**غرفة الطوارئ**، المسلسل التلفزيوني الجديد الذي شغفت به الولايات المتّحدة. في ذلك الشتاء، لم يكن بيل كلينتون قد التقى مونيكا بعد وكان يواجه الكونجرس ببسالة في سبيل الدفاع عن سياساته الاجتماعية.

سوف تأتي غابرييل.

عند منتصف الظهيرة، وضع مارتن سمّاعتَي جهاز الموسيقى على أذنيه. تاهت عيناه في الخواء، وسار مع المغني بروس سبرينغستين في **شوارع فيلادلفيا**.

سوف تأتي.

في الساعة الواحدة بعد الظهر، اشترى شطيرة هوت دوغ من بائعٍ متجوّل دون أن يرفع عينيه عن داخل المقهى، تحسباً لـ...

سوف تأتي.

في الساعة الثانية بعد الظهر، بدأ بقراءة رواية **الحارس في حقل الشوفان** التي اشتراها في المطار.

وبعد انقضاء ساعة، كان قد قرأ منها أربع صفحاتٍ فقط...

سوف تأتي بكلّ تأكيد.

في الساعة الرابعة عصراً، أخرج جهاز الألعاب غيم بوي خاصّته وخسر خمس مباريات من لعبة تيتريس في أقلّ من عشر دقائق.

ربّما سوف تأتي...

في الساعة الخامسة مساءً، بدأ موظفو المقهى ينظرون إليه بطريقة غريبة.

كانت هناك احتمالية من اثنتين بأنها سوف تأتي.

في الساعة السادسة مساءً، أغلقت المؤسسة أبوابها، وكان هو آخر زبونٍ يغادر المقهى.

وحتى حين أصبح في الخارج، ظلّ يعتقد أنها سوف تأتي.

بيد أنّ...

*

سان فرانسيسكو

الساعة الثالثة عصراً

سارت غابرييل، منقبضة القلب، على الرمل قبالة المحيط. كان الطقس مناسباً لمزاجها: كان جسر غولدن غيت غارقاً وسط الضباب، وغيوم داكنة تحاصر جزيرة ألكتراز، والرياح في حالة هياج. ولكي تخفّف البرد عن نفسها، تدثّرت بمعطف مارتن.

جلست القرفصاء على الشاطئ، وأخرجت من حقيبتها حزمة الرسائل التي كتبها لها. أعادت قراءة بعض المقاطع منها. **التفكير فيكِ يجعل قلبي يدقّ بوتيرةٍ أسرع. كم أتمنى أن تكوني هنا، وسط ليلي المظلم. كم أتمنى أن أغمض عيني وأفتحهما عليكِ**... أخرجت من مغلّفٍ الهدايا الصغيرة التي أرسلها إليها: قلادة برسيم بأربع بتلات، زهرة أدلفايس النادرة، صورة قديمة بالأبيض والأسود للممثلين الأمريكية جين سيبيرغ والفرنسي بلموندو في فيلم **نفس لاهث**...

علمتْ جيّداً أنّ شيئاً نادراً يحدث بينهما. صلة قويّة جدّاً لم تكن متأكّدة من أنّها ستعيشها من جديد يوماً. تخيّلته ينتظرها في نيويورك، في ذلك المقهى حيث أعطاها موعداً. تخيّلته وبكت.

*

في نيويورك، كان المقهى قد أغلق أبوابه منذ نصف ساعة، ولكن ظلّ مارتن ينتظر، جامداً في مكانه وسط البرد الشديد. في تلك اللحظة، لم يكن يعلم شيئاً عن مشاعر غابرييل الحقيقية. لم يكن يعلم كم أراحتها علاقتهما، وكم كانت بحاجة إلى تلك العلاقة، وكم كانت تشعر بنفسها ضائعةً ومشتّتةً قبل أن تلتقي به. لم يكن يعلم أنّه أنقذها من الانهيار في لحظة حسّاسة من حياتها...

*

بدأ المطرُ بالهطول على رمال سان فرانسيسكو. سُمِعَ بعيداً صوت النعيب الحزين للعاصفة البحرية التي اهتزّت بصوت الأمواج المتلاطمة والمندفعة في قنواتها الحجرية. نهضت غابرييل لتستقلّ عربة القطار الكهربائي التي تسير على طول المنحدر الشديد لشارع فيلمور ستريت. سلكت مثل إنسانٍ آليٍّ هذا المسار الذي قادها إلى مربع سكني خلف **كاتدرائية غريس**، وإلى مبنى **مركز لينوكس الطبي**.

ملتحفةً بمعطف مارتن، مرّت من الأبواب المنزلقة، باباً تلو الآخر. وعلى الرغم من زينة العيد، كان بهو المستشفى باهتاً وحزيناً.

بالقرب من إحدى آلات توزيع المشروبات، تعرّف الدكتور إليوت كوبر على وجهها وخمّن أنّها قد بكت. قال وهو يُحاول أن يبتسم لها ابتسامة مطَمئنة:

- صباح الخير، غابرييل.

- صباح الخير، دكتور.

*

انتظرها مارتن حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً، وحيداً وسط البرد القارص لتلك الليلة. كان قلبه فارغاً ويشعر بالخجل. خجلٌ من كونه صعد إلى الخطّ الأمامي دون أن يحمي نفسه، بقلبه المعلّق، وحماسته الصبيانية، وصدقه البريء.

لقد راهن بكلّ شيء وخسر كلّ شيء.

فسار تائهاً شارداً في الشوارع وارتاد البارات والحانات، وشرب الكحول، وانخرط في مواعدات من المعروف أنّها سيّئة. في ذلك الشتاء، كانت نيويورك لا تزال نيويورك. لم تكن قد ظلّت مدينة

الفنان آندي وارهول وفرقة ذا فيلفيت أندرغراوند، ولكنها لم تكن قد تحوّلت بعد إلى المدينة المُطهّرة التي عرفناها فيما بعد. إنّها نيويورك الخطيرة والهامشية لمَن يرضى بفتح الباب لشياطينه.

في تلك الليلة، ظهرت للمرّة الأولى في عيني مارتن علاماتُ الظلمة والقسوة.

هو لن يصبح كاتباً أبداً. سيصبح شرطياً، سيصبح صياداً.

في تلك الليلة، لم يفقد الحبّ فحسب، بل فقد الأمل أيضاً.

*

وهكذا.

هذه القصة تروي شؤون الحياة فحسب.

قصة رجلٍ وامرأة يجري أحدهما نحو الآخر.

بدأ كلّ شيء بقبلة أولى، ذات صباحٍ صيفي، تحت سماء سان فرانسيسكو.

كاد كلّ شيء ينتهي ذات ليلة ميلادٍ، في حانة نيويوركية وعيادة كاليفورنية.

ثمّ مرّت السنوات...

الجزء الأوّل

تحت سماء باريس

2

كبير اللصوص...

نحن نكره شخصاً او نحبّه للأسباب نفسها.

راسل بانكس

باريس، الضفّة اليسرى لنهر السين

29 يوليو

الساعة الثالثة صباحاً

اللصّ

كانت باريس غارقة في الليل المقمر لعزّ الصيف. على أسطح متحف أورسيه، انسلّ شبحُ شخصٍ خفيةً إلى خلف عمودٍ ثمّ ابتعد وسط هالة ضوء الهلال.

مرتدياً بزّة داكنة اللون، ربط أرشيبالد ماكلين حبلَي التسلّق بالحزام المثبّت على خصره. عدّل القلسونة الصوفية السوداء التي كانت تصل حتى حافة عينيه البرّاقتين، مغطّيةً جزءاً من وجهه المطلي بالشمع. أغلق اللصّ حقيبة ظهره ونظر إلى المدينة الممتدّة أمامه. وفّر سقف المتحف الشهير

إطلالةً آسرة على معالم الضفة اليمنى: متحف اللوفر الضخم المليء بالتماثيل المنحوتة، وكنيسة القلب المقدّس، وقبّة القصر الكبير، والعجلة الدوّارة لحديقة التويلري، والقبّة الخضراء والذهبية لأوبرا قصر غارنييه. كانت للعاصمة، الغارقة في الليل، سمة خالدة. إنّها باريس اللصّ أرسين لوبين، باريس رواية **شبح الأوبرا** لغاستون ليرو.

ارتدى أرشيبالد قفّازين خاصّين بالمتسلقين، أرخى عضلاته، وأنزل الحبل على طول الجدار الحجري. ستكون المباراة صعبة ومحفوفة بالمخاطر هذه الليلة، ولكنّ هذا ما منحها جمالها أيضاً.

الشرطي

- هذا ضربٌ من الجنون!

متخفّياً في سيارته، كان نقيب الشرطة مارتن بومون يراقب من خلال منظاره المقرِّب الشخص الذي كان يُطارده منذ ثلاث سنوات: أرشيبالد ماكلين، أشهرُ لصٍّ للّوحات الفنية في عصرنا الحديث.

كان الشرطي الشاب في ذروة الانفعال. في تلك الليلة، كان سيقوم بإلقاء القبض على لصٍّ غير عاديّ، من النوع الذي لا يصادفه الشرطيون سوى مرّة واحدة في حياتهم المهنية. كانت لحظةً انتظرها زمناً طويلاً. مشهدٌ مثّله مرّات عديدة في ذهنه. فعلٌ سوف تحسده عليه شرطة الإنتربول كما جميع المحقّقين الذين جنّدهم أصحاب المليارات الذين نهبهم أرشيبالد.

ضبط مارتن منظارَه لكي يحصل على الصورة الأكثر دقّة وصفاءً، وظهر أخيراً شبح أرشيبالد من بين الظلام. شاهده مارتن، وقلبه يخفق بقوّة، وهو يُنزِل حبله من السطح ويتركه ينسلّ على طول جدار المتحف حتى وصل إلى إحدى الساعتين الجداريتين الضخمتين اللتين تطلّان على نهر السين.

لبرهةٍ، تمنّى الشرطي أن يتبيّن ملامح فريسته، لكنّ أرشيبالد كان بعيداً جدّاً ويدير له ظهره. وعلى نحوٍ يكاد لا يُصدّق، لم يستطع أحد أن يرى أبداً الوجه الحقيقي لأرشيبالد ماكلين خلال الخمسة وعشرين عاماً من حياته المهنية كلصّ. . .

*

توقّف أرشيبالد ماكلين أمام الجزء السفلي من الساعة الجدارية الزجاجية التي لمعت بضوءٍ شاحبٍ. ملتصقاً بذلك الإطار الأسطواني البالغ قطره سبعة أمتارٍ، كان من الصعب عليه ألا يشعر بأنّ الوقت يداهمه. كان يعلم أنّه يجازف بأن يُكشَف أمره في أيّ لحظة، ولكنّه ألقى مع ذلك نظرةً على الشارع. كانت الأرصفة هادئة دون أن تكون خالية من الناس تماماً: تمرّ سيارات أجرة على نحوٍ متقطّع، ويتجوّل بعض المتنزّهين الليليين، في حين يعود آخرون إلى بيوتهم ليناموا فيها بعد سهرةٍ طويلةٍ.

استند اللصّ، دونما استعجالٍ، على الحرف الحجري وفكّ من حزامه بكرةً مزوّدة بمسنّناتٍ رؤوسها من الألماس. وبحركةٍ سريعة وواسعة ومنتظمة، خدش السطح الزجاجي، في المكان الذي تلتقي فيه الدامات النحاسية لتشير إلى الساعة السادسة. وكما توقّع،

خدشت العجلة المسنّنة الزجاج فقط، راسمةً دائرةً بحجم إطارٍ صغير. ثبّت فيها أرشيبالد حجامة ثلاثية الرؤوس، ثمّ أمسك بقضيبٍ من الألمنيوم بطول مصباحٍ يدوي. أجال بشعاع المصباح على طول خط الشرخ بخفّة وثقة، مضاعفاً عدد التمريرات. ومثل خيطٍ لقطع الزجاج، أتاح له شعاع الليزر بفتح شقٍّ رفيع وعميق. امتدّ الشقّ سريعاً متابعاً خطّ الشرخ. حين بلغ الزجاج نقطة الاستسلام، دفع أرشيبالد الحجامة. انفصل اللوح الزجاجي الثقيل في قطعةٍ واحدة دون أن يتشظّى أو ينكسر، وحطَّ بهدوء على الأرض، تاركاً فجوةً دائرية، حوافها حادّة مثل المقصلة. وبرشاقة البهلوان، اندسّ أرشيبالد في الفتحة التي منحته الدخول إلى أحد أجمل متاحف العالم. بدءاً من تلك اللحظة، كانت لديه ثلاثون ثانية قبل أن تنطلق صفّارة الإنذار.

*

ملصقاً أنفه على زجاج سيارته، لم يصدّق مارتن عينيه. كان أرشيبالد قد قام بعملٍ مبهر بالتأكيد من خلال ولوجه إلى المتحف بهذه الطريقة المذهلة، لكن صفّارة الإنذار كانت ستنطلق بين لحظةٍ وأخرى. كانت الإجراءات الأمنية لمتحف أورسيه قد شُدِّدت على نحوٍ ملحوظ بعد عملية السطو التي قامت بها السنة الماضية مجموعةٌ من الأشخاص الثملين الذين نجحوا في الدخول إلى المتحف من خلال تحطيم أحد منافذ للنجاة. وقد جال السكارى في المتحف لعدّة دقائق قبل أن يتمّ اعتقالهم، وهو وقتٌ استغلوه في تمزيق لوحة جسر أرجنتوي الشهيرة للفنان كلود مونيه.

أثارت هذه القضية ضجّة كبيرة، واعتبرت وزيرة الثقافة أنّه من غير المقبول أن يستطيع أحدهم الدخول إلى متحف أورسيه كما

يدخل إلى طاحونة. فتمّ التدقيق في مواطن الضعف في المتحف في أعقاب ذلك، وبصفته عضواً في المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية، استُشير مارتن بومون للقيام بحصر وتأمين كلّ المنافذ المحتملة، بحيث أصبحت تلك الصالات الشهيرة التي تعرض أعمال الفنانين الانطباعيين، من الناحية النظرية، محميةً ومصانةً.

ولكن في هذه الحالة، لماذا لم تنطلق صفارة الإنذار اللعينة هذه؟

*

هبط أرشيبالد على إحدى طاولات الكافتيريا. كانت الساعة الجدارية الزجاجية تطلّ مباشرةً على «مقهى المرتفعات»، في الطابق الأخير من المتحف، بالقرب من القاعات المخصّصة لأعمال الانطباعيين. نظر اللصّ إلى ساعة يده: لا تزال أمامه خمس وعشرين ثانية. قفز إلى الأرض وصعد الدرجات القليلة التي تؤدي إلى قاعات العرض. شكّلت العدسات ذات الأشعّة تحت الحمراء مجموعة غير مرئية من الأشعّة بعيدة المدى والتي غطّت مجالاً استكشافياً امتدّ على الأمتار الخمسين للممرّات. عثر على علبة جرس الإنذار وفكّ لوحة الحماية قبل أن يوصل بها حاسوباً محمولاً صغيراً بالكاد أكبر حجماً من جهاز أيبود. تعاقبت الأرقام على الشاشة بسرعةٍ مذهلة. في السقف، لن تتوانى الكاميرتان المزوّدتان بأجهزة استشعار حرارية عن الانطلاق في التصوير. لم تعد هناك سوى عشر ثوانٍ...

*

وإذ لم يعد مارتن قادراً على التحمّل، خرج من سيارته وطقطق

أصابعه. كان يترصّد له في كمينٍ منذ أربع ساعات وبدأ يشعر بالتنمّل في ساقيه. لم يعد معتاداً على ذلك. في بداياته، كان يُمضي لياليَ كاملة بلا نوم أحياناً وهو يكمن للمشبوهين في ظروفٍ لا تُصدّق: في صندوقِ سيارة، أو في حاوية قُمامة، أو في سقف مُستعار. هبّت الرياح فجأةً. ارتعش ورفع سحّاب سترته الجلدية. شعر بقشعريرةٍ، الأمر الذي لم يكن مزعجاً في تلك الليلة الصيفية الحارّة. منذ أن بدأ بالعمل في المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية، لم يكن قد شعر بهكذا إثارة. كانت آخر حالات ارتفاع مستوى الأدرينالين لديه تعود إلى خمس سنواتٍ خلت، في الفترة التي عمل خلالها في وحدةِ مكافحة المخدرات، وهي مهنة متعبة للغاية مرتبطة بمرحلة صعبة من حياته لم يندم على رميها وراء ظهره. لقد فضّل عليها منصب «شرطي الفنّ» المميّز هذا، الذي يجمع بين شغفه بالفنّ والتزامه في سلك الشرطة.

في فرنسا، لم يكن عدد الذين خضعوا للتدريب عالي المستوى الذي وفّرته مدرسة اللوفر يتجاوز ثلاثين شخصاً، وقدّ أتاح لهم هذا التدريب الانخراط في هذه الخدمة المتطوّرة. وحتى إذا كان يجري تحقيقاتِه الآن في الوسط الراقي والأنيق للمتاحف وصالات البيع، مخالطاً مقتني التحف الأثرية وأمناء المتاحف أكثر من مروّجي المخدّرات والقتلة والمغتصبين، إلّا أنّه بقي رجلَ شرطة قبل كلّ شيء. رجل شرطة لديه الكثير ليفعله. فمع أكثر من ثلاثة آلاف سرقة كلّ عام، كانت فرنسا هدفاً مفضّلاً «للصوص التراث»، الذي باتت التجارة به تدرّ واردات مالية تُوازي واردات تجارة الأسلحة أو المخدّرات.

كان مارتن يحتقر اللصوص الذين تعجّ بهم دور العبادة في

القرى، والذين يستولون على الكؤوس وتماثيل الملائكة والسيّدة العذراء. ويمقت المخربين الذين يتسلّون بتخريب التماثيل في الحدائق العامّة. ويكره أخيراً اللصوص الذين يعملون تحت الطلب لحساب مقتني الآثار وبائعي التحف الفاسدين. فبعكس الاعتقاد الشائع، لم يكن لصوص القطع الفنية أشخاصاً منعزلين، بل كان معظمهم على صلة بالجريمة المنظّمة واللصوصية الشديدة اللتين وضع القائمون عليهما اليد على شبكات «تبييض» اللوحات المسروقة من خلال تنظيم عمليات إخراجها من البلاد.

مستنداً إلى غطاء محرّك سيارته القديمة من طراز أودي، أشعل مارتن سيجارةً دون أن يرفع عينيه عن واجهة المتحف. عبر منظاره، رأى بوضوح الفتحة الواسعة في الساعة الجدارية الزجاجية. لم تنطلق أيّ صفارة إنذار حتى تلك اللحظة، ولكنّه كان يعلم أنّ المسألة لم تعد الآن سوى مسألة بضع ثوانٍ قبل أن تمزّق صرخةٌ حادة صمتَ الليل.

*

ثلاث ثوانٍ.

ثانيتان.

ثا...

أنار وميضُ ارتياحٍ وجه أرشيبالد حين تجمّدت الأرقام الستّة على شاشة الحاسوب الصغير. ثمّ ومض الرقم الرابح، معطّلاً بذلك أجهزة كشف الحركة، وهو ما خطّط له بالضبط. ذات يوم، ربّما، سيرتكب خطأً. ذات يوم، ربّما، سيقوم بعملية سطو زائدة. ولكن ليس هذهَ الليلة. فالطريق كانت سالكة، ويمكن للعرض أن يبدأ.

أخي في الوحدة

هناك نوعان من الناس. هناك منْ يعيشون ويلهون ويموتون. وهناك منْ لا يفعلون شيئاً أبداً سوى الوقوف في توازنٍ على حافة الحياة. هناك الفاعلون، وهناك البهلوانيون.

ماكسانس فرمين

أشعل مارتن سيجارة أخرى دون أن ينجح في تهدئة نفسه. هذه المرّة، من المؤكّد أنه كان ثمة خطأ ما، إذ كان على صفارة الإنذار أن تنطلق منذ دقيقة على الأقل.

في قرارة نفسه، لم يكن الرجل الشابّ مستاءً. ألم يكن ذلك ما تمنّاه سرّاً: إلقاء القبض على أرشيبالد بمفرده، دون مساعدة من الحرّاس أو رجال الشرطة القضائية لكي يمنح نفسه فرصة المواجهة رجلاً لرجل بعيداً عن أي شهود؟

كان مارتن يعلم أنّ عدداً لا بأس به من زملائه منبهرون «بمآثر» أرشيبالد ويجدون أنّ مطاردة هكذا مجرم أمرٌ مجزٍ. صحيح أن ماكلين لم يكن لصّاً عاديّاً، فهو أرعب مدراء المتاحف وسخر من كلّ أجهزة الشرطة في العالم على مدى خمس وعشرين سنة. ولكونه

مؤمناً بالأسلوب الجميل، حوّل أرشيبالد السطو إلى عملٍ فنيّ، مظهراً براعةً وابتكاراً في كلّ سرقةٍ يقوم بها. كما أنه لم يلجأ إلى العنف قطّ؛ لم يطلق رصاصة واحدة ولم يسفك نقط دمٍ واحدة. وبأسلحته الوحيدة المتمثّلة بالخداع والجرأة، لم يتردّد في سرقة رجالٍ خطيرين - رجل العصابات أوليغ موردوروف، وبارون المخدّرات كارلوس أورتيغ -، حتى لو أدّى ذلك إلى أن يصبح عرضةً لملاحقة المافيا الروسية وطُلب رأسه من قِبل عصابات أمريكا الجنوبية. ولطالما شعر مارتن بالغضب من الطريقة التي تعرض بها وسائلُ الإعلام شرورَ ذلك اللص، إذ كان الصحافيون يرسمون عن أرشيبالد صورة مجامِلة، ويعتبرونه فناناً أكثر منه مجرماً.

وتكمن المفارقة في أنّ رجال الشرطة لم يكونوا يعرفون الشيء الكثير عن أرشيبالد ماكلين: لا جنسيته، ولا عمره، ولا عيّنة من حمضه النووي. فالرجل لم يترك بصماته خلفه أبداً. وفي أشرطة الفيديو المسجّلة بكاميرات المراقبة، كان نادراً ما يُرى وجهه، وحينما يتوصّل رجال الشرطة إلى ذلك، يختلف وجهه في كلّ مرّة عن الأخرى، لكثرة ما أجاد الرجل فنّ التنكّر. وعلى الرغم من أنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي قد وعد بمكافآت مجزية لكلّ من يُدلي بمعلومات تساعد في اعتقاله، إلا أنّه لم يحصل سوى على شهادات متناقضة. كان أرشيبالد حرباء حقيقية، قادراً على تغيير مظهره الجسدي والدخول في قالب شخصياته المتعدّدة مثل ممثّلٍ بارع. ولم يشِ به أيّ شخص ممن اشتروا منه مسروقاته أو تواطؤوا معه. وهي كلّها إشارات تدلّ على أنّ أرشيبالد يعمل لوحده ولحسابه الخاصّ.

بخلاف زملائه وبخلاف الصحافة، لم يستسلم مارتن للافتتان بهذه الشخصية. فرغم مهارته، لم يكن ماكلين سوى مجرم.

بالنسبة إلى مارتن، لم تكن سرقة الأصول الثقافية مماثلة لسرقة أشياء أخرى. فبعيداً عن قيمته السوقية، كان لكلِّ إبداعٍ فنّي جانب مقدّس، كما أنه يساهم في انتقال تراثٍ ثقافيٍّ تراكم على مدى القرون. وبالتالي كانت سرقة تحفة فنّية تشكّل انتهاكاً صارخاً لقيم حضارتنا وأسسها.

والذين يتورّطون في هذه السرقات لا يستحقون أيّ تساهل.

*

كان هناك صمتٌ مطبق، لم تُسمع أيّ طقطقة ولم يكن هناك أيّ حضور: كان المتحف هادئاً على نحوٍ غريب. دخل أرشيبالد صالات العرض بنفس الخشوع الذي قد يدخل به كنيسة. كانت الإنارة الليلية الخافتة للمتحف، بلونيها الأخضر الزمردي والأزرق الكوبالتي تُغرِق القاعات في جوٍّ قصرٍ مسكونٍ بالأرواح. استسلم أرشيبالد للجوّ السائد. لطالما اعتقد أنّ المتاحف تلتقطُ أنفاسها في الليل، وسط الصمت والظلام، بعيداً عن هتافات حشود الزائرين ووميض آلات تصوير السيّاح. أفلا تؤدّي المبالغة في عرض جمال التحف الأثرية إلى تشويه قوامها، وإلى إتلافها في نهاية المطاف؟ ففي عامٍ واحدٍ، تتعرّض اللوحة الآن للضوء أكثر ممّا تعرّضت له خلال خمسين عاماً في الماضي! ومن خلال عرضها بهذه الطريقة، تفقد اللوحات ألقها شيئاً فشيئاً، وهي تفرَغ من نسغها ومن حياتها.

وصل إلى الصالة الأولى، المخصّصة للرسّام الفرنسي بول سيزان. منذ أكثر من عشرين سنة، قام أرشيبالد بـ «زيارة» عشرات المتاحف، وحصل على بعض أكبر التحف الفنية؛ ومع ذلك، تنتابه نفس العاطفة في كلّ مرّة، ونفس القشعريرة أمام جلاء العبقرية.

توجد بعض أجمل أعمال سيزان في هذه القاعة: **السبّاحون، لاعبو الورق، جبل سانت-فيكتوار...**

أرغم اللصّ نفسه على أن يخرج عن تأمّله. التقط من حزامه قضيباً رفيعاً من التيتانيوم وثبّته بقوّة على لوحة الجدار التي تفصل هذه الصالة عن الصالة التالية.

لأنّ أرشيبالد لم يكن قد أتى من أجل بول سيزان...

*

سحق مارتن عقب سيجارته بكعب حذائه الطويل قبل أن يعود إلى داخل السيارة. لم تكن هذه هي اللحظة المناسبة ليكشف عن نفسه. إذا كان قد تعلّم شيئاً من سنوات خدمته العشر، فهو أنّ أكثر المجرمين عبقريةً لا بدّ وأن يرتكب خطأً ما. هكذا هي الطبيعة البشرية: عاجلاً أم آجلاً، تؤدي الثقة الزائدة إلى التهاون، ويقودك التهاون إلى ارتكاب خطأ - حتى ولو كان خطأً صغيراً جدّاً - يكفي لأن يتم القبض عليك. وأقلّ ما يمكن قوله هو أنّ أرشيبالد قد زاد، خلال الأشهر الأخيرة، من عدد غزواته الجريئة، منفّذاً سلسلة من عمليات السطو التي لم يشهد عالم الفنّ مثيلاً لها على الإطلاق: فمن بين كنوز أخرى، سطا على لوحة **الرقص** للرسام هنري ماتيس من متحف الأرميتاج في سان بطرسبرغ، ومدوّنة موسيقية نفيسة مكتوبة بخطّ اليد لسيمفونيات موزارت من **مكتبة مورغان** في نيويورك، ولوحة امرأة عارية للرسام الإيطالي أميديو موديلياني في لندن... وأخيراً، قبل ثلاثة أشهر خلت، بينما كان يقضي عطلة نهاية الأسبوع على متن يخته، تعرّض الملياردير الروسي ايفان فولينسكي لمفاجأة مزعجة حينما اكتشف أنّ لوحة جاكسون بولوك

الشهيرة **666** التي اقتناها من دار سوذبيز للمزادات لقاء قرابة 90 مليون دولار قد سُرقت منه، وهي سرقة أثارت غضب الثريّ الروسي الذي قيل إنه اشترى هذه اللوحة لصديقته الشابّة الجديدة.

أشعل مارتن المصباح السقفي للسيارة وأخرج من جيبه مفكّرة صغيرة مجلّدة كان قد كتب فيها ملخّصاً عن السرقات التي وقعت مؤخّراً.

تاريخ السرقة	العمل الفني	الفنان	تاريخ وفاة الفنان
3 نوفمبر	الرقص	ماتيس	3 نوفمبر 1954
5 ديسمبر	مخطوطات	موزارت	5 ديسمبر 1791
24 يناير	امرأة عارية	موديلياني	24 يناير 1920
6 فبراير	بورتريه أديل بلوخ باور	كليمت	6 فبراير 1918
8 أبريل	المتسوّل	بيكاسو	8 أبريل 1973
16 أبريل	الماجا العارية	جويا	16 أبريل 1828
28 أبريل	اللوحة الثلاثية	بيكون	28 أبريل 1992

كانت حالات التطابق بين تواريخ حدوث السرقات وتواريخ وفاة الفنانين عديدة بحيث لا يمكن الاعتقاد بأنّ المسألة هي بمحض الصدفة فحسب: بطريقة قاتلٍ تسلسلي، لم يكن أرشيبالد ماكلين يضرب ضربته بالصدفة، وإنّما يتّبع طريقة عمل محدّدة. وكما لو أنّه يحتفي بها، بدا أنّه يقوم بسرقاته حسب تاريخ الذكرى السنوية لوفاة الفنانين الذين يجلّهم! ومن باب الغرور أو كطريقةٍ للاستهزاء بالشرطة ولبناء أسطورة لنفسه، كان يشير إلى كلّ عمليةِ سطوٍ يقوم بها بترك

بطاقة التعريف الخاصة به المزيّنة بصليب الجنوب. كان هذا الرجل غير قابلٍ للتصنيف بكلّ تأكيد.

حين اكتشف النهج الذي يتبعه أرشيبالد، كان أوّل ردّ فعلٍ أبداه مارتن هو دراسة ملفات الإنتربول، ولكنّه لم يعثر على أيّ أثرٍ لاستنتاجاته. بدا أنه المحقّق الوحيد في العالم الذي ربط بين تواريخ سرقة التحف الفنية وتواريخ وفاة الفنانين! تردّد الشرطي الشاب في إبلاغ رئيسه، المقدّم لوازو، رئيس المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية، وآثر في النهاية أن يحتفظ بالمعلومة لنفسه وأن يتصرّف كقنّاصٍ منفرد. أهي خطيئة تكبّر؟ ربّما، ولكنّ الأمر يتعلّق بشخصيته أيضاً: فقد كان مارتن يميل إلى الفردانية، وكان غير مرتاح وضعيف الأداء في العمل ضمن مجموعة، بل كان يُظهر قدراته الكاملة عندما يعمل على طريقته الخاصّة. وهذا ما كان سيفعله هذه الليلة بتقديمه رأس أرشيبالد على طبقٍ من ذهب إلى المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية. وكما في كلّ مرّة، لن يتوانى المقدّم لوازو وزملاؤه عن نسب جدارة هذا الصنيع لأنفسهم، ولكن لم يكن مارتن يولي أهمية لذلك. لم يكن قد أصبح شرطياً لكي ينال مراتب الشرف أو الاعتراف بقدراته.

أنزل زجاج نافذة سيارته القديمة. كان الليل متوتّراً، مليئاً بالأخطار والوعود. في الأعلى، عبر نوافذ واجهة المتحف، لاحت ثُريات ضخمة تشهد على فخامة الأيام الخوالي.

نظر إلى ساعة يده، وهي من مجموعة «سبيدماستر» النادرة لأوميغا، كان قد تلقّاها هديّةً من حبيبة سابقة اختفت من حياته منذ زمنٍ طويل.

منذ بضع ساعات، أصبحنا في التاسع والعشرين من يوليو.

وهو اليوم الذي يصادف الذكرى السنوية لوفاة الرسام الهولندي فينسنت فان غوخ.

*

- عيد وفاة سعيد، يا فينسنت، قال أرشيبالد وهو يدخل الصالة التالية التي تضمّ بعض أشهر لوحات فان غوخ: **القيلولة**، **بورتريه الطبيب غاشيه**، **الكنيسة في أوفير**...

سار بضع خطوات في الصالة وتوقّف أمام أكثر البورتريهات شهرةً للفنان. مكللاً بهالة من الذبذبات الغامضة، كان للوحة شيء من الشبحية بألوانها الفيروزية والخضراء الحبقية التي شعّت وسط الظلام.

من إطاره الخشبي المذهّب، ألقى عليه فان غوخ نظرة مواربة، ثابتة ومقلقة. نظرة بدت أنّها تلاحقه وتهرب منه في آنٍ واحدٍ. كما كشفت لمساتٌ متقاطعة عن ملامحه القاسية والنحيفة، فيما التهم شعره المائل للون البرتقالي ولحيته ذات اللون الناري وجهه مثل ألسنة لهبٍ، في حين برزت زخرفات هذيانية في عمق اللوحة.

نظر أرشيبالد إلى اللوحة بإمعان.

مثل رامبرانت وبيكاسو، كان فان غوخ قد اتّخذ من نفسه نموذجاً في الكثير من الأحيان، وبحث عن هويّته إلى حدّ التيه على مدى اللوحات، بأسلوبه الفذّ الذي لا يُقلّد. وقد تم توثيق أكثر من أربعين بورتريهاً ذاتياً، وهي مرايا واقعية سمحت بمتابعة تطوّر مرضه واضطرابه الداخلي. لكن كانت هذه اللوحة معروفةً على أنّها اللوحة التي تعلّق بها فينسنت أكثر من كل لوحاته الأخرى. ربّما لأنّه رسمها أثناء احتجازه في مصحة سان-ريمي-دو-بروفانس قبل عامٍ واحدٍ من

انتحاره، أثناء إحدى المراحل الأكثر عطاءً ولكن أيضاً الأكثر ألماً في حياته.

شعر أرشيبالد بشيءٍ من التعاطف وباضطرابٍ حقيقي أمام الوجه المعذّب. في هذه الليلة، عكست اللوحةُ للصّ صورةَ أخٍ في الوحدة.

هذه اللوحة، كان بإمكانه أن يسرقها قبل عشر أو عشرين سنة، ولكنّه آثر أن ينتظر حتى هذه الليلة، التي ستكون ذروة مهنته كلصّ.

سُمِع وقعُ خطواتٍ في الطابق السفلي، ولكن أرشيبالد لم يستطع رفع عينيه عن عينَي الرسّام الهولندي، مفتوناً بعبقريته التي تغلّبت بطريقةٍ ما على جنونه.

أعادته الاستفهاماتُ التي استشعرها في بورتريهات فان غوخ الذاتية إلى الأسئلة التي كان يطرحها بنفسه عن حياته. من هو حقّاً؟ هل اتّخذ القرارات الصائبة في اللحظات الحاسمة؟ ما الذي ينوي أن يكرّس له ما تبقّى من حياته؟ وخاصةً، هل سيجد ذات يوم الشجاعة في أن يخطو خطوةً نحوها - المرأة الوحيدة التي تهمّه فعلاً - لكي يعتذر منها؟

- هل نذهب إذاً، يا فينسنت؟ سأل أرشيبالد.

بفعل الإضاءة، بدت نظرة فان غوخ تلمع على نحوٍ أكثر حيويةً. قرّر أرشيبالد أن يعتبر هذه الإشارة موافقةً.

- حسناً، اربط حزامك. من شأن هذا أن يسبّب بعض المطبات! قال محذّراً وهو ينزع اللوحة عن مسندها.

وفي الحال، انطلقت صفّارة الإنذار ودوّى صفيرٌ حادّ في كلّ أرجاء المتحف.

*

سُمِع صوت الصفارة الحادّ حتى الشارع.

وإذ كان مارتن على أهبة الاستعداد، لم يكن ينتظر سوى هذه الإشارة لكي يتحرّك. فتح باب سيارته وخرج إلى الرصيف بعد أن أخرج سلاح الخدمة خاصّته من درج السيارة: المسدس نصف الآلي من طراز سيج ساور عيار 9 مم المستخدَم من قبل أغلبية عناصر الدرك والشرطة في فرنسا. تأكّد من أنّ المذخّر يحتوي على خمس عشرة طلقة وأعاد المسدّس إلى جرابه.

أتمنى ألا أضطرّ إلى استخدامه...

كان يعاني من نقصٍ في التدريب. فمنذ انتقاله إلى المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية، لم يُطلق طلقةً واحدة، في حين أنه كان يستخدم سلاحه باستمرار في وحدة مكافحة المخدّرات.

عَبَر مارتن الشارع لكي يأخذ مكانه في فناء المتحف، المتعامد مع أرصفة نهر السين. كان شارع لجيون-دونور خالياً من الناس باستثناء مشرّدين اثنين كانا نائمين في كيسَي نوم عند مدخل المحطة تحت الأرضية لشبكة قطارات RER C. اختبأ الشرطي الشابّ خلف أحد أعمدة الإعلانات على الرصيف، وتمركز في موقعه الجديد للمراقبة. مشرئباً برأسه نحو الأسطح، رأى من خلال منظاره حبلاً جديداً يتدلّى على طول الواجهة الشرقية للمتحف والذي سمح بالوصول إلى إحدى شرفات الطابق الأوّل.

شعر بدقّات قلبه تتسارع.

لا تتأخّر كثيراً، يا أرشي. أنا هنا. في انتظارك.

*

ما أن انتزع أرشيبالد اللوحة من مسندها، حتى هبطت

السياجات الحديدية بسرعة فائقة من جانبَي الصالة للإيقاع باللصّ وقطع طريق الهروب عليه. كان نفس هذا النظام موجوداً الآن في جميع المتاحف الكبيرة حول العالم، بحيث لم تكن الفكرةُ منعَ تسلّل المجرمين إلى المباني، وإنّما عدم استطاعتهم الخروج منها.

خلال بضع ثوانٍ، شغلت مجموعة من رجال الحراسة المستوى العلوي للمتحف.

- إنّه هناك، في القاعة 34! صاح رئيس جهاز الأمن وهو يدخل إلى الممرّ الذي يؤدّي إلى صالات العرض.

دون أن يستسلم للهلع، ارتدى أرشيبالد قناعاً للتنفّس، ووضع نظّارات وقاية رقيقة مائلة للون الأزرق وسحب من حقيبته شيئاً «ليختفي» به.

اقتربت الدورية، منتشرةً بأقصى سرعة في صالات عرض أعمال الرسامين الانطباعيين. وحين وصل الحرّاسُ إلى أمام السياج الحديدي، استُقبِلوا بثلاث قنابل يدوية أُلقيت على أرضية الصالة. دبّ الذعر بين الحرّاس، فتجمّدوا في أماكنهم، ثمّ بدأت المقذوفات الثلاثة تنشر غازاً أرجواني اللون. وفي الحال، غزا دخانٌ كثيف ولاذع القاعة، وجعلها تغرق في ضبابٍ تفوح منه رائحة المطّاط المحروق.

- الشقيّ! إنه يحاصرنا بالدخان! صاح المسؤول وهو يتراجع بضع خطواتٍ إلى الوراء.

لم تتأخّر كاشفات الدخان عن الانطلاق، وهذه المرّة، انطلقت صفّارةُ الإنذار الخاصّة باندلاع الحرائق، مضاعفةً الضجيج في الأرجاء. وفي الحال، انسدلَ ستارٌ معدني بشفرات مسطّحة حول القاعة بأكملها، ليحمي اللوحات من مياه أجهزة إطفاء الحرائق

الأوتوماتيكية التي لن تتأخر عن العمل حالما تغدو حرارة القاعة مرتفعة.

*

في نفس اللحظة، تلقّى مركز الشرطة في الدائرة السابعة بثاً مباشراً لصور الكاميرات المنصوبة في متحف أورسيه. كان نظام الحماية التلفزيوني الذي يربط صفارة إنذار المتحف بأقسام الشرطة القضائية يعمل نتيجة خطأ أحياناً، ولكن كان الإنذار جدّياً هذه المرّة، ودون إضاعةٍ للوقت، انطلقت ثلاث سيارات شرطة مطلقةً صفّارات الإنذار نحو المتحف الشهير على الضفة اليسرى للنهر.

*

- لا أفهم اللعبة التي يلعبُها! قال رئيس جهاز الأمن متذمّراً، وهو يضع منديلاً على وجهه لكي يحتمي من الدخان.

أمسك بمكبّر الصوت وصرخ بأوامره لمكتب الأمن:

- أرسلوا رجالاً عبر السلالم الداخلية. لا أريد أن يغيب عن أنظارنا!

خلف قضبان اسياج، لم يرَ سوى طيفٍ غير واضحٍ يتحرّك في صالة فان غوخ. وقبل أن يغمر الدخان كامل صالة العرض، تفحّص القاعة بنظاراته ذات الأشعّة تحت الحمراء. للوهلة الأولى، بدا أنّه لم يكن هناك أي خطر لهروب اللصّ: فبحسب ما استطاع رؤيته، كانت القضبان الحديدية في الطرف الآخر من القاعة قد هبطت هي الأخرى، الأمر الذي منع أيّ إمكانيةٍ للفرار. **ليس على رجال الشرطة سوى أن يلتقطوه حالما نفتح المنافذ من جديد**، قال في قرارة نفسه، مطمئناً تماماً.

*

ما لم يكن قد رآه هو قضيب التيتانيوم الرفيع الذي أوقف السياج على ارتفاع خمسين سنتمتراً عن الأرض. . .

*

ارتسمت ابتسامةٌ خفيفة على وجه أرشيبالد وهو يزحف تحت السياج الحديدي قبل أن يخرج من المتحف من حيث دخل. لم تستغرق كلّ العملية أكثر من خمس دقائق.

خمس دقائق كانت كافية لينتزع من الجدار لوحةً لا تُقدّر بثمن.

4

رجلان في المدينة

فقط الأعداء هم من يقولون الحقيقة؛ أمّا الأصدقاء والأحبّاء فيكذبون باستمرار، عالقين في شبكة الواجب.

ستيفن كينغ

بعد أن ركض على السطوح، أمسك أرشيبالد بالحبل لكي يربطه بوصلة حزامه قبل أن ينزلق إلى الشرفة. ودون أن يلتقط أنفاسه، قفز فوق الدرابزين ونزل على المظلّة البلّورية السميكة التي تعلو مدخل المتحف. ثمّ، وبرشاقة قطٍّ، قفز من ارتفاع عدّة أمتار ملقياً بنفسه في الفناء.

لا بأس بأدائك، أيّها البهلوان... قال مارتن في نفسه وهو لا يزال مختبئاً خلف العمود الإعلاني. أخرج الشرطي الشاب سلاحه، جاهزاً للتدخّل. وأخيراً، اقترب من الهدف! دون أن يعرف السبب، لقد استولى اللصُّ الشهير على ذهنه إلى حدّ الهوس، فأقسم على أن يكون أوّل من يكشف سرّه. فعلى الرغم من شحّ المعلومات حول ماكلين، حاول أن يرسم صورة لنفسيته، محاولاً التفكير مثله لكي يتوقّع منطقه ويفهمه. لم يكن ذلك افتتاناً، بل شيئاً مختلفاً: فضولٌ

نهمٌ يُضاعفه رابطٌ غير مرئي يربط بين لاعبَي شطرنج. الرابط الذي كان يربط بين بروسار ومسرين، روجيه بورنيش وإميل بويسون، كلاريس ستيرلينغ وهانيبال ليكتر...

حسناً، كفّ عن الهذيان. اخرج من مخبئك واقبض عليه!

بيد أنّ مارتن، ورغم أوامر عقله، بقي جامداً في مكانه، كمشاهدٍ سلبيٍّ لفيلمٍ لم يكن هو بطله. الآن وقد شارفت مطاردته على خواتيمها، شعر بفراغٍ غريب في جوف بطنه. من أين أتى هذا التردّد؟ لماذا هذه الحاجة، هذه الرغبة الماكرة في أن يلعب لعبة القطّ والفأر؟

أهي من أجل إطالة أمد المتعة؟

أمّا أرشيبالد، فلم يضيّع الوقت، واختفى بسرعة البرق خلف كشكٍ لبيع الصحف في شارع لجيون-دونور لبرهة من الوقت، ليخرج منه بحلّة مختلفة تماماً، إذ كان قد استبدل بزّته الخاصّة بالتمويه بسترةٍ كاشفة اللون وبنطالٍ من القماش.

قدرته على التخفّي ليست أسطورةً، قال مارتن في نفسه. فأكثر من زيّه الجديد، بدت طريقةُ اللصّ في المشي مختلفةً تماماً: بدا ثقيلاً ومقوّس الظهر، كما لو أنّ أرشيبالد شاخ عشر سنوات في غضون عشر ثوانٍ.

لكنّ ما هو أكثر إدهاشاً لم يأتِ بعد.

هذا شيءٌ من الهذيان!

على ضوء الإنارة العامّة للشارع، راقب الشرطي الشابّ اللصّ الذي همّ بركوب... درّاجة عامّة: واحدة من العشرين ألف درّاجة للخدمة الذاتية التي وضعتها البلدية في خدمة السياح والباريسيين. بغضون بضعة أشهر، كان الشكل الثقيل للدراجة الرمادية قد فرض

نفسه كإحدى أيقونات شوارع العاصمة. بدا ماكلين مستمتعاً بها، حتى وإن استخدمها على نحوٍ خاصٍّ جدّاً، وحرص على ربط درّاجته بأحد أعمدة الإنارة قبل أن يتسلّق سطح المتحف!

بينما أعلنت جوقة من صفّارات الإنذار عن وصول شرطة مركز الدائرة السابعة، وصل أرشيبالد إلى رصيف أناتول فرانس. تردّد مارتن في أن يستقلّ سيارته ثمّ تخلّى عن الفكرة. في حين كان النقيب الشاب يتعقّبه، سار أرشيبالد على طول نهر السين، مديراً ظهره لمقرّ الجمعية الوطنية، وقاد درّاجته في اتجاه جزيرة المدينة. توقّفت سيارات الشرطة الثلاث في ساحة هنري دي مونترلان، أمام مدخل المتحف تماماً، ونزل منها ما يقرب من عشرة رجال شرطة بالزيّ الرسمي والذين اندفعوا معاً كرجلٍ واحدٍ ودخلوا عبر المدخل الرئيسي.

لم يشكّوا للحظة أنّ الرجل الذي صادفوه وهو يقود الدرّاجة قبل لحظات هو نفسه الرجل الذي جاءوا لتوقيفه.

*

مصدوماً بما شهده حتى الآن، تساءل مارتن عن كيفية المضي قدماً. كان أرشيبالد قد وصل إلى الرصيف المحاذي لضفّة النهر ويقود درّاجته بوتيرة هادئة، في الاتجاه المعاكس لحركة المرور. لم يلتفت إلى الوراء مرّةً واحدة ليرى إن كان ملاحقاً. على الرصيف المقابل، لم يُزح مارتن عينيه عنه ولو للحظة. لحسن الحظّ، كانت درّاجة البلدية مرئية على نحوٍ واضح - مع لصاقات عاكسة على العجلتين، وضوءٌ قويّ ينبعثُ من المصباحين الأمامي والخلفي -، الأمر الذي أتاح عدم اختفائه عن الأنظار. علاوة على ذلك، كانت الدرّاجة مدرّعة بالكامل على مستوى الشرائط والمكابح، ولا بدّ أنّها

كانت تزن طنّاً وتقطع الطريق على أيّ نيّة لدى أرشيبالد في أن يعتبر نفسه الدرّاج برنار إينو.

هبّت الرياح قويّةً وتلاعبت بالأعلام ثلاثية الألوان المرفرفة فوق واجهة مؤسسة صندوق الإسكان. كان مارتن متوتّراً، ولكنّه مسيطر على الوضع: فحتى إذا لاحظه أرشيبالد، لن يتمكّن من الإفلات منه. ليس من هذه المسافة القصيرة. كان مارتن يمارس رياضة الركض بشكلٍ جدّي كلّ صباح تقريباً، ويركض إلى حدّ الإنهاك لكي يحسّن من قدراته. فإذا حاول الآخر أن يُجري سباقاً، لن يدعه مارتن ينطلق من مكانه. ومع ذلك، كان مضطراً أن يبقى على أهبة الاستعداد، غير راغبٍ في أن يجازف بأن يفلت منه اللصّ.

تجاوز الرجلان الجسر الملكي بمطباته وأقواسه الدائرية، والذي يربط بين شارع دو بون وجناح فلور لمتحف اللوفر.

بدا أرشيبالد وكأنّه يستمتع بنزهته الليلية، وهو يقود درّاجته بتراخٍ، ويستنشق هواء الليل بمتعة سائحٍ. في مقدّمة درّاجته، كان ساعدان يسندان سلّة معدنية تُستخدم كصندوق للأمتعة، وضع فيها أرشيبالد كيساً باللون الكاكي، بدا مأخوذاً مباشرةً من مخزنٍ للجيش. كيسٌ كان يحتوي على لوحةٍ لفان غوخ قيمتها تقارب المئة مليون يورو...

حين وصل إلى رصيف فولتير، منح نفسه متعة إبطاء سرعته أكثر، متجولاً أمام المعارض والمكتبات الفنّية وواجهات المتاجر الراقية لبيع التحف.

هذا هو، اِلعَب دور السيّاح الآن! تنهّد مارتن قائلاً.

مع ذلك، استسلم الشرطي رغماً عنه لسحر ذلك الحيّ. في الليل، بدا رصيف فولتير وكأنّه خارج الزمن وكان يكفي القليل لكي

يتخيّل المرء أنّه عاد قرناً إلى الوراء. في الزمن الذي كان للرسّامَين آنغر وديلاكروا مرسمهما في هذا الحيّ، في الزمن الذي كتب فيه بودلير **أزهار الشرّ** في فندقٍ قريبٍ...

أعاد إعلانٌ مُستفِز ملصّقٌ على موقفٍ للحافلات مارتن فجأةً إلى الواقع. كان أرشيبالد يسير الآن أمام العلب المعدنية لتجّار الكتب المستعملة. كانت بعضها قد خُطِّطت حديثاً بعبارات مضمونها تافه وسخيف: **جميلة، أحبّكِ - ريجيس أحمق - ساركو فاشو - سيغو في السياسة كما باريس هيلتون في الثقافة.**

بعد جسر الكاروسيل مباشرةً، استمتع اللصّ كخبيرٍ بمتجر سنيلييه للمواد الفنية، **ألوان الرصيف**، الذي زوّد بالدهانات والأقمشة سيزان وموديلياني وبيكاسو على حدّ سواء. وإلى جانبه، كان حارسان مناوبان يثرثران أمام شقّة الرئيس الأسبق جاك شيراك. مرّ أرشيبالد أمامهما، مبتسماً.

ثمّ تعب اللصّ من لعب دور السائح وسرّع من وتيرة سيره. بيد أنّ سرعته لم تبلغ درجة أن يشعر مارتن معها بالخطر. كانت مصابيح الإنارة الطرقية كثيرة في ذلك الجزء من الشارع. وبينما ارتسم المعبر الحديدي لجسر الفنون في الأفق، بدا أن حركة المرور تنشط مع مرور عدد من سيارات الأجرة بكلّ سرعة في خطّ الحافلات. من جهة نهر السين، كان عاملا نظافة ينظّفان سطح قاربٍ طويل مجهّزٍ ليكون مطعماً. كانت مركبة خضراء وبيضاء، كُتبَت عليها «نظافة باريس»، مركونةً على طرفٍ من الرصيف، وأضواء الإنذار فيها مشتعلة، ومحرّكها يدور، بينما سائقها غائب.

كان أرشيبالد الآن يقود درّاجته بأقصى سرعة، فمرّ مثل السهم أمام المعهد الفرنسي، مرغماً مارتن على أن يركض بوتيرة متسارعة.

تنازعت في ذهن الشرطي الشاب نوايا متناقضة. هل ينبغي توقيف ماكلين في الحال أم المجازفة بتعقّبه لأبعد مسافة ممكنة؟ فحتى مع وضع أرشيبالد خلف القضبان، لم يكن ثمة شيء يضمن أن تتمكّن السلطاتُ من العثور على غنيمته المذهلة واسترداد العشرات من اللوحات الفنية التي كان قد استولى عليها. عبرت صورةٌ ذهن الشرطي الشابّ، وهي صورة المسلّة الجوفاء، المخبأ الأسطوري لأرسين لوبين، المجهّز في منحدرات بلدية إيتريتا، حيث خبّأ كنزه الثمين: **الجوكندا**، وأعظم أعمال بوتيتشيلي، ولوحات رامبرانت الأكثر ظلمةً... ومن المؤكّد أنّ كهف ماكلين لن يكون أقلّ ثراءً منه.

أنا الذي عثرت عليه. أنا أقوى منه. يمكنني القبض عليه متى أشاء...

تحت الأشجار الكثيفة لرصيف كونتي، اعتمد أرشيبالد وتيرةً أبطأ، الأمر الذي لم يكن ليغضب مارتن. كانت سيارة شرطة تقوم بدورية على الأرصفة، ليس بعيداً عن زورق فرق الإطفاء، ولكنّها كانت تُطارد المشرّدين أكثر من مطاردتها اللصوص. لم يرفّ لأرشيبالد جفنٌ وواصل رحلته نحو جزيرة المدينة.

حين ظهر طيف جسر بون نوف في الأفق، تساءل مارتن لأول مرّة: في هذه المطاردة، هل كان متأكّداً من أنه لا يلعب دور الفريسة؟

*

تخلّى اللصّ عن درّاجته على رصيف غران-أوغسطين عند نافورة والاس، التي تسند تماثيلُ العذارى الأربعة خاصتها حوضاً من الصلب المزيّن بدلافينٍ وآلهة نهرية.

أمسك أرشيبالد بالكيس البحري ووضعه على كتفه قبل أن يسلك جسر بون نوف. وإذ بوغِتَ مارتن بذلك، أخرج سلاحه من جديد كنوع من ردّ الفعل، ولكن لم يكن لديه خيارٌ آخر سوى أن يحذو حذو أرشيبالد، وأن يلحق به على المكشوف، على الرصيف نفسه.

بشرفاته نصف الدائرية والمئات من الأشكال الرائعة التي تزيّن أفاريزه، كان الجسر الأكثر قدماً في باريس هو الأكثر جاذبيةً أيضاً. تعبرُ أقواسه الاثنا عشر فرعي نهر السين، راسمةً خطّاً مكسوراً أنيقاً يتّصل حرفه الخارجي عبر فاصلٍ أوسطٍ بطرف جزيرة المدينة.

كان الجسر خالياً من الحركة على نحوٍ غريب، تعصف به الرياح القوية. وكحرباء حقيقية، استعاد أرشيبالد رشاقته وحيويته. لم يكن لوتيرة جريه أي علاقة مع وتيرة الدرّاج الهادئ الذي تبعه مارتن حتى الآن. ففي غضون بضع ثوانٍ، تجاوز أوّل مصطبتين نصف الدائريتين اللتين تعلوان الأفاريز.

سار الشرطي الشاب لاهثاً ويتصبب عرقاً، ويده المسلّحة ممدودة على نحوٍ مائل، وفوهة المسدّس مسدّدة نحو الأرض، وسرت فيه رعشة من الهلع. قد تكون سيارة في انتظاره على الطرف الآخر من الجسر. أو قد يظهر شريكٌ له ليمدّ له يد العون. هذه المرّة، كانت مخاطر أن يفقد أرشيبالد كبيرة جدّاً في مواصلة مراقبة اللصّ وتعقّبه. رفع مارتن صمام الأمان عن سلاحه، وذخّر سلاحه وأصدر أمراً تحذيرياً أولاً.

- أنا شرطي، توقّف!

أبطأ اللصّ جريه فجأةً.

- توقّف وإلا سأطلق النار! تابع مارتن مستغلاً تأثير المفاجأة.

هذه المرّة، توقّف أرشيبالد مباشرةً.

- ارفع يديك واستدر ببطء!

دون أن يدعه يكرّر الأمر، امتثل أرشيبالد، وللمرّة الأولى، تأمّل مارتن في ملامح اللصّ.

كان أرشيبالد رجلاً في حوالي الستين من عمره، حسن المظهر. لمع شعره الفضي الداكن ولحيته المشذّبة وسط الظلام. وأنارت عيناه الخضراوان الكاشفتان جدّاً واللامعتان، وجهاً ذا تقاسيم متناسقة، احتفظ ببعض الآثار السوداء من مرهم التمويه. لم يعكس أيّ شيءٍ فيه الخوف أو الدهشة. بل بالعكس، كان كلّ شيءٍ فيه يوحي بالمرح والهدوء.

- مرحباً، يا مارتن. إنّها ليلة جميلة، أليس كذلك؟

شعر الشرطي الشاب بدمه يتجمّد في عروقه...

اللعنة، كيف عرف منْ أكون؟

... ولكنّه حاول ألا يفضح دهشته.

- اخرس، وضع كيسك على الأرض!

أفلت أرشيبالد الكيس الذي سقط قرب قدميه. لاحظ مارتن شارة القوات الجوية الملكية، أي سلاح الجوّ البريطاني، مطرّزة على نسيج الكيس.

- لو أردتّ حقّاً أن تلقي القبض عليّ، كان عليك أن تفعل ذلك أمام المتحف، يا مارتن.

كيف عرف أنّ...

- لقد جاءتك فرصتك، وتركتها تفوتك، ختم اللصّ قائلاً.

كان صوت الرجل خفيضاً ولهجته اسكتلندية، وهو يلفظ حرف

الراء على نحوٍ خفيفٍ. فكّر مارتن في صوت شون كونري الذي حافظ بفخرٍ على لهجة بلده الأصلي أياً كانت جنسية الشخصية التي يؤدّي دورها.

- مدّ يديك نحوي! صاح مارتن وهو يُخرج زوجاً من الأصفاد من جيب سترته.

هذه المرّة، لم يمتثل الاسكتلندي لأوامره.

- لم ترتكب سوى خطأ واحدٍ، ولكنّه أكثر فداحةً من كل الأخطاء: لقد تركت لنفسك احتمال الخسارة في حين كان بإمكانك أن تفوز. إنّ التردد قاتلٌ دائماً...

تجمّد مارتن من جرّاء هذا التغيّر المفاجئ في الأدوار، وواصل أرشيبالد حديثه:

- الخاسرون ينهزمون دائماً بأنفسهم، وليس من قِبل خصومهم، ولكنني أعتقد أنّك تعرف هذه الحقيقة بالفعل.

هبّت الرياح على نحوٍ أشدّ، ورفعت زوبعةٌ سحابةً من الغبار، مرغمةً مارتن على حماية وجهه. تابع ماكلين حديثه، غير مضطربٍ:

- في بعض الأحيان، أن يخسر المرء أسهل بكثير من أن يدفع الثمن الذي يتطلّبه الفوز، أليس كذلك؟

ولأنّ مارتن لم يُجب، ألحّ أرشيبالد:

- اعترفْ على الأقلّ بأنّك سبق وطرحت على نفسك هذا السؤال!

- أيّ سؤال؟ سأل مارتن رغماً عنه.

- «إذا ما اعتقلتُ ماكلين اليوم، أيّ معنى سيكون لحياتي غداً صباحاً؟».

- إن الشَّرطية ليست في مكانها هنا: أنا أعتقلك اليوم. الآن.
- هيّا، يا بني، اعترف بأنّه ليس لديك سواي في حياتك.
- أنا لستُ ابنكَ، هل فهمت؟
- ليست لديك زوجة، ولا أطفال، ولا حتى حبيبة منتظمة منذ وقتٍ طويل. والداك؟ لقد توفيا. زملاؤك؟ أنت تحتقر قسماً كبيراً منهم. رؤساؤك؟ تعتبر أنّهم لا يقدّرون عملك ولا يعترفون به.

على الرغم من أنّ ماكلين كان تحت تهديد مسدّس، إلا أنّه لم يبالِ بذلك وحافظ على هدوءٍ مذهل. كان لدى مارتن سلاحٌ ولم يكن لدى أرشيبالد سوى الكلمات. ومع ذلك، في تلك اللحظة، كانت الكلمات أكثر فاعلية من مسدّسٍ آلي.

لمعت عينا أرشيبالد كما لو أنّهما تريدان إثبات أقواله. انبعث منه مزيجٌ من الفظاظة واللباقة.

- في هذا الأمر، لقد بالغت في تقدير قواك، أيّها الفتى الصغير.
- لا أعتقد ذلك، قال مارتن، كاذباً.

حاول أن يهدّئ نفسه، قابضاً على مسدّسه، لكن السلاح بدا ثقيلاً جدّاً وكأنّه يزن طنّاً. كانت يداه متعرّقتين، ورغم المقابض المحيطة بالأخمص، انزلق المسدّس من طراز سيج سوار من بين يديه.

- هذه الليلة، كان عليك أن تحضر زملاءَك معك، قال الاسكتلندي بتشفٍ.

التقط الكيسَ النسيجي الموضوع قرب قدميه كما لو أنّه حان الوقت لكي يستأذن منه وأخرج منه البورتريه الذاتي لفان غوخ ولوّح به في الفراغ.

- أنا أو اللوحة! قال محذّراً ومتظاهراً بالاستعداد لرمي اللوحة في النهر.

شعر مارتن بالذعر يستولي عليه. كانت عيناه مثبتتين على اللوحة، التي شكّل لونُها الأزرق الناصع هالةً باهرة.

كان ثمة شيءٌ غير منطقي. فبحسب معرفته، كان أرشيبالد متذوّقاً للفنّ، وخبيراً حقيقياً. ليس رجلاً يجازف بتخريب لوحةٍ كهذه، حتى في سبيل حماية نفسه. نعم، كان قد عُرِفَ، في السنة الماضية، بتخريب المعرض المثير للجدل للفنان جيف كونز في قصر فيرساي، إذ حطّمت القنبلةُ اليدوية التي وضعها على سرطان البحر العملاق المعلّق في إحدى الصالات تمثالَ الفنان المعاصر، لكن جيف كونز لم يكن فينسنت فان غوخ...

- لا تكن أحمق، يا ماكلين!

- ليس هذا بالخيار السهل، أليس كذلك؟

- لن تجرؤ على فعل ذلك أبداً! تحدّاه مارتن. أنا أعرفك أكثر ممّا تعتقد.

- في هذه الحالة... إلى اللقاء، يا بني! صرخ أرشيبالد وهو يرمي بكلّ قواه اللوحة نحو مياه النهر الداكنة.

تسلّق مارتن مرعوباً حرف الشرفة التي تعلو الإفريز. كان نهر السين مضطرباً مثل بحرٍ هائجٍ بسبب الرياح. لطالما كره مارتن السباحة ولم تطأ قدمه مسبحاً منذ مسابقة ملازمي الشرطة التي كاد أن يُقصى منها. ولكن في هذه الليلة، ما الذي كان بوسعه أن يفعل سوى السباحة؟

أخذ نفساً عميقاً وألقى بنفسه في المياه السوداء.

كانت حياة فان غوخ بين يديه.

*

عبر أرشيبالد الفرع الثاني من نهر السين ثمّ نزل نحو ميناء اللوفر حيث كانت سيارةٌ انكليزية من طرازٍ قديمٍ مركونةً هناك. جلس خلف المقود واتجه نحو رصيف فرانسوا ميتران قبل أن يتوارى في الظلام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

5

عشّاق جسر بون نوف

كان ينبغي أن يكون لديّ قلبان، الأوّل عديم الإحساس، والثاني مغرمٌ على الدوام، فكنتُ لأودع هذا الأخير للواتي ينبض من أجلهنّ، وأعيش سعيداً بالآخر.

أمين معلوف

رصيف سان برنار

الساعة الثالثة وعشرون دقيقة صباحاً

- فلنتحرّك، يا رفاق، لدينا عملية تدخّل في جسر بون نوف!

دخلت النقيب كارين أنيلي قاعة الاستراحة في مقرّ فرقة الشرطة النهرية في باريس.

- دياز وكابيلا، ستأتيان معي. لقد ألقى رجلٌ بنفسه للتوّ في الماء.

لحق الملازمان «معلّمتهما»، وبعد مضي بضع ثوانٍ، أخذ عناصر الشرطة الثلاثة أماكنهم في **كورموران**، أحد زوارق الشرطة المستخدَمة لمراقبة النهر الباريسي.

بدا المركب وكأنه ينزلق فوق الأمواج الزيتية التي انعكس عليها الذهب السائل المنسكب من أضواء أعمدة الإنارة.

- تبّاً لهؤلاء المنتحرين! قال دياز بتذمّرٍ. هذا رابع منتحر هذا الأسبوع.

- لمَ لا يلقون بأنفسهم على سكك الحديد؟ أضاف كابيلا.

- لا تعبثا في هذا الأمر، يا رفاق! صرخت كارين موبخةً إياهما.

كانت جسور باريس تجذب اليائسين في جميع الفصول، ما استنفر فرقة الشرطة النهرية التي حالت دون وقوع أكثر من مئة حالة انتحار كلّ عام. ولكن في الصيف، مع الأرصفة المزدحمة بالناس، تضاعفت عمليات التدخّل، فبين المراهنات الحمقاء في نهاية السهرات ومرتادي «شواطئ باريس»، جازف عددٌ متزايدٌ من الناس بإلقاء أنفسهم في النهر. مع ذلك، ورغم وعود عمدةٍ سابق، لم يكن من الممكن السباحة في نهر السين. فبسبب حركة المرور التجارية في النهر، كان خطر أن يتعرض المرء إلى الاصطدام بمركبٍ خطراً حقيقياً، ناهيك عن مخاطر الإصابة بداء البريميّات الملتقط من فيروسٍ يطرحه بول الجرذان، وهو فيروسٌ قذرٌ قد يُصيبك بالشلل، بل وقد يقتلك حتى.

واصل الزورق تقدّمه - رصيف أورليان، ميناء سان-ميشيل، رصيف أورفيفر... - قبل أن يتهادى بالقرب من جسر بون نوف.

- هل ترين شيئاً؟ سأل كابيلا.

- اللعنة، أين هو هذا الأحمق؟ أضاف دياز.

حاولت كارين أنيلي أن تحافظ على هدوئها، واضعة منظارها أمام عينيها. كان شرطيوها متوترين مؤخراً. ففي الأسبوع الماضي،

تصادمت إحدى سفن شركة باتو-موش مع زورقٍ مستأجرٍ من قبل مجموعةٍ من السيّاح على مستوى رصيف تورنيل، فغرق المركب الترفيهي على الفور إذ حوصر بعمود الجسر. تدخّلت الفرقة سريعاً، ولكن ليس بما يكفي لانتشال أحد الأطفال وهو صبيٌّ في الثالثة من عمره توفي غرقاً. لم يكن أيٌّ من أفراد الشرطة النهرية قد ارتكب أدنى خطأ، لكن اعتُبِر موت الطفل مع ذلك صدمة في مديرية الشرطة.

- إنّه هناك! صاحت كارين فجأةً وهي تشير بإصبعها باتجاه ميدان فير-غالان.

اقترب الزورق ببطء من الضفّة.

- سأذهب إليه، قرّرت المرأة الشابّة وهي تشبك بزّة الغوص خاصّتها وترتدي قناعها.

وقبل أن يتمكّن الرجلان من إبداء أيّ اعتراض، غاصت في المياه. ممدودة الجسد ورشيقة الساقين وبحركات خفيفة من ذراعيها، لم يلزمها سوى بضع ثوانٍ لإغاثة الرجل الذي كان يسبح نحو الضفّة.

حين وصلت إليه، رأت أنّه يتشبّث بلوحةٍ فنية كما لو أنه يمسك بلوحٍ خشبي.

*

- أنتم هوّاة! أنتم لستم محترفين!

تناوبت سبابة وزيرة الداخلية المهدِّدة على الإشارة إلى مدير المتحف، ورئيس جهاز أمنه، ومدير الشرطة القضائية وكذلك قائد المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية. في أقلّ من نصف ساعة، كان اجتماع أزمة قد نُظِّم داخل متحف أورسيه نفسه.

- لن يمرّ هذا الأمر مرور الكرام! عصفت الوزيرة.

كانت أوّلَ شخصيةٍ متحدرة من الضواحي ومن أصول مهاجرة تصل إلى هذا المستوى من المسؤولية، وكان ظهورها الإعلامي المفرط قد حوّلها إلى أيقونة جمهورية. كانت المرأة الذكية والطموحة ترمز إلى الانفتاح على اليسار والتنوّع في آنٍ واحدٍ. وقد عُرِفَت بصراحتها وبولائها الراسخ لرئيس الجمهورية الذي لقبها أحياناً بـ «كوندوليزا رايس فرنسا».

- أنتم زمرة من العاجزين، هذه هي الحقيقة!

مرتدية بزّة رمادية من ماركة بول سميث وقميصاً أبيض من ماركة آنييس بي، كانت تزرع صالة فان غوخ جيئةً وذهاباً منذ خمس دقائق، وهي تصبّ جام غضبها على أولئك الذين اعتبرتهم مسؤولين عن هذه السرقة الجديدة. كان شعرها الأسود الداكن المسندل في خصلات ناعمة يؤطّر عينيها السوداوين بالكُحل، الباردتين والحادتين كالبلور. لم يجرؤ زميلها وزير الثقافة الجالس إلى جانبها على التدخّل.

- يبدو أنّ كونكم أضحوكةً لهذا اللصّ أمر يسليكم! صرخت وهي تشير إلى بطاقة التعريف التي كان أرشيبالد ماكلين قد ثبّت بدبّوسٍ على الجدار، في مكان البورتريه الذاتي لفان غوخ.

عجّ الرواق الطويل المخصّص للفنّانين الانطباعيين برجال الشرطة وتحوّل إلى ملحقٍ لمركز الشرطة. كانت جميع السياجات الحديدية قد رُفعت، وحلّت إنارةٌ قويّة محلّ الإضاءة الخافتة والمائلة للزرقة التي تُضيء المتحف في الليل. في صالة رينوار، استجوب محقّقون من الشرطة القضائية التابعة للدائرة الإقليمية الثالثة موظّفي الأمن. وفي صالة مونيه، تفحّص ضبّاطٌ آخرون على إحدى الشاشات صور كاميرات المراقبة، في حين أدّى فريقٌ من شرطة

الأدلّة الجنائية دور الخبراء في صالة فان غوخ.

- يجب استعادة هذه اللوحة دون تأخير. منصبكم على المحكّ، قالت الوزيرة بنبرة حاسمة.

*

صعدت سيارة أستون مارتن رائعة من طراز DB5 فضّية اللون طريق جورج بومبيدو السريع. كانت السيارة تعود إلى زمنٍ ولّى، إلى ستينيات القرن العشرين، زمن العصر الذهبي لسيارات أستون مارتن. خلف المقود، شعر أرشيبالد بأنّه في عالمٍ مميز، من بقايا عصرٍ غابر: عصر الترف البريطاني الحقيقي، بحيث كان أنيقاً دون أن يكون متباهياً، رياضياً دون أن يكون قاسياً، راقياً مع الحفاظ على ذكورته. كانت هذه السيارة تشبهه.

زاد من السرعة قليلاً، عَبَر رصيف رابيه، وجسر بيرسي وسلك الطريق الدائري. نظراً لعمرها، كانت سيارة DB5 القديمة تبلي بلاءً حسناً. وإذ كان يعتبر السيارات القديمة تحفاً فنيّة، لم يكن أرشيبالد يقود سوى السيارات الفريدة من نوعها. وكانت لهذه السيارة حكاية خاصّة جدّاً كونها «مثّلت» في أول فيلمين من سلسلة جيمس بوند، **كرة الرعد وإصبع الذهب**. ولكونها صُنِعت في عصرٍ لم تكن الأفلام فيه قد لُوِّثت بالمؤثرات الرقمية، حافظت سيارة السباق هذه على ترسانتها من الأدوات، التي تمّت المحافظة عليها في حالة جيّدة من قبل مالكيها المتتاليين: الرشّاشات المخفية في علب الأضواء، واللوحات المعدنية الدوّارة، ونظام الستارة الدخانية، والواجهة الزجاجية المدرّعة، وآلية صبّ الزيت والمسامير على الطرق، والشفرات القابلة للسحب لتمزيق إطارات السيارات المسرعة التي تلاحقها...

قبل عامين، إثر عملية بيع أسطورية بالمزاد العلني حظيت بتغطية إعلامية واسعة، بيعت السيارة مقابل مليوني دولار لرجل أعمالٍ اسكتلنديٍّ مجهولٍ.

*

- مارتن بومون! صاحت كارين أنيلي وهي لا تزال في الماء.

رفع دياز وكابيلا، ضابطا فرقة الشرطة النهرية اللذان بقيا على متن الزورق، مارتن إلى متن المركب ومدّا له غطاءً.

- ما الذي تفعله في نهر السين وسط الليل وأنت تستخدم لوحةً فنّية كلوح سباحة؟ سألت المرأة الشابّة وهي تمسك بيد أحد زميليها لكي تصعد إلى متن الزورق بدورها.

تلحّف الشرطي الشاب بالغطاء وأسنانه تصطكّ برداً. ضيّق عينيه ونظر باتجاه الصوت المألوف الذي استجوبه.

لم تكن كارين أنيلي قد تغيّرت: شعرٌ فاتح اللون مقصوص على نحوٍ قصير، نمشٌ خفيف، وقوام رياضيّ وممشوق. كانت لا تزال فتاةً جميلة، متحمّسة وذات مزاجٍ فرح. وهي بذلك نقيضته بالضبط. كانا قد عملا معاً في وحدة مكافحة المخدّرات لمدّة عامين، وشاركته في العديد من مهام التسلّل. في تلك الفترة، كان العمل الميداني كلّ حياتهما. لم يكن هناك حاجزٌ بين عملهما وقلبيهما. كانت مرحلةٌ مبهجة ورهيبة في آنٍ واحدٍ. إنّ القيام بدور العملاء المتسلّلين يكشف لك جوانب من شخصيتك كنتَ ستفضّل عدم معرفتها ويرغمك على أن تغامر في حقول لن تعود منها سليماً معافى أبداً. لتجنّب الانهيار، أحبّا بعضهما. أو بالأحرى، تعلّق كلّ منهما بالآخر. علاقة تخلّلتها لحظات جميلة، ولكنّها لم تجد توازنها أبداً.

لبرهةٍ قصيرة، طفت ذكرياتٌ سامة على السطح كما لو أنّها

طفت عنوةً. كانت قصّتهما أفضل وأسوأ ما عاشاه. مثل المخدرات.

على ضوء مصابيح الشارع، نظرت كارين إلى مارتن. كان الماء ينساب على طول شعره ويتساقط في قطراتٍ على لحيته الخفيفة. وجدته نحيلاً ومتعباً، حتى وإن كان وجهه قد حافظ على بعض الملامح الطفولية.

وإذ شعر بأنّها تراقبه، سألها مارتن:

- هل تعلمين أنّكِ مثيرة للغاية في بزّة الغوص؟

وردّاً على ذلك، رمت في وجهه منشفةً، استخدمها في مسح البورتريه الذاتي لفان غوخ بلطف.

بدت كارين جميلة مثل حورية بحر، وبدت مرتاحة. فمثله هو، كانت قد غادرت وحدة مكافحة المخدّرات إلى قسمٍ أقلّ تدميراً. في نظر الناس، كان عناصر الشرطة النهرية منقذين أكثر من كونهم رجال شرطة حقيقيين، الأمر الذي منحهم المزيد من التقدير.

- هل هذه اللوحة هي الأصلية؟ سألت وهي تجلس بجانبه.

على إيقاع مركبٍ ترفيهي، كان الزورق قد تجاوز للتوّ جزيرة سان لوي ويتهيّأ للرسو في ميناء سان برنار. ابتسم مارتن:

- أرشيبالد ماكلين، هل يعني لكِ هذا الاسم شيئاً؟

- اللصّ؟ بكلّ تأكيد.

- كنتُ على وشك إلقاء القبض عليه، قال مارتن بغضب.

- أهو من ألقى بكَ في النهر؟

- يمكننا قول ذلك.

- هذا أمرٌ غريب، لأنّ...

بدا الاضطراب على كارين.

- لأنّ ماذا؟

- الرجل الذي اتّصل بمركز الشرطة النهرية لكي يخبرنا بغوصكَ، قال إنّه يُدعى أرشيبالد.

*

شقّت الخطوط النظيفة والأنيقة لسيارة أستون مارتن عتمة الليل بأقصى سرعة. في قمرة القيادة، تنشّق أرشيبالد رائحة الخشب النفيس وسجاد الصوف. كان قد وضع إلى جانبه، على المقعد المجاور له المنجَّد بالجلد العتيق، الكيس النسيجي الذي يحمل شارة القوات الجوية الملكية، والذي احتفظ به منذ خدمته العسكرية.

قبل قليل، على جسر بون نوف، أمام الشرطي الشابّ، شعر بارتفاع الأدرينالين، وهو شعور غير متوقّع صعُب عليه تفسيره. وراء شخصيته المقدامة، كان لهذا الشاب شيءٌ مؤثّر. تذكّر منه نظرتَه على نحوٍ خاصّ: نظرة طفلٍ حزينٍ ووحيد لا يزال يلزمه أن يتعلّم كلّ شيء.

ما أن وصل إلى الطريق A6 - الطريق السريع الشهير الذي يُلقّب أيضاً بطريق الشمس-، زاد أرشيبالد من سرعة المحرّك ذي الست أسطوانات، مطلقاً أحصنته المئتين والثمانين. كان يحبّ السرعة، يحبّ أن يشعر بأنّه على قيد الحياة.

*

قفزت كارين ومارتن بنفس الزخم إلى ضفّة ميناء سان برنار.

- يجب أن تقوديني إلى متحف أورسيه، قال لها.

- غيّر ثيابك أوّلاً، أنت مبلّل. سوف يُعيركَ كابيلا ثياباً، ريثما أُخرجُ السيارة.

لحق مارتن بالملازم إلى حجرة طويلة بمحاذاة ضفّة النهر. وحين خرج منها، شعر بمنظره غريباً في زيّ الثمانينيات الذي قدّمه

له الضابط والذي يشبه ملابس تنكّرية أكثر من زيّ قوات التدخّل: قميص بولو أزرق، وبنطال كحلي من البوليستر، وسترة واقية قياسها فضفاض جدّاً. توقّفت بجانبه سيارةُ بيك آب من طراز لاند روفر، مزوّدة بواقية شبك أمامية ورافعة.

قالت كارين وهي تفتح باب الراكب:

- اصعد. أنت وسيمٌ مثل...

- اعفيني من النكات، أرجوكِ.

أقلعت السيارة رباعية الدفع مصدرةً صريراً عن عجلاتها.

رغم أن حركة السير كانت سلسة جدّاً، إلا أنّه لم يكن من الممكن الوصول إلى مشارف المتحف. في ساحة هنري دي مونترلان، كانت سيارات رينو سينيك وبيجو 307 التابعة للشرطة تختلط بعربات المسؤولين والصحافيين.

- هيا، اذهب والعب دور الأبطال! قالت كارين ساخرةً وهي تتوقّف بعد فناء المتحف مباشرةً.

شكرها مارتن. كان يتهيّأ للنزول من السيارة حينما أوقفته، ولاحظت وهي تشير إلى ساعة أوميغا **سبيدماستر** التي كانت قد أهدتها له قبل خمس سنوات خلت:

- لا تزال تضع الساعة.

- وأنت لا تزالين تضعين الخاتم، أجابها.

نقرت اليدُ اليمنى للمرأة الشابّة بلطفٍ على مقود السيارة ولمعت الحلقات الثلاث المتشابكة للخاتم تحت أولى خيوط بزوغ الفجر: ذهبٌ وردي، ذهبٌ أبيض، ذهبٌ أصفر.

كان ذلك تبادلاً لهدايا باهظة الثمن بالنسبة إلى راتبهما الزهيد كشرطيين. في تلك الفترة، أنفقا على ذلك كلّ مكافأة الأداء

خاصّتهما، بل وأكثر حتى، وهي مبادرة لم يندم عليها أيٌّ منهما.

ولبضع ثوانٍ، ظهرت إلى السطح فكرة أنّ حكايتهما ربّما لم تنتهِ. كانت الحياة قد جمعتهما من جديد إثر ظروفٍ غريبة. ربّما كانت هذه إشارة. وربّما لا...

ثمّ تبدّدت لحظة الشكّ. فتح مارتن باب السيارة وأخذ البورتريه الذاتي معه. وقبل أن يعبر الشارع، نظر مرّة أخيرة إلى سيارة اللاند روفر. كانت كارين قد أنزلت زجاج نافذتها، وقالت له، مبتسمةً:

- انتبه جيّداً إلى ردفيك الصغيرين الجميلين، يا مارتن، وتعلّم السباحة. لن أكون موجودة دائماً لكي أنتشلك من النهر!

*

- أنتم حفنة من الفاشلين. هذه حقيقتكم!

وهو يقترب من صالة فان غوخ، تعرّف مارتن إلى الصوت الحاد لوزيرة الداخلية. وقف عند عتبة القاعة حيث سُمِع سيل الإهانات وسط صمت مطبق.

- حفنة من اللامباليين، من الأشخاص غير الأكفّاء...

لمح مارتن الطيف المألوف لرئيسه، المقدّم لوازو، وكذلك الوجه المتشنّج لمدير الشرطة القضائية الذي قابله حين عمل في مركز الشرطة برصيف أورفيفر. وكان يقف إلى يمينهما شارل ريفيير، الرئيس التنفيذي لمتحف أورسيه.

- ... مجموعة من الفاشلين لا فائدة منهم!

ظهر الرجال الثلاثة بمظهرٍ بائسٍ ولم يجرؤ أيٌّ منهم على رفع رأسه أمام الوزيرة. فلكي يصلوا إلى مناصبهم، كانوا قد مرّوا جميعاً بمدرسة التملّق، وتعلّموا تحمّل الإهانات دون اعتراض.

- هيّا! تحرّكوا واعثروا لي على هذه اللوحة اللعينة.

- ها هي اللوحة اللعينة، يا سيّدتي، قال مارتن متقدّماً نحو الوزيرة، فتوجّهت نحوه جميع الأنظار على الفور.

وسط الصالة، لوّح بالبورتريه الذاتي على مستوى رأسه كما فعل أرشيبالد على الجسر.

أمعنت الوزيرة النظر فيه مندهشةً، قطبت حاجبيها، وسألت أخيراً:

- منْ أنت؟

- النقيب مارتن بومون، من المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية.

كان شارل ريفيير قد هرع نحوه لكي ينتزع اللوحة من بين يديه.

قرّر مارتن أن يلعب لعبة الصراحة، فشرع في سرد الرواية بالكامل، وأخبرهم كيف نجح في التعرّف على أسلوب عمل ماكلين، الأمر الذي حثّه على أن يختبئ أمام المتحف على أمل أن يضبط المجرم بالجرم المشهود. لم يكن الشرطي الشابّ ساذجاً ولم يكن ينتظر أن يتلقّى التهاني، فهو لم ينجح في إلقاء القبض على أرشيبالد، ولكن كان اللصّ قد فشل في إنجاز مهمّته، للمرّة الأولى.

حين انتهى من عرض تقريره، انتابت الحضورَ لحظةٌ من الحيرة. نظرت الوزيرة إلى لوازو الذي، لكي يُخفي ارتباكه، لم يفعل شيئاً سوى أن انفجر غاضباً:

- كنّا سنتمكّن من إلقاء القبض على ماكلين لو أنّك أخبرتنا في الوقت المناسب، يا بومون! ولكنّك لم تفعل، وآثرت أن تعمل بمفردك! دائماً هذا التعالي حيال زملائك!

- لولاي، لاختفت اللوحة، قال مارتن مدافعاً عن نفسه.

- لا تعتقد أنّك ستفلت من العقاب بهذه السهولة، أيّها النقيب!

رفعت الوزيرة يدها ورمقت لوازو بنظرةٍ لتضع حدّاً لعتابه. لم تكن كلّ هذه المكائد الداخلية تهمّها، بل رأت في ذلك وسيلةً لكي تستفيد من الوضع. ينبغي إظهار هذا الشرطي الشابّ كبطل أمام الصحافة. لقد استعادت الشرطة الفرنسية اللوحة في وقتٍ قياسي. هذا ما يجب التركيز عليه، وليس على الخلل الوظيفي لمديرية شرطة. لم يكن هناك من داعٍ للكذب، بل عدم الإفصاح عن كامل الحقيقة بكلّ بساطة. ممارسة السياسة، بكلّ بساطة. علاوة على ذلك، هذا الشرطي مارتن بومون كان وسيم المظهر، وسوف تعشقه وسائل الإعلام. وفي نهاية المطاف، سوف تتحوّل عملية الفشل في توقيف ماكلين إلى دعاية جميلة لصالح الشرطة، وبالتالي لصالحها هي شخصياً. وفي حال جرى كلّ شيءٍ على ما يُرام، سوف يمكنها حتى أن تظهر في مجلّة **باري ماتش** مرتديةً بنطال جينز وسترة أنيقة، ومحاطةً بلوحة فان غوخ ورجال شرطة قويي البنية.

لكن سرعان ما تلاشت هذه الفكرة المغرية وأصبحت عدماً، حين أعلن مدير المتحف بنبرةِ ذهولٍ واستياءٍ:

– أنا آسف، يا بومون، ولكنّك فشلتَ فشلاً ذريعاً.

– كيف ذلك؟ سأل مارتن بقلقٍ.

– لقد تمّ تقليد اللوحة بإتقانٍ، ولكنّها لوحة زائفة.

– هذا مستحيل. لقد رأيته يُخرجها من كيسه ولم أرفع عينيّ عنه أبداً.

– انظر بنفسك: التوقيع.

– التوقيع؟ أيّ...

لم يكن فان غوخ قد وقّع أيّاً من بورتريهاته الذاتية.

انحنى مارتن نحو اللوحة الموضوعة بشكلٍ مسطّح على حاملة

لوحات. كان فينسنت فان غوخ قد وقّع القليل جداً من أعماله - أقل من عملٍ واحدٍ من أصل كلّ سبعة أعمال - وحين كان يفعل ذلك، على سلسلة لوحات دوّار الشمس على سبيل المثال، كان يوقّع باسمه الأوّل. والحال أنّه لم يكن على اللوحة الماثلة أمام عينيه الاسم الأوّل فينسنت الذي كان يُكتَبُ بأحرفٍ صغيرة منفصلة، وإنّما كانت خربشة أخرى مكتوبة بأبجديةٍ ساخرة:

أرشيبالد

*

غادرت الأستون مارتن الطريق السريع باتجاه بلدية فونتينبلو، وسلكت الطريق الإقليمي المؤدّي إلى باربيزون. نظر أرشيبالد إلى ساعة يده ولم يستطع منع نفسه عن الابتسام وهو يتخيّل حال الفتى الصغير حين سيكتشف الخدعة التي وقع ضحيتها. فتح بحذرٍ الكيس النسيجي الكبير الموجود بجانبه لكي يُخرج طرف البورتريه الذاتي - الحقيقي هذه المرّة - وواصل حواره المتخيّل مع الرسّام.

- إذاً، يا فينسنت، مزحتنا الصغيرة لا بأس بها، أليس كذلك؟

جعلت مصابيح الطريق نظرةَ الرسّام المعذَبة تلمع في الظلام.

كان لأرشيبالد علاقة معقّدة مع التحف الفنّية التي يسرقها. لم يسبق له قط أن شعر بأنّه مالك عملٍ فنّي فعلاً. في الحقيقة، لم تكن اللوحات الفنية ملكه، بل كان هو ملك اللوحات. فحتى وإن وجد صعوبةً في قبول ذلك، إلّا أنّه كان يعلم أنّ السرقة أصبحت مادةً مدمِنة بالنسبة إليه. فهو يشتاق إليها على فتراتٍ منتظمة، كما يُطالب جسده ودماغه بعملٍ فنّيٍ جديد، بمغامرةٍ جديدة، بخطرٍ جديدٍ.

عبر الراديو، بثّت محطّةٌ كلاسيكية تسجيلاً لعازف البيانو غلين

غولد الذي يعزف فيه مقطوعة **تنويعات غولدبيرغ** للموسيقار يوهان سيباستيان باخ. خفّف اللصّ من سرعته لئلا يصل سريعاً جدّاً إلى وجهته ويكسر اللحظة الساحرة التي يعيشها. نزهة على ضوء القمر مع فان غوخ وباخ: هل يمكن أن تكون هناك رفقة أفضل من هذه؟

ولكي تكون المتعة كاملة، أخرج من الجيب الداخلي لمعطفه الواقي من المطر قارورة فضّية تحتوي على ويسكي اسكتلندي معتّق لأربعين سنة.

- نخبُكَ، يا فينسنت! قال وهو يشرب جرعةً من الشراب المعتّق.

أحدث الكحول حرقةً لذيذة في مريه. امتلأ حلقه بمزيجٍ من النكهات: لوز محمّص، شوكولاتة داكنة، هيل...

ثمّ ركّز على قيادته للسيارة، مغادراً الطريق الإقليمي عند مفرق بوا-دورمان لكي يسلك طريقاً ريفيّاً ضيّقاً. وبعد السير لبضعة كيلومترات، وصل إلى عقارٍ مسيّجٍ بسورٍ خارجيٍّ، على حدود غابة فونتينبلو وماليزيرب. ضغط أرشيبالد على زرٍّ في جهاز التحكّم، فانفتحت البوابة الكهربائية وتقدّمت السيارة في الممرّ الذي يعبر الحديقة ويؤدّي إلى مسكنٍ جميلٍ مبنيٍّ من حجر يعود إلى بداية القرن التاسع عشر، مزيّنٍ بداليةٍ ومحاطٍ بأشجار الكستناء المعمّرة. كانت كلّ مصاريع النوافذ مغلقة، ولكنّ المكان لم يكن مهجوراً: كانت الأسيجة النباتية مقلَّمةً والمرج مجزوزاً بعناية.

ركن الأستون مارتن في الإسطبلات القديمة التي حُوِّلت إلى مستودعٍ كبيرٍ توجد فيه درّاجة نارية جبلية، وسيارة جيب عسكرية قديمة، ودرّاجة نارية بمقعدٍ جانبي تعود لفترة ما قبل الحرب، وكذلك سيارة بوغاتي قديمة مفكّكة بالكامل ومجرّدة من قطع

غيارها. ولكنّ معظم المستودع كان مشغولاً بطائرة مروحية كوليبري من الطراز الجديد، لونها خمري وأسود. تفحّص أرشيبالد الطائرة، وتحقّق من مستوى الوقود، وأخرجها من الحظيرة باستخدام عربة توجيه. وحالما أصبح في قمرة القيادة، اعتمر خوذةً، وأدار المحرّك وزاد تدريجياً من ضغط الوقود. كان قد وضع المروحية في مواجهة الريح ولم يعد عليه سوى أن يسحب ذراع الإقلاع لينطلق بها.

- افتح عينيك جيّداً، يا فينسنت! أنا متأكّدٌ من أنّك ستعشق رؤية العالم من أعلى.

6

باريس تستيقظ

أقدام برج ايفل باردة
قوس النصر نشيطٌ [. . .]
يستيقظ الناس، مضطرين
إنّها الساعة التي أذهب فيها إلى النوم
إنّها الساعة الخامسة
باريس تستيقظ
إنّها الساعة الخامسة
لستُ نعساً.

موسيقى جاك ديترون
كلمات جاك لانزمان وآن سيغالن

رصيف أناتول فرانس، الساعة الخامسة ودقيقتان صباحاً

- هيه! هذه سيارتي!

بمجرّد خروجه من المتحف، فوجئ مارتن برؤية سيارته الأودي القديمة وهي تُسحب لكي يتم حجزها.

- ما الذي تفعله! صرخ في وجه شرطي المرور.

- أنا آسف، يا سيّدي، ولكنّك ركنت سيارتك في ممرّ للحافلات وقد بدأت إجراءات الحجز بالفعل.

- أنا شرطي! كنتُ أقوم بهمة مراقبة من سيارتي!

- هذه المركبة لا تنتمي إلى أسطول سيارات الشرطة الوطنية، قال الشرطي محتجاً. كنّا سنرى ذلك حين قمنا بالتحقّق من رقم التسجيل.

- أنا هنا الآن. فأعيدوا إليّ سيارتي، اتّفقنا؟

- إذا كنتَ شرطياً، فأنت تعرف الإجراءات المتّبعة: من أجل فكّ الحجز وإيقاف إجراءات نقل السيارة، عليكَ أن تدفع الغرامة، إضافةً إلى مصاريف رفع السيارة.

نظر مارتن إلى سيارته القديمة من طراز تي تي 1998. بدت السيارة، وهي بين مخالب قاطرة الحجز، في نهاية عمرها: بابٌ مبعوج، هيكل مليءٌ بالخدوش في كلّ مكان... وهي آثار تعود إلى الفترة التي عمل خلالها في وحدة مكافحة المخدّرات. وفي تحدٍّ لنصوص القانون، كان لطالما استخدم سيارته الخاصّة في مهامه بدل سيارات سيتروين الرديئة التابعة للشرطة. حتى أنه كان هناك، على مؤخرة السيارة، أثر رصاصة طائشة، وهي ذكرى من عملية عصيبة لتوقيف تاجر مخدّرات. ربّما حان الوقت لتغييرها. لم تكن تنقصه الرغبة في ذلك، ولكن لم يكن لديه فلسٌ واحد في حسابه المصرفي.

- حسناً، سأدفع، تنهّد مارتن.

فتّش في جيب سترته الواقية، ولكنّه لم يجد محفظته، التي كان قد تركها مع سترته في مكاتب الشرطة النهرية.

استسلم للظرف، وأخذ البطاقة الوصفية لحالة السيارة التي ناوله إياها شرطي المرور ونظر إلى قاطرة الحجز وهي تبتعد.

عاود تفتيش جيوبه، ولكنّه لم يجد ولو يورو واحداً لكي يستقلّ سيارة أجرة أو يشتري بطاقة مترو. لا بأس، كان هذا سيجبره على القيام بنزهةٍ صباحية عبر باريس.

ثمّة أيامٌ كهذه. . .

حامت مروحية الكوليبري فوق ريف النورماندي.

كانت المروحية مزوّدة بقمرة قيادة فسيحة توفّر راحةً كبيرة في الطيران وكذلك رؤية ممتازة. كما أنّ دوّار ذيلها المرمّم جعلها صامتة جدّاً.

وضع أرشيبالد المروحية على وضعية القيادة الآلية وشرب رشفةً أخرى من الويسكي. أغمض عينيه لكي يغوص أكثر في نكهات الكحول. لم يكن ذلك منطقياً تماماً، ولكن الكثير من الأمور في حياته لم تكن كذلك، وبالتالي. . .

بعد ساعةٍ من الطيران، كان قد مرّ بجبل القديس ميشيل وبمدينة سان مالو بعد ذلك. وبعد تجاوزه خليج سانت بريوك، استسلم لجمال مناظر شمال الفينيستير التي تتالى فيها الشواطئ الرملية، والخلجان الصغيرة، وموانئ الصيد، ثمّ لمح جزيرة باتز على ساحل بلدية روسكوف. بثّ جهاز تحديد المواقع إشارة تُعلمه بأنّه على مسافة أقلّ من ثلاث دقائق من مكان هبوطه. أوقف القيادة الآلية واقترب مواجهاً الريح الغربية وهبط في حديقة مشجرة لأحد المنازل الجميلة للجزيرة. كان المنزل المحفور في الصخر يصل إلى حافّة ماء البحر، وله جسرٌ عائمٌ طويل، وحلقتان للرسو ومرآبٌ له منزلق للمراكب.

لم يبقَ أرشيبالد سوى بضع دقائق على الأرض البريتونية، وهو الوقت الذي احتاجه لإعادة التزوّد بالوقود. استنشق الهواء المشوب باليود والمنعش وانطلق نحو اسكتلندا.

*

متعباً إلى حدّ الإنهاك، صعد مارتن شارع راسباي. كانت الليلة طويلةً وحافلةً بالإثارة وخيبة الأمل. كان قد اعتبر نفسه شرطياً بارعاً، إلا أنه لم يكن يمتلك مقوّمات ذلك. لقد لعب معه ماكلين، وترك هو نفسه عرضةً للتلاعب به بسهولة، فوقع في جميع فخاخه. لقد تصوّر أنّه يستطيع العبث بالنظام بمفرده. واعتقد أنّه أذكى من زملائه، وقلّل من شأن خصمه على وجه الخصوص: لم يكن العجوز ذكيّاً فحسب، بل وجريئاً أيضاً، قادراً على تعريض نفسه لمخاطر جسيمة وعلى المخادَعة مثل لاعب البوكر. لم يكن بوسع مارتن إلّا أن يستسلم هذه المرّة: كان ذكاء ووقاحة اللصّ باهرين حقاً.

عَبَر الشرطي الشابّ ساحة لو كوربوزييه ووصل إلى مستوى فندق لوتيسيا. لمعت الواجهة العريقة لقصر سان-جيرمان-دي-بري بالمصابيح المتوهّجة وسط الضوء الخافت للصباح الباكر. على السجّاد الأحمر المفروش في المدخل، كان حمّال الأمتعة وسائق سيارة الفندق ينتظران خروج زبونين ثريين وهما يتحدثان أمام سيارة لامبورغيني من أحدث طراز وسيارة ألمانية زجاجها مظلل. أعادت فخامة المكان مارتن إلى حياته البسيطة كموظّف قطاع عام صغير، غير قادر على دفع ثمن سيارة جديدة، وغير قادر على اغتنام فرصة حياته حين سُنحت له.

وصل إلى مفرق شارع فافان، ثمّ دخل جادة مونبارناس. كانت لتمثال بلزاك، المنحوت من قبل أوغوست رودان والملتحف بردائه

الكهنوتي المهيب، هيئة شبحية. فكّر مارتن بمستقبله المهني، الذي تأثر سلبياً جراء فشله هذه الليلة. لن يفقد منصبه، ولكنّ الأشهر الستّة المقبلة ستكون عصيبة. سينحّيه لوازو جانباً من خلال إرساله في مهمّة استشارية لدى وزارة الثقافة، ويحرمه بذلك من النشاط ومن العمل الميداني.

وصل إلى الدائرة الرابعة عشرة، أمام المبنى الزجاجي الطليعي لمؤسسة كارتييه. كانت الواجهة الزجاجية للمبنى الشفّاف بالكامل تسمح برؤية حديقة داخلية شاسعة حيث نمت مئات أنواع النباتات تحت أنظار المارّة على مرّ الفصول. ولكن هذا الصباح، لم يكن مزاج مارتن رائقاً لتأمل النباتات. لم يستطع أن يتخلّص من ذكرى أرشيبالد. لقد راقب أدقّ حركاته، وتعقّب أدنى نبرات صوته، ساعياً إلى أن يتلمّس فيه حقيقةً دفينة، وبداية تفسيرٍ. تذكّر الثقة التي انبعثت منه، ونظرته، وقدرته على قراءة ما في داخله. لم يكن أرشيبالد كما تخيّله. في غضون ثلاث دقائق من المواجهة، عرف عنه أكثر مما عرفه خلال أربع سنوات من التحقيق. بات الآن يعرف عمره ووجهه. وترسّخت لديه قناعة بأنّ لكلّ هذه السرقات معنى خفيّاً. لم يكن المال هو الدافع الرئيسي لأرشيبالد، هو متأكّدٌ من ذلك. ثمّة شيءٌ آخر أكثر سرّيةً وأكثر خصوصيةً.

حين وصل إلى ساحة دنفير-روشرو، بدأت حركة السير تتكثّف. وبالقرب من الجناح الأيسر، كان بضع سيّاح يابانيون يقفون في طابور لكي يزوروا سراديب الموتى ويرتعشوا وهم يتجولون في الأروقة تحت الأرضية حيث ترقد عظام الملايين من الباريسيين من «المستأجرين» السابقين لمقبرة الأبرياء.

تثاءب مارتن. رغب في احتساء فنجانٍ من القهوة وتدخين

سيجارة، وفي حمام ساخن. كانت سباحته الوجيزة في نهر السين قد أصابته بالزكام وجعلت رائحةً مريبةً تفوح منه.

في جادة راي، رأى المظهر المطمئن لخزّان مياه حديقة مونسوري، وهو المخزون الأكبر من المياه الصالحة للشرب في المدينة، المموّه تحت تلّةٍ ذات منحدراتٍ معشبة. كان المكان مخضوضراً ويكاد يكون ريفيّ الملامح، ولكنّه محميّ بعدد كبير من كاميرات المراقبة: فالمياه المخزّنة هنا تردُ من أنهارِ جنوب شرق باريس وتزوّد قسماً لا بأس به من أحياء العاصمة.

حين وصل إلى ميدان مونسوري، حاول جاهداً أن يطرد صورة أرشيبالد المؤرقة من ذهنه، ففرض وجهُ كارين، زميلاته السابقة، نفسه عليه تدريجيّاً. تظاهر باللامبالاة أمامها، ولكّنه في الحقيقة تأثّر لرؤيتها. كانت ذكرى ابتسامتها وعينيها اللامعتين مؤلمة ومريحة في آنٍ واحدٍ، وكأنها صدىً لتلك الوحدة التي تحاصره منذ الطفولة. وحدةٌ يبحثُ عنها بمثابة حماية، ولكنّها ستنتهي بتدميره.

*

حلّقت الطائرة المروحية فوق شمال بحر إيرلندا واقتربت من شاطئ المرتفعات الاسكتلندية. محمولةً برياحٍ جنوبية-غربية، كانت مروحية الكوليبري قد قطعت مسافة 700 كيلومترٍ وأوشكت خزانات وقودها على النفاد. لمح أرشيبالد اليخت الكبير ثلاثي الطوابق وبطول خمسين متراً، والذي يرفع علم جزر الكايمان.

كان يخت **كواتش 5000** القادر على استيعاب سبعين ألف لترٍ من الوقود، يستطيع أن يعبر المحيط الأطلسي خلال عشرة أيام بسرعة ثلاثين عقدة. اعتبر أرشيبالد هذا المركب العملي بمثابة ملاذه. حصنٌ بتصميمٍ طليعي، صمّم للإبحار في جميع الأحوال

الجوّية، وفي المناطق النائية جدّاً. عبارة عن مركبة رباعية الدفع بحرية، جاهزة لمواجهة العواصف والظروف الطارئة.

حطّ بهدوء عند مؤخرة السطح العلوي، على منصّة واسعة حوِّلت إلى مهبط للمروحيات، وأمسك بكيسه البحري وقفز إلى الأرض. هبّت الرياح، ولكن لم تكن هناك سحابة واحدة في الأفق. تناثرت أشعّة شمسٍ مشعّة على سطح اليخت حيث حيّا رجالُ الطاقم الأربعة - جنود قدامى في القوات البحرية لم يكونوا يعرفون هويّته الحقيقية - رئيسَهم. تبادل أرشيبالد بضع كلمات معهم وصعد السلّم الذي يؤدّي إلى السطح الرئيسي.

- صباح الخير، إيفي.

- صباح الخير، أرشي.

بشعرها المصفف على شكلِ كعكةٍ وزيّها الرسمي الصارم ومظهرها الأنيق، كانت الآنسة أوفينيا والاس تشبه مدبّرة منزل إنجليزية من الطراز القديم، وكانت هذه الطبيبة «المتقاعدة» من جهاز الاستخبارات السريّ هي السيّدة المؤتمنة على أسرار ماكلين منذ عشر سنوات. وبكونها مدبّرة منزل، وحارسة شخصية، وأمينة الأسرار في آن واحدٍ، كانت تتكتّم على هويّة ربّ عملها التي هي وحدها تعرفها. كانت بطلة الرماية والحائزة على الحزام الأحمر في التايكوندو هذه، رغم مظهرها الكلاسيكي المحافظ، حارسةً شخصية أكثر من كونها ماري بوبينز.

- هل جرى كلّ شيء على ما يُرام؟

- بدون أيّ مشكلة.

فُتِحت الأبواب الزجاجية على صالونٍ ذي ديكورٍ فاخرٍ ومريح، بأضواء جداره الكريستالية وأرضيته المغطاة بخشب الماهوجني

المبيَّض، وأرائكه الجلدية وأثاثه ذي الخطوط النظيفة البسيطة. وكانت نافذةٌ زجاجية مدهشة تسمح برؤية بزاوية 360 درجة وتغمر الصالون بالنور، وتمنح المرء شعوراً بأنّه لا يزال في الهواء الطلق.

أخرج أرشيبالد اللوحة من كيسه ليُريها لإيفي. ظلّت صامتة لبضع ثوانٍ، تتأمّل البورتريه الذاتي بتأثّرٍ حقيقي.

- وماذا عن الشرطيّ الشابّ؟ سألت.

- لقد وقع في الفخ، تماماً مثلما توقّعت.

- هذا جيّد.

- هل كنتِ قلقةً؟

- لقد راجعتُ ملفّه. بدا لي هذا الشرطي متقلّباً. أرى أنّك تخاطر أكثر من اللازم.

قال، وهو يُريها لوحة فان غوخ:

- كان الرهان يستحقّ ذلك، أليس كذلك؟ ثمّ أننا حدّدنا هويّة كلّ رجال الشرطة الذين يلاحقونني. أنا أراقبهم. أنا أعرف عنهم أكثر مما هم يعرفون عنّي.

- هذا الشرطي مختلف.

- كلّا، إنّه مثل الآخرين.

- لقد اكتشف العلاقة بين الذكرى السنوية لوفاة الرسّامين وسرقة لوحاتهم، اعترضت إيفي.

- ففف، يمكن لأيّ حمارٍ أن يكتشف ذلك، قال أرشيبالد ساخراً وهو يهزّ كتفيه.

- إنّه يتعقّبكَ منذ ثلاثة أعوام.

- مكتب التحقيقات الفيدرالي يتعقّبني منذ خمسة وعشرين عاماً!

متصالب الذراعين، حدّق اللصّ بنظرةٍ حالمة في شاشة كبيرة

تنقل بشكلٍ مباشر الحياة تحت سطح الماء حول السفينة، بفضل كاميرا غوّاصة. قال بعد برهةٍ:

- لدى هذا الشابّ الكثير ليتعلّمه. إنّه قليل الصبر وغير متصالح مع نفسه، مع مستويات عالية من العجرفة وسط انعدامٍ تام للثقة. إنّه مغرورٌ بشأن مزاياه كشرطي ويعاني من نقص واضحٍ في تقدير الذات في كل ما تبقى.

- يمكنه أن يصبح خطيراً.

- لكي يصبح خطيراً، عليه أن يتثقّف، ولكي يتثقّف، عليه أن يكون أقلّ غروراً.

جلس ماكلين إلى الطاولة الزجاجية التي وضع عليها طبّاخٌ أحد أطباقه المفضّلة: شرائح من لحم البقر الطرية مع بطاطا مقلية بالزعتر.

وإذ اعتبرت أنّ المحادثة قد انتهت، كانت إيفي على وشك المغادرة بمزاجٍ متعكّرٍ حين ناداها أرشيبالد.

- هذا الرجل، مارتن بومون...

- نعم؟

- أودّ أن أقرأ ملّفه من جديد.

- سأحضره لك.

*

دخل مارتن ميدان مونسوري، وهو عبارة عن زقاقٍ مرصوف ومنحدر يذكّر بأجمل الأماكن في حيّ بيكون هيل ببوسطن القديمة. امتدت على طول الممرّ المشجر ورشٌ للفنانين وبيوت برجوازية صغيرة بُنيت في السنوات الذهبية التي شهدت ذروة الفنّ الحديث آر نوفو. وكلّما سار في الزقاق أكثر، ازدادت النباتات بهاءً. تسلّق

اللبلاب المعترش الواجهات، وعطّرت أزهار الغليسين الممرّ، في حين أصبحت العمارة أكثر باروكيةً بأعمدتها المتعددة الألوان، وشرفاتها المنحوتة، ونوافذها المزجّجة على شكل كوّات، وأفاريزها الفسيفسائية. كان هذا الفردوس من الخضار يلهم الهدوء ويجعل هذا الشارع أحد أكثر شوارع العاصمة روعةً. مكانٌ لا يمكن لشرطيٍّ يكسب ألفي يورو شهرياً أن يسكنه...

ومع ذلك، دفع مارتن بوّابة حديقة صغيرة كانت تُفضي إلى مرسم تحت مظّلة زجاجية.

كان البيت مُلكاً لعجوزٍ إنجليزية تُدعى فايوليت هدسون، وهي ملهمةُ وآخرُ زوجةٍ للرسّام الأمريكي هنري هدسون، أحد الوجوه البارزة لـ «الأنبياء»، وهم رسامون متيّمون بالروحانيات، شاركوا في مطلع القرن العشرين في كلّ النضالات الفنية الطليعية. توفي هدسون عام 1955، تاركاً قسماً كبيراً من أعماله لزوجته. وبمرور السنين، ارتفعت قيمة أعمال الفنان كالسهم، لكنّ فايوليت رفضت أن تتخلّى عن لوحاتها، وهي في الغالب لوحات تصوّرها عارية وهي في ذروة جمالها، بشعرها المنسدل، وجسدها الذي تلامسه شراشف ناعمة، تذكّر بأعمال غوستاف كليمت وألفونس موخا.

قبل عامين، تعرّضت السيّدة العجوز لاعتداءٍ في منتصف الليل وكُبِّلَت في الوقت الذي تمّ فيه سرقة جزءٍ كبير من لوحات المرسم. تكفّل المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية بالقضية، وتحمّس مارتن الذي كان يعشق الفنان بالتحقيق. لم تكن السرقة باستخدام العنف عملاً محترفاً، ولا صفقة تمّ الاتفاق عليها مع جامع لوحات، بل عكست التسرّع والارتجال. راهن مارتن على أنّها من صنيع شخصٍ مدمِن، مستعجلٍ على سرقة عجوزٍ مسكينة لكي

يحصل على مالٍ بسهولة. وبفضل بعض المخبرين الذين احتفظ بهم من فترة عمله في وحدة مكافحة المخدرات، اقتفى أثر اللصّ بسهولة، ونجح في العثور على معظم اللوحات في مستودعات محطة الشمال.

كان مارتن قد عقد صداقةً مع فايوليت، الذي أُعجِبَ بثقافتها وغرابتها. وفي ختام التحقيق، طلبت منه السيّدة العجوز أن يشرف على تركيب نظامٍ لصفارات الإنذار وأن ينصحها بخصوص تأمين ممتلكاتها. وإذ كانت تبحث عن مستأجرٍ لكي تحسّن وارداتها الشهرية، عرف الشرطي الشاب كيف يكسب ثقتها.

دون أن يثير ضجّة كي لا يوقظَ صاحبة المنزل، صعد السلّم الصغير اللولبي الذي قاده مباشرةً إلى الطابق الأوّل من المنزل - المرسم السابق للفنان - حيث أقام. وبعد أن بقي تحت رشّاش الماء لوقتٍ طويلٍ، ارتمى على سريره ونام نوماً مضطرباً.

المتبارزان

أعرف الآن أنّ ما يجعل المرء غبيّاً هو عجزه عن إتّباع حتى النصائح الصائبة التي يسديها لنفسه.

وليام فوكنر

- **مرحباً، مستر باد غاي.**

شاردَ الذهن، راح أرشيبالد يحكّ رأس القطّ الذي كان يحتكّ بساقه. خرخر الحيوان متعةً ومدّ بكلّ طوله فراءه الأسود والأصهب الذي لمع تحت الشمس مثل درع السلحفاة.

نهض ماكلين عن الطاولة وأخذ القطّ بين ذراعيه لكي يذهب ويجلس على الأريكة. التقط سيجاراً طويلاً ورفيعاً من نوع كوهيبا الفاخر من العلبة المفتوحة أمامه وأمسك بالتقرير الخاصّ بمارتن بومون.

كان التقريرُ المُعدُّ من قِبل مكتبِ تحقيقٍ خاصّ سميكاً وغنيَ المحتوى: صور مأخوذة خلسةً، تقارير مراقبة، سجلات فواتير الهاتف، بيانات مصرفية... كما وُجدت فيه صورة عن ملفّه المهني الكامل بترويسة إدارة الشرطة. بيانات كثيرة مجمَّعة بطريقة غير

شرعية، ولكن في فترة الحرب الاقتصادية وطفرة التحقيق الخاصّ هذه، كان بعض رجال الشرطة الفاسدين يتاجرون بوصولهم إلى ملفات الإدارة التي يُفترَض أنّها مصانة أمنياً.

كلُّ رجلٍ له ثمن، قل لي ما هو ثمنك، فكّر أرشيبالد في نفسه وهو يضع نظاراته الطبية الرفيعة.

ولِدَ مارتن بومون من أبٍ مجهول في الخامس من يونيو 1974 في آنتيب بجنوب فرنسا. كانت والدته، ميلين، تعمل في شركةٍ للتنظيف، حيث قامت كل مساء ولسنوات عديدة بأعمال التنظيف في المكتبة البلدية. وغالباً ما أخذت معها ابنها، الذي استغلّ ذلك لكي يقوم بوظائفه المدرسية ويتعلّم القراءة.

مايو 1988: توفّيت والدته في حادث سير في نيس، بالقرب من منتزه الإنجليز. أُصيب ابنها، البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، بجروحٍ بليغة وأمضى يومين في غيبوبة، ولكنّه خرج من المستشفى بعد ثلاثة أشهر دون أن يترك ذلك أيّ آثار سوى بعض الندوب على صدره.

ظلّ مارتن حتى نيله الشهادة الثانوية في كنف جدّيه اللذين كانا موظّفين متواضعين يقيمان في مجمَّع الأهرامات بإيفري. أظهرت صور شهاداته المدرسية أنّه كان تلميذاً جادّاً ومجدّاً، خاصّةً في المواد الأدبية.

عام 1992، قرّر مع ذلك أن يتقدّم لامتحانات الشهادة الثانوية بفرعها العلمي، ونجح فيها بعد أن نال الدرجات التالية: التاريخ (19)، الفلسفة (17)، اللغة الفرنسية (18)، الرياضيات (7)، الفيزياء (6). كما نال الجائزة الثانية للكونسرفاتوار في العزف على آلة الكمان.

في السنة نفسها، غادر شقّة جدّيه بعد أن حصل على منحة دراسية وغرفة في المدينة الجامعية.

عام 1995: حاز على إجازة في الحقوق من جامعة السوربون، ثمّ غادر لمدّة شهرين إلى سان فرانسيسكو لكي يحسّن لغته الإنجليزية. تدبّر لنفسه عملاً بسيطاً في كافتيريا جامعة بيركلي.

عام 1996: جمع بين شهادتين: شهادة في الحقوق وأخرى في تاريخ الفن والتي حصل فيها على تقديرٍ «جيّدٍ جدّاً» بفضل أطروحته الدراسية الأخيرة المكرّسة للتعاون بين ألفريد هيتشكوك ومصمّم الغرافيك الأمريكي شاول باس.

في أعوام 1997-1999: نجح من المرّة الأولى في مسابقة ضباط الشرطة وتمّ تدريبه في المدرسة الوطنية العليا لضباط الشرطة في كان-إيكلوز، وتخرّج في المرتبة الثالثة من دفعته.

عام 2000: اختار أن يُعيَّن في وحدة مكافحة المخدّرات في مدينة نانتير بذريعة أنّ صديق طفولته المقرّب توفي نتيجة تعاطيه جرعة زائدة قبل أن يحتفل بعيد ميلاده الثامن عشر. واكتُشِفَت كفاءته سريعاً وأصبح أحد أعمدة الوحدة من خلال مشاركته في العديد من المداهمات للملاهي الليلية الباريسية. وبفضل هيئته الطلابية، ساهم في تفكيك شبكةٍ للإتجار بالمخدّرات داخل الجامعة، وهي قضية حازت على تغطية إعلامية واسعة، وأفضت إلى ضبط الآلاف من حبوب النشوة، وأربعمئة غرامٍ من الكوكايين، وأولى العينات من عقار جي إتش بي.

عام 2002: لكي يلحق برئيسه، نُقِلَ إلى وحدة مكافحة المخدّرات في باريس. وهناك، عمل على قضايا أكثر حساسيّةً. فقبل أن يسمح قانون بيربين بهذه الممارسات بثلاثة أعوام، تمّ

انتقاؤه هو وعشرة رجال شرطة آخرين لمراقبة شبكات المهربين من الداخل، وهو عالمٌ مغلق وعلى هامش الشرعية والتراتبية التقليدية. عالم «الزومبي» هو الاسم الذي أطلقته المجموعة على نفسها، في إشارةٍ إلى مظهرهم الجسدي الذي ينبغي أن يسمح لهم بالانصهار بين المدمنين. ويعني الانصهار هنا تقديم الأسلحة والمركبات والأوراق الثبوتية المزوّرة لهذه الشبكات، وشراء ونقل المخدّرات، بل الموافقة أيضاً على تعاطي جرعة من الكوكايين أو حقنة من الهيرويين أحياناً من أجل التمويه. دون أن يظهر اسمك في الملفّ أبداً في طبيعة الحال.

وفي هذه الفترة، بدأ مارتن علاقة غرامية مع «مغطيّته»، كارين أنيلي، الشرطية المكلّفة بمتابعته عن بعد وكتابة التقارير عن أدائه.

كانت المهنة شاقّة، ولكنّها أتاحت القيام بعمليات نوعية ناجحة: تفكيك العديد من المختبرات السرّية لمخدّرات الميث الكريستالي، وتوقيف قافلة من ثلاث سيارات انطلقت من برشلونة لتهريب المخدرات على الطريق السريع في الجنوب، وضبط مئتي كيلوغرام من القنّب المخدّر وأربعة كيلوغرامات من الكوكايين. وهي قضايا أتاحت له أن يرتقي إلى رتبة نقيب في وقتٍ قياسي.

ثمّ تعقّدت الأمور في نهاية عام 2003. فجأةً، بدا أن مارتن لم يعد يُطيق دوره كعميل متخفّي. في ختام قضية مربكة ومعقدة، طلب إجازةً لكنّ طلبه رُفِضَ. فضّل رؤساؤه توجيهه نحو الأطباء النفسيين التابعين للشرطة والذين شخّصوا حالته، في تقارير ملتبسة، بأنّه مصاب **باضطراب الشخصية المعادية للمجتمع**، **وباضطراب الشخصية الحدّية**، أو أخبروه بأنّه يُعاني من **اضطراب ثنائي القطب**.

في نهاية صراعٍ مريرٍ استغرق أكثر من عام، حصل أخيراً على أمر تحويله إلى المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية، وذلك في يناير 2005. وتحت أوامر العقيد لوازو، أصبح من جديد الشرطي الناجح الذي كان قد كفّ عن أن يكونه، محققاً أفضل نسبة في حلّ الجرائم بالمكتب. وفي نفس الوقت، اتّبع تدريباً متواصلاً في معهد الدراسات العليا للفنون والذي حقّق فيه نتائج جيّدة. بدا شغوفاً بعمله الجديد، بيد أنّ سلوك بومون غدا أكثر راديكاليةً: أصبح يزدري العمل في إطار الفريق، وانغلق على نفسه في مسيرة انعزالية فاستاء منه معظم زملائه. ترك لوازو الأمر يسير على هذا النحو لأنّ مارتن، علاوة على كونه جادّاً ومتفانياً، لم يكن يطمح لأن يضع نفسه في الواجهة، ما سمح لرئيسه بأن ينسب إلى نفسه الكثير من إنجازاته. كان المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية يحتاج إلى تحقيق النتائج، وخاصّة في القضايا التي تحظى على تغطية إعلامية واسعة مثل سرقة لوحتَي بيكاسو من الشقّة الباريسية الخاصّة لحفيدة الفنّان. هنا أيضاً، مارتن هو الذي حصل على المعلومة الحاسمة التي أدّت إلى توقيف المجرمين الثلاثة من قبل وحدة مكافحة الجريمة المنظّمة، فتمّ العثور على اللوحتين اللتين يُقدَّر ثمنهما بخمسين مليون يورو، وهما **مايا مع دمية وبورتريه جاكلين**، في حالة جيّدة، وعرض لوازو مجده لمدّة ربع ساعة في نشرة الأخبار التلفزيونية.

قلّب أرشيبالد صفحات التقرير باهتمامٍ متزايد.

كانت الصفحات الأخيرة مخصّصة لجانبٍ أكثر شخصيةً من حياة الشرطي، إذ ظهر اسمه مرّتين في قاعدة بيانات Stic، وهو السجلّ الضخم للمخالفات الذي يجرد أسماء الضحايا والمحتجزين

قيد الحبس الاحتياطي. في قضيتين مرتبطتين بالدعارة واللتين كانتا تشملان نفس المرأة: امرأة أوكرانية معروفة باسم نيكو، والتي كانت تعمل عاهرة في بلدة أسنيير. لم تكن الصور التي ظهرا فيها معاً صور كئيبة، بل بدا فيها شيء من الرومانسية: بعد ظهيرة أحد أيام الأحد في حديقة لوكسمبورغ، ونزهة في ساحة شان-دو-مارس، وسهرة ربيعية على العجلة الدوّارة الضخمة لقصر تويلري، وعشاء معاً في مطعمٍ في ساحة دوفين.

كانت هناك نقطة غامضة أخرى: مواعيده الأسبوعية في دار سولين، المؤسَّسة الطبّية الواقعة في الدائرة الرابعة عشرة، والمختصّة بمعالجة اكتئاب المراهقين. رغم الجهود التي بذلها، لم يستطع المحقق الذي تعقبه أن يعرف من هو المريض الذي كان يزوره بومون.

أغلق أرشيبالد الملفّ، غارقاً في أفكاره. لقد أُخِذ بسيرة مارتن الذاتية بحيث نسي أن يُشعل سيجاره.

على أية حالٍ، كانت إيفي على حقّ: هذا الشرطي هو مختلفٌ عن الآخرين.

*

أحسّ مارتن بلسانٍ مبلّلٍ باللعاب يُدغدغُ وجهه.

- ماندولين! دعيني وشأني!

ولكن كلبة الكوكر الإنجليزية لم تُصغِ إليه، فانتهى الأمر بمارتن إلى أن يلعب بضع دقائق مع الكلبة. كانت ماندولين طفيلية حقيقية، لا تُطيق الوحدة وتعضّ كلّ ما يقع تحت أسنانها. كان قد التقطها من الشارع، أثناء عملية تفتيش عند بائع مسروقاتٍ في حي مونبارناس. كان الرجل قد فرّ منذ عدّة أيام وترك كلبته تنبح بحرقةٍ إلى حدّ

الإنهاك أمام بابه الموصد، فوضعها مارتن في سيارته بقصد إيداعها في مأوى جمعية حماية الحيوانات في أورجيفال. وخلال نصف الساعة الذي استغرقه الطريق، سال لعاب ماندولين على فرش السيارة وانتشر وبرها في كلّ مكانٍ. ومع ذلك، حين وصل مارتن إلى موقف السيارات، نبحت الكلبة بحرقة ونظرت إليه بنظراتٍ حزينة، فاستسلم مارتن وقرّر الاحتفاظ بها...

نظر الشرطي الشابّ إلى الساعة، التي أشارت إلى أن الوقت تجاوز منتصف الظهيرة. نهض مارتن، عاري الصدر ومرتدياً سروالاً قصيراً، وعَبَر المرسم السابق لكي يصل إلى المطبخ. كان الطابق الطويل قد رُتِّبَ على طريقة شقة مفتوحة مضيئة. كان المكان، دون أن يكون فوضوياً، «مزيّناً» بطريقة عشوائية تعكس شخصية ساكنه. على مكتبةٍ من خشب الجير، تحاذي مجموعةٌ من المانغا اليابانية الأعمال الكلاسيكية لمكتبة البلياد، كما تحاذي الروايات الروسية العظيمة ألبومات سامبيه المصوّرة، في حين هدّد تمثالٌ محاربٌ لشخصية دارث فيدر بسيفه الليزري تمثالاً من الراتنج لشخصية تان تان.

في ركنٍ من الغرفة، أسفل آخر تمثالٍ لهنري هدسون - وجه فتاةٍ شبحية ينبعثُ من كتلةٍ من الرخام -، كان هناك جهاز بلاي ستيشن، غارق تحت كدسةٍ من ألعاب الفيديو. وعلى الجدار، كانت هناك إعلانات عن معارض حديثة: موديلياني في متحف لوكسمبورغ، نيكولا دي ستايل في متحف بوبورغ، بيكاسو في متحف القصر الكبير. وبجانب المكتبة، حملت رفوفٌ معدنية مجموعةً من مئات أقراص الفيديو الرقمية: كلّ أعمال هيتشكوك، وتروفو، ولوبيتش، وكوبريك، وتارانتينو، وعشرات المسلسلات

الأمريكية التي تمّ تحميلها، وبعض الأفلامِ الهونغ كونغية والأفلامِ الإباحية. . .

فتح مارتن باب الثلّاجة ليأخذ منها عبوة كوكا كولا خالية من السكّر ولوحاً صغيراً من الزبدة. وجد بعض شرائح الخبز الأبيض في الخزانة وأعدّ لنفسه أربع شطائر على طريقته الخاصّة: نصف نيوتيلا ونصف حليب مكثّف. وبين القضمات المحلّاة، ابتلع قرصاً من الإفكسور وآخر من الفيراتران: وهو كوكتيل خفيف من مضاد الاكتئاب ومضاد القلق لكي يُسكتَ أصوات الطفولة، وقشعريرة الإبرة، وأشباح الماضي، والخوف من الغد. ربما كان من الأفضل له لو أنّه انتعل حذاءه الرياضي وراح يركض لمدّة ساعة، ولكنّه لم يكن في أحد أيامه الفضيلة. وهو يأكل، شغّل جهازه الآيبود الموصول بسماعات وبرمجَ قائمة تشغيل متنوّعة.

كان الطقس جميلاً. حثّه الضوءُ الساطع الذي يُلقي بأشعّته على الحديقة على أن يجلس على الشرفة. قبل أن يخرج إليها، ارتدى قميص تي شيرت أخفى به **النجمة المطلّة على الكثيب الرملي**، الوشم المرسوم تحت ترقوته، والمأخوذ من الصفحة الأخيرة من كتاب **الأمير الصغير**، «**المنظر الطبيعي الأكثر جمالاً والأكثر حزناً في العالم**»، حيث ظهر الطفل على الأرض وحيث اختفى عنها.

على الطاولة المعدنية الصغيرة، وضع حاسوبه المحمول وعبوة الكوكا كولا التي بدأ بالشرب منها. مطرقاً في التفكير، أشعل حاسوبه الماكنتوش وهو يتذكّر أحداث الأمس. كان سطح مكتب حاسوبه يحتاج إلى الكثير من الترتيب، إذ كانت الشاشة مليئةً بالوثائق والمقالات المحمّلة. ولكن وسط هذه الفوضى، برزت من النظرة الأولى أيقونةٌ أكثر لمعاناً من سواها. كان الملفّ، المشار إليه

بصليب الجنوب، معنوناً ببساطة: **أرشيبالد**. نقر على الأيقونة ووصل إلى عشرات الجيغابايتات من البيانات التي تحتوي على كلّ المعلومات التي جُمِعت عن ماكلين: صور عن مقالات صحفية، معطيات الإنتربول، تقارير مفصّلة عن السرقات التي وقعت على الأراضي الفرنسية، وصف وصور عن الأعمال المسروقة، تحقيقات صحفية. كان سرّ أرشيبالد ماكلين موجوداً في مكانٍ ما في أحشاء الحاسوب. كان لكلّ هذه السرقات معنى خفيّ، كان مارتن متأكّداً من ذلك. لم تكن نقطة ضعف «مَلك اللصوص» تكمن في تقنيته، وإنّما في الدافع وراء هذه السرقات. ما الذي يُحرّك ماكلين؟ لن يستطيع مارتن إلقاء القبض عليه أبداً ما لم يُجب على هذا السؤال أوّلاً.

مُحبَطاً من حجم مهمّته، عاد ودخل إلى المنزل. تمدّد على السرير وسحب من مغلّفٍ ورقتي لفّ سجائر وألصقهما ببعضهما من خلال ترطيبهما، ثمّ أمسك بعلبة سجائره من نوع دانهيل وقسم سيجارةً لكي يأخذ منها التبغ. وأخيراً، أخذ من مخزونه لوحاً صغيراً من القنّب الهندي المغلّف بورقِ الألمنيوم. استخدم قدّاحته لكي يُشعِل اللفافة حين دفعته قوّةٌ غير مرئية للعودة إلى الشرفة والجلوس أمام شاشة الحاسوب. كان أرشيبالد أقوى من الحشيش.

أعدّ مارتن لنفسه القهوة أوّلاً، ثمّ بدأ يستعرض بطريقة منهجية الوثائقَ التي سبق وأن قرأها عشرات المرّات. على ضوء لقائه مع ماكلين، كان يأمل في إيجاد دليلٍ، خيطٍ قد يكون أهمله سابقاً. كانت مسيرة اللصّ المهنية تمتدّ على مدى ثمانية وعشرين عاماً وتحفل بعددٍ مذهلٍ من النجاحات الباهرة.

عام 1982 - أوّل سرقة معروفة يقترفها أرشيبالد: عملية سطوٍ

على بنك لويدز، في قلب لندن، وهي إحدى أضخم السرقات في تاريخ بريطانيا العظمى. وكانت تلك أيضاً المرّة الأولى التي ترك فيها أرشيبالد في مكان الجريمة بطاقةَ التعريف الشهيرة خاصّته، المزينة بصورة نجمة الجنوب.

عام 1983 - باريس. وقوع سلسلة من السرقات في أشهَر محلّات المجوهرات في ساحة فاندوم: كارتييه، وفان كليف، وبوشرون. وذلك من خلال عمليات تنكُّر جديرة بالفنان المسرحي فريغولي، للحصول على غنائم مدهشة.

عام 1986 - المتحف الوطني السويدي. كانت خمس دقائق كافية لكي يستولي على لوحتين لرينوار، ولوحة لأنطوان واتو.

عام 1987- متحف غاغينهايم في نيويورك. سرقة لوحة لكاندينسكي وأخرى لموندريان.

عام 1990 - أنفيرس. متزوّداً بجواز سفرٍ مزوّر، نجح أرشيبالد في نيل ثقة موظّفةٍ في بنكٍ خاصٍّ بتجّار الألماس. أتاحت له المرأة الشابّة الوصول إلى قاعة الخزائن، ما مكّنه من الاستيلاء على ما يقرب من ثلاثين ألماسةً زرقاء قيمتها عشرون مليون دولار.

عام 1993 - باريس. دخل إلى الفندق الخاصّ لبيير بيريس، أكبر كُتُبي في العالم، وخرج من هناك مع جوهرة مكتبته: النسخة الأصلية من كتاب **فصلٌ في الجحيم**، الذي كتبه الشاعر آرثر رامبو، وعليه توقيع إهدائه إلى بول فيرلين.

عام 1998 - بوسطن. أكبر عملية سرقة لأعمال فنية في تاريخ أميركا. غزى ماكلين مؤسسة ريبيكا ستيوارت: سرق لوحتين لرامبرانت، ولوحة لفيلاسكيز، وأخرى لمانيه، ومزهرية صينية عائدة إلى سلالة مينغ وكذلك تمثالاً من البرونز للنحات الفرنسي أوغست

روردان. قُدِّرت قيمة المسروقات بما يقرب من ثلاثمئة مليون دولار، وحتى يومنا هذا، لم يُغلق مكتب التحقيقات الفيدرالي القضيّة، ويُكرّر المدّعي العام في بوسطن، في كلّ مؤتمرٍ صحفي، بأنّه لن يتقاعد قبل أن يُودع ماكلين في السجن.

عام 2001 - في خزنة أحد بنوك فيلادلفيا، استولى على طابع One Cent Magenta الذي يعود إلى عام 1856، وهو أحد أغلى الطوابع في العالم، وهو مستطيلٌ ورقي يبلغ وزنه أقلّ من غرامٍ واحدٍ، ويبلغ حجمه سنتمتراً مكعباً واحداً فقط. إنّه بمثابة الكأس المقدّسة بالنسبة إلى هواة جمع الطوابع.

عام 2005 - السرقة التي لن تغفرها له إنجلترا أبداً. لقد أهان ماكلين العائلة الملكية بدخوله إلى قصر بالمورال، مقرّ إقامة الملكة الصيفي، وخروجه منه مع لوحة فيرمير المفضّلة للملكة، وكذلك مع عشر رسومات للفنان ليوناردو دافنشي. ولكي يغيظ سكوتلاند يارد، شرطة العاصمة، ترك رسالة على الجدار: **والآن، جاء دور شرلوك هولمز!**

عام 2007 - سنة أصحاب المليارات الفرنسيين. وفي المقدّمة، فرانسوا بينو مع سرقة لوحةٍ لآندي وارهول في قصر غراسي في مدينة البندقية. ثمّ برنار آرنو، الذي سُرِقَت منه لوحة جميلة لجان ميشيل باسكيات.

مستغرقاً في عمله، مضت عدة ثوانٍ قبل أن ينتبه مارتن إلى أنّ أحداً ما يدقّ باب غرفته.

- ادخل! دعا الطارق إلى الدخول، وهو يرفع رأسه ويدسّ اللفافة في جيبه.

*

خرج أرشيبالد من المصعد الزجاجي الصغير الذي يصل إلى غرفته مباشرةً. كانت المقصورة الرئيسية تشغل الجزء الأكبر من السطح العلوي، وكانت قد زُينت على نمط آر ديكو، فكانت أكثر دفئاً من الصالون بمدفأتها وأثاثها الهندسي المرصّع بألواحٍ من الصدف وخشب الأبنوس.

جلس أرشيبالد إلى طاولة عمله. استبدّ به وهنٌ شديد فجأةً. أغمض عينيه وقام بتدليك صدغيه لكي يطرد بداية صداعٍ. بعد كلّ سرقةٍ كبيرة، كان يعاني من شيءٍ من الإرهاق، شعور قريب من الكآبة النفاسية. ولكن كان الأمر مختلفاً هذه المرّة، إذ لم يكن قد سبق له أن بلغ هذه الدرجة من الإنهاك. أجبر نفسه على فتح عينيه. وسط طاولة المكتب، كان ظرفٌ كبيرٌ ومغلق موضوعاً أمام أنظاره. لمس المغلّف الورقي دون أن يقرّر فتحه. منذ قرابة عشرين عاماً، كان نفس المغلّف يصله كلّ أسبوع: تقرير من محقّقٍ خاصّ في كاليفورنيا مكلّفٍ بتعقّبٍ مشدَّدٍ للغاية.

فتح المغلّف على مضضٍ واستغرق في قراءة التقرير بمزيجٍ من الفضول والنفور. كانت في داخل المغلّف صور لامرأةٍ شابّة بالإضافة إلى كشفٍ دقيق لجدول أعمالها وقائمة بأسماء الأشخاص الذين تتعاطى معهم. وكذلك نسخة مكتوبة من محادثاتها الهاتفية ومضمون رسائلها الإلكترونية، وتشخيص لطبيبٍ راجعته وقائمة بالأدوية التي وصفها لها. كانت الصور قد التُقِطت في سان فرانسيسكو وفي سوساليتو، وهي مدينة صغيرة على الخليج. أظهرت الصور امرأةً ثلاثينية ذات جمالٍ خامٍ وكئيب، نظرتها قاسية وشاردة.

هي.

ومثل كلّ مرّة، أقنع أرشيبالد نفسه بأنّ هذا التدخّل في حياة

ابنته الخاصّة سيكون الأخير. كان ينبغي له أن يجد في نفسه الشجاعة ليتحدّث معها، وينتقل من الخوف إلى الحبّ.

كان حبّه قويّاً.

ولكن في كلّ مرّة، تغلّب الخوف عليه.

*

- إذا ما واصلت على هذه الحال من سوء التغذية، سوف تمرض في النهاية!

دخلت السيدة هدسون إلى وكر المستأجر لديها ووضعت صينية طعامٍ على طاولة الشرفة دون استئذانٍ. كانت العجوز الإنجليزية قد أعدّت فطوراً إنجليزياً على طريقتها الخاصّة: خبزٌ محمّص مع مربّى البصل، طبقٌ من حساء الشوفان، فطيرة بالكِلى، جيلي هلامية بلون شراب الرمّان...

- همم، للطعام رائحة زكيّة! قال مارتن دون حماسة كبيرة.

لم تكن مالكة المكان طاهيةً ماهرة، لكنّه كان ممتنّاً لها لاهتمامها به. كانت تعتني به مثلما يعتني بها هو.

- لقد استلمتُ بريدك وكذلك طرداً مرسلاً إليكَ هذا الصباح. وكي لا أوقظكَ، سمحتُ لنفسي بأن أوقّع على إشعار الاستلام نيابةً عنكَ.

شكرها مارتن. اقتصر بريده على فاتورة شركة فرانس تيليكوم وكذلك النشرة المغلّفة التي ينشرها صندوق التأمين الصحّي الخاصّ به كلّ شهرين. ألقى بالمغلفات حتى دون أن يفتحها ثمّ انشغل بالطرد: طردٌ بريدي يحتوي على صندوقٍ صغيرٍ من خشب الصندل المرصّع.

فتح مارتن الصندوق ليرى زجاجة شمبانيا ممدّدة في علبتها الخاصّة.

دوم بيرينيون
روزيه معتّق منذ عام 1959

قطّب حاجبيه وفتّش العلبة بحثاً عن بطاقة تعريف.
لم يجد شيئاً.
قلب الطرد ليقرأ أنّه أُرسِل في الأمس، قبل منتصف الظهيرة بقليل، من مكتبٍ في الدائرة السادسة. على أيّة حال، لم يكن معجبُه المجهول قد سخر به، إذ كانت دوم بيرينيون ماركة الشمبانيا الأكثر شهرةً في العالم. ولا بدّ أنّ زجاجةً معتّقة كهذه تكلّف ثروة صغيرة.
قاده حدسٌ إلى أن يجلس أمام حاسوبه حيث فتح برنامج تريما. كانت مكتبة صور المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية فريدة في العالم وتضمّ الوصف التفصيلي وصور أكثر من ثمانين ألف قطعةٍ من الممتلكات الثقافية المسروقة في فرنسا وفي الخارج. وبفضل هذه الأداة، حين تُضبَط أيّ قطعة خلال عملية تفتيش، كان من الممكن التعرّف عليها مباشرةً وإعادتها إلى مالكها. كان مارتن قد حمّل القاعدة على حاسوبه المحمول لكي يستطيع أن يحملها معه أثناء عمله في الميدان. أدخل بعض المعطيات، فأعطى البرنامج، في نفس اللحظة تقريباً، النتيجة: كانت الزجاجات قد سُرِقَت في السنة الماضية، في ظروفٍ غامضة، مباشرةً بعد جلسة مزادٍ علني. نقر مارتن على الرابط الذي أشار إلى خبرٍ لوكالةٍ يتحدّث عن عملية البيع:

مزادٌ قياسي أثناء عملية بيع تاريخية في نيويورك!

في الخامس والعشرين من شهر أبريل الماضي جرت في دار سوذبيز للمزادات عملية بيع استثنائية لزجاجات شمبانيا، من بينها قارورتان تاريخيتان من نوع دوم بيرينيون روزيه، معتّق منذ عام 1959، أُبرِمت مقابل مبلغ أربعة وثمانين ألف وسبعمئة دولار.

وهذا النبيذ الأسطوري الذي يُعتَبَر جوهرة دوم بيرينيون، لم يُنتَج منه سوى ثلاثمئة قارورة ولم يُطرح في الأسواق التجارية أبداً. وقد قُدِّمَت غالبية الزجاجات في عام 1971 إلى النخبة العالمية التي اجتمعت أثناء الاحتفالات الباذخة التي أُقيمت بمناسبة الذكرى السنوية لتأسيس الإمبراطورية الفارسية.

ومنذ ذلك الحين، اختفت هذا النبيذ المعتّق من الأسواق ليظهر على نحوٍ مبهر في عملية البيع التاريخية هذه.

لم يُصدّق الشرطي الشاب عينيه: الزجاجة الموجودة أمامه تساوي أكثر من أربعين ألف دولارٍ إذاً! واصل القراءة باضطرابٍ. حول السرقة ذاتها، لم يكن أحدٌ يعرف شيئاً. كان أمرٌ واحدٌ فقط مؤكّداً: حين حضر المشتري الجديد لكي يحصل على مشترياته، كانت الزجاجتان قد اختفتا، واستُبدِلَتا ببطاقة التعريف الأكثر رعباً في أوساط الفنّ.

ظلّ مارتن لبرهةٍ جامداً في مكانه، مشلولاً بفعل «الهدية» التي تلقّاها للتوّ.

تصارعت في ذهنه أصواتٌ متناقضة. لم تكن هذه الزجاجة ملكاً له طبعاً، وهي دليلٌ في عملية سرقة ينبغي إعادتها إلى صاحبها، ولكن. . .

- هل أقدّم لكِ كأساً صغيرة، يا سيدة هدسون؟

- لا مانع لديّ. سيكون هذا تغييراً عن الشيري، أجابت العجوز الإنجليزية وهي تجلس على الشرفة.

فتح مارتن الزجاجة بحذرٍ شديدٍ، متلهّفاً لمعرفة ما إذا كانت الشمبانيا قد حافظت على فقاعاتها الفوّارة بعد خمسين عاماً. رفع الكأس إلى شفتيه وشرب نخب السيدة هدسون. لم يخب ظنّه: كان النبيذ رائعاً ويشعرك بأنك تشرب شيئاً من الذهب أو إكسيراً لحياةٍ طويلة.

مسترجعاً طاقته، رفع مارتن الكأس نحو السماء، وقال في نفسه إنّ قيمة الإنسان تتجلّى أيضاً في قيمة أعدائه.

لقد خسر الجولة الأولى، لكنّ المعركة بدأت للتوّ.

*

مرتدياً كنزةً ذات ياقة عالية، انضمّ أرشيبالد إلى إيفي في مقدّمة السطح العلوي، وهو المكان الأعلى لليخت، الذي تمّ تحويله إلى صالة رياضية في الهواء الطلق. كانت السيّدة الإنجليزية، وقد لفّت منشفةً حول رقبتها، تواصل التمارين الرياضية منذ أكثر من ساعةٍ: رفع الأثقال، الباور بليت، كيس الملاكمة، جهاز المشي. . . اقترح عليها أرشيبالد مشروباً، لكنّها هزّت رأسها رافضةً وهي تلوّح بقارورة المياه المعدنية. هزّ اللصّ كتفيه، ولكنّه لم يتفاجأ. كانت إيفي تعيش كناسكٍ، وتمنع على نفسها بعض الملذّات التي توفّرها الحياة: الطعام اللذيذ، النبيذ الفاخر، الجنس السهل. . .

جلس أرشيبالد في أريكة من الخوص قبالة البحر. كان الجو قد أصبح منعشاً والشمس المائلة إلى المغيب في صراعٍ مع السحب، تُرسِلُ خيوطاً أرجوانية وقرمزية تضرم السماء. أمسك بزجاجة الشمبانيا الموضوعة في سطلٍ مليءٍ بالثلج بجانبه وابتسم وهو يتفحّص العلامة التجارية الملصقة.

دوم بيرينيون

روزيه معتّق منذ 1959

فتح الزجاجة بعناية، وسكب لنفسه كأساً منها ورفع كأسه باتجاه الجنوب الشرقي.

هناك حيت توجد فرنسا.

هناك حيث توجد باريس.

وشرب نخب العدو غير المرئي الذي كان قد طعنه بأوّل ضربة سيفٍ.

8

مفتاح الجنّة

حياتنا كتابٌ يُكتبُ لوحده. نحن شخصيات في رواية لا نفهم دائماً ما يُريده المؤلّف.

جوليان غرين

بعد خمسة أشهر

الاثنين 21 ديسمبر - الساعة السابعة صباحاً

نانتير، مقر المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية

- هذه المرّة، عليكَ أن تصغي إليّ، سيّدي الرئيس!

كان مارتن واقفاً خارج مكتب العقيد لوازو، أشعث الشعر، شاحب البشرة، وقد غزت وجهه لحية لم يحلقها منذ عدّة أسابيع.

كان رئيس المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية العنيد يقف أمام الباب، عاقداً العزم على عدم الاستسلام لمرؤوسه.

- ليس لديك شيءٌ لتفعله هنا، يا بومون!

- يجب أن نتحدث.

- ليس هناك ما نتحدث بشأنه. لقد تمّ نقلكَ إلى وزارة الثقافة حتى شهر فبراير.

- لقد سئمتُ من مهامهم السخيفة. هل تعلم إلى أين أرسلوني اليوم؟ إلى مدينة روان لكي أقوم بتدريب موظفي متحف السيراميك.

- وما المشكلة في ذلك؟ من المؤكّد أنّه متحفٌ جميلٌ جدّاً.

- كفّ عن الاستهزاء بي وأعدني إلى الميدان. هذا هو المكان الذي أكون نافعاً فيه.

انفجر رئيسه غاضباً:

- أنت من وضعت نفسك في هذه الورطة بنفسك، أيّها النقيب، وليست لدي حالياً أيّ رغبة في أن أنتشلك منها. كما أنّه عليك...

أظهر تردّداً للحظةٍ قبل أن يُطلق العنان لغضبه:

- عليك أن ترتدي ثياباً غير هذه، بحقّ الجحيم! أنت ضابط شرطة ولستَ تلميذ مدرسة!

تنهّد مارتن. صحيحٌ أنّه لم يكن متأنّقاً، إذ كان يرتدي بنطال جينز بالياً، وحذاءً رياضياً مهترئاً، وسترة جلدية ضيّقة عمرها عشرة أعوام. ناهيك عن الهالات حول عينيه وعن النقص المزمن في النوم.

مرّت الأشهر الأخيرة صعبة للغاية عليه. فعلى الرغم من تنحيته جانباً، واصل التحقيق على نحوٍ منفرد، وقام كلّ يوم تقريباً بجولته على المخبرين في أوساط عالم الفن كما سبق له أن فعل في عالم المخدّرات: من خلال ترك بعض التجار الصغار يستفيدون بغية الحصول يوماً على المعلومة القادرة على الإيقاع بالشبكة. كان قد احتجّ حين أوقفوا رموزه الخاصّة بالدخول إلى الحواسيب، ولكنّه

تمكّن، دون أن يكون قرصاناً متمرّساً في اختراق الحواسيب، من قرصنة كلمة المرور والاستمرار في الوصول إلى قواعد البيانات السرّية بحيث أمكنه متابعة التحقيقات التي تهمّه.

أمّا لياليه، فكان يقضيها أمام حاسوبه أو غارقاً في الكتب. لقد راجع بالتفصيل كلّ تحقيقاته حول أرشيبالد، وأعاد قراءة كلّ الوثائق المتوفّرة، بل وسافر على نفقته الخاصّة لكي يستجوب شهوداً مفترضين مرتبطين بقضايا سابقة. كما أنه قرأ بنهمٍ عدداً من كتب علم النفس وقام بزيارة الأطباء النفسيين الذين كانوا قد ضايقوه في فترة خدمته في وحدة مكافحة المخدّرات. كان السبب المُعلَن من زياراته هذه هو استشارتهم بشأنه، إلا أنه كان في الحقيقة يستجوبهم حول نفسية اللصوص. كان هاجسه الوحيد آنذاك أن يضع نفسه في جلد ماكلين، ويدخل إلى رأسه عنوةً. أن يصبح أرشيبالد.

كانت خمسة أشهرٍ قد مضت دون أن يظهر اللصّ. لم تعد هناك سرقات واستفزازات! شعر مارتن ببعض الارتباك، مفتقراً إلى مادّة يعمل عليها. ثم فهم: بعد البورتريه الذاتي لفان غوخ، لم يعد أرشيبالد يدري ماذا يسرق، بكلّ بساطة! فوفقاً لمنطقه، كان يعقب كلَّ سرقةٍ تصعيدٌ، وكان على كلّ عمل فنّي مسروق أن يُحدِثَ انفعالاً أو صعوبةً إضافية ليأتي بشحنته من الأدرينالين. وتعقباً للفرصة المناسبة، فضّل اللصُّ الانتظارَ واضطرّ مارتن لأن يفعل كذلك أيضاً. بدأ يشعر بالملل ونفاذ الصبر، حين شهد الوضع انفراجةً على نحوٍ مفاجئ على شكل بلاغٍ من كريستيز، وصل إلى صندوق بريده الإلكتروني في منتصف الليلة الماضية. كانت دار المزادات الشهيرة تعلن عن عملية بيعٍ استثنائية وغامضة في سان فرانسيسكو، عشية عيد الميلاد. بعد بضع مكالماتٍ هاتفية وعمليات بحث، اقتنع مارتن أنّ

أرشيبالد سوف يضرب من جديد. لكن تحقيقاته لن تُجدي في شيء إن لم يدعه لوازو يسافر إلى الولايات المتّحدة الأمريكية.

- بومون، سوف تتأخّر عن قطارك إلى روان!

هزّ مارتن كتفيه. وضع رئيس المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية نقوداً في موزّع القهوة وناوله كوباً من الورق المقوّى.

- أعدني إلى العمل اليوم وسوف أجلب لك قضيّة العمر في مسيرتك، وعده الشرطي الشابّ.

لمعت عينا لوازو. كان شرطياً كفؤاً: فهو خبير في الأدلّة الجنائية، وأحد المؤسسين الرئيسيين للسجل الفرنسي الخاصّ بالبصمات الجينية التي أُعدّت غداة قضية القاتل المتسلسل غي جورج. وكانت النتائج التي حقّقها على رأس المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية مشرّفة، لكن لم تكن العلاقة بينه وبين مارتن جيّدة أبداً، لأنّ لوازو لم يكن لديه شغفٌ بالفنّ، بل كان يحرّكه الطموحُ ولم يكن يعتبر منصبه سوى سلّمٍ نحو مناصب أرفع.

- وما هي هذه القضيّة؟

- إلقاء القبض على أرشيبالد ماكلين.

- أنت مهووس بهذا الرجل!

- لكلٍّ إدمانُه.

- كان عليك أن تأتي لتراني المرّة السابقة، يا بومون. حين كان ماكلين في فرنسا.

- حسناً، هل تُريد إلقاء القبض على هذا الرجل أم لا؟

فتح لوازو باب مكتبه ردّاً على السؤال. تبعه مارتن وحاسوبه

تحت ذراعه. كانت الغرفة باردة ومملّة: «مكتب رئيس» فسيح وعملي، مرتّب على شكل قاعة اجتماعات صغيرة. خلف النوافذ، كانت نانتير ترزح تحت الغيوم المكفهرّة، وكانت أبراج حي البلدية، الغارقة وسط الضباب، منفّرة للناظر إليها. أوصل مارتن حاسوبه الماكبوك بالشاشة الجدارية وبثّ العرض التقديمي الذي كان قد أعدّه.

عرضت الصورةُ الأولى رؤيةً من أعلى لمدينة سان فرانسيسكو.

جلس لوازو في أريكته.

- حسناً، ماذا سيسرق صاحبك أرشيبالد هذه المرّة؟ جسر البوابة الذهبية؟

- بل ما هو أهمّ من ذلك.

شبك رئيس المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية ذراعيه وقطّب حاجبيه، ثم سأل:

- ماذا تعني؟

- **مفتاح الجنّة.**

*

نيويورك

مستشفى ستاتن آيلاند الجامعي

الساعة الرابعة عصراً

كانت كافيتريا المستشفى تقع في الطابق الأوّل وتطلّ على حديقة صغيرة مغطاة بالثلج.

جالساً وحده إلى طاولة صغيرة، لم يكن أرشيبالد ماكلين قد لمس فنجان قهوته. مقوّسَ الظهر وعلامات التعب بادية على وجهه، شعر بنفسه وحيداً، ومهمَلاً، وتائهاً. كانت آلامٌ حادّة تعتصرُ ظهرَه

وبطنَه منذ بضعة أسابيع، وكان قد فقد الكثير من وزنه، واصفرّت بشرته، ولم تعد لديه الشهيّة لأيّ شيء.

بعد تأجيل المهمّة عدّة مرّات، حسم أمره أخيراً وقرّر أن يحجز موعداً في هذا المركز الطبي حيث أجرى سلسلةً من الفحوصات منذ الأمس. قاموا بتحليل دمه، وفحص مثانته، وتصوير معدته، بل وأدخلوا أنبوباً في عفجه. ووعدوه بتسليمه النتائج وتشخيصاً طبّياً أوّلياً قبل نهاية اليوم. كان الآن فاقداً لكلّ طاقة، ويشعر بدوخةٍ، وبصداعٍ في الرأس، وبرغبةٍ في التقيؤ.

ولكن الأهم من ذلك، كان خائفاً.

في نهاية بعد ظهيرة ذلك اليوم، كانت صالة الكافيتريا شبه فارغة من الناس. كانت ندف الثلج ملتصقة بالزجاج، مكمّلةً بذلك زينة عيد الميلاد العتيقة بعض الشيء والتي غطّت الجدران. ارتفع صوت ليونارد كوهين الأجش من مذياعٍ وُضع بالقرب من المنضدة، مفاجِئاً أرشيبالد. متأثّراً بالأغنية، أرغم نفسه على ارتشاف شفّة من القهوة، ثم فرك جفنيه وأغمض عينيه. لقد أيقظت فيه الأغنيةُ ذكرياتٍ كان يسعى عادةً إلى التخلّص منها. صور مشمسة بطعم الحنين: كاليفورنيا بدايات السبعينيات. فترة صاخبة، سمتها التحرّر والتسامح، والتي كانت لا تزال تنبض بطاقةٍ احتجاجيةٍ سلميةٍ.

مرحلة نعيمٍ. عاشقان على متن سيارة مكشوفة.

فالنتين.

زمن الضحك والحب المتبادل واللامبالاة.

زمن فرقتَي بينك فلويد وغريتفول ديد، وموسيقى الروك المخدّرة وفرق سان فرانسيسكو.

فالنتين، المشرقة والمتألقة بلكنتها الفرنسية وطريقتها في نطق اسمها.

زمن وجبات الفطور في السرير، والنزهات بالمراكب، وجنون الأجساد، وهيجان القلوب.

فالنتين، بهمساتها وأنفاسها ودفئها وآثار قبلاتها التي لا تزال تطبع شفتيه.

فالنتين، بشعرها المنسدل، ورائحة الخزامي خاصتها، وموسيقى نبضات قلبها، وخريطة الكنز لشاماتها.

الزمن الذي كانا فيه سعيدين.

ثمّ ذبلت الصورةُ وتلاشت، واسودّت، وتسمّمت السعادةُ.

فتح أرشيبالد عينيه كما لو أنّه استيقظ فجأةً. أحسّ بأنّه مخنوقٌ ومحاصرٌ بحزنٍ عميقٍ يهدّد بابتلاعه، حزن قاومه على مدى ثلاثين عاماً. ولهذا السبب أصبح «أرشيبالد ماكلين»، اللصّ المطلوب لدى جميع أجهزة الشرطة في العالم. أن تعيش في خطرٍ يرغمك على أن تبقى حذراً ومتأهباً، ويقظ الذهن. الوصفة الوحيدة التي وجدها لكي يهرب من شبح فالنتين.

دبّت حرقةٌ شديدة في ظهره وتحت أضلاعه فجأةً. انحنى إلى الأمام لكي يهدّئ من شدّة الألم وكاد أن يُطلق صرخةً. بيده اليمنى، بحث عن قارورة الويسكي في الجيب الداخلي لمعطفه، ثم فتحها ورفعها إلى شفتيه.

- لو كنتُ في مكانكَ، لما فعلتُ ذلك.

وكمن يُضبَطُ بالجرم المشهود، رفع أرشيبالد رأسه، فرأى رجلاً بقامةٍ شامخة يقف أمام طاولته، وتحت إبطه ملفٌّ من الورق المقوّى.

*

- ما هو مفتاح الجنّة؟ سأل لوازو.

- إنّها ألماسة، أجاب مارتن. ألماسة ملعونة وخرافية، محاطة بالغموض والأسطورة.

كان مكتب رئيس المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية غارقاً في الضوء الشاحب للصباح الباكر.

ضغط مارتن على زرٍّ من لوحة مفاتيح حاسوبه ليُظهِر على الجدار صورة حجرٍ ثمينٍ ذي شكلٍ بيضوي يعكس تلوينة زرقاء غامقة مخضّبة بمسحةٍ رمادية.

- إنّها تزن 65 قيراطاً وطولها 3 سنتمترات، أوضح الشرطي الشابّ. ولكن لونها هو ما يُسحرُ الناس منذ أكثر من ثلاثة قرون.

حدّق لوازو في الشاشة، مفتوناً بالألماسة الزرقاء.

- اشتهرت هذه الحجرة بجلبها النحس لمن يمتلكها، شرح مارتن.

- ما مصدرها؟

تواصل عرض الشرائح، مظهراً صوراً علّق عليها مارتن:

- بحسب الأسطورة، استُخرجت الألماسة من مناجم غولكوندا الشهيرة في الهند. :كانت مرصّعة في تمثال إلهةٍ، وقام مهرّبٌ اسمه جان-بابتيست شاربانتييه بسرقتها من أحد المعابد، وهو عملٌ تدنيسي كان اللص أوّلّ ضحيةٍ له.

دعا العقيدُ مارتن إلى مواصلة الشرح:

- أتى شاربانتييه بالألماسة إلى أوروبا ونجح في أن يبيعها للملك هنري الرابع، إلّا أنه توفيّ ممزّقاً بأنياب رهطٍ من الكلاب المسعورة. أمّا الملك، فقد صاغ الحجرة الثمينة على شكل قلبٍ لكي يهديها لحبيبته الغالية غابرييل ديستري.

ظهرت لوحة امرأة على الشاشة: شابّة جميلة ذات شعرٍ ذهبيّ وخصرٍ رفيعٍ.

- بعد ذلك ببضعة أيام، توفيت الحبيبة، التي كانت حامل في شهرها السادس، فجأةً جرّاء آلامٍ شديدة. رأى البعض في ذلك تسمّماً، بل خنق من قِبل الشيطان، لشدّة ما كان احتضارها فظيعاً.

- وماذا عن الألماسة؟

- لقد تمّ دفنها مع المتوفية، ولكنّها ظهرت على نحوٍ غامضٍ حول رقبة ماري أنطوانيت. يُقال إنّها كانت تحملها معها أثناء توقيفها في فارين...

- وماذا جرى للجوهرة أثناء حقبة الثورة؟

- سُرِقَت على الأرجح مع مجموع مجوهرات العائلة الملكية لتظهر من جديد في لندن عام 1860، بين أيدي أسرة صناعية ثريّة سوف يشهد أفرادها في غضون بضع سنوات أسوأ الإخفاقات: فساد وإفلاس وحالات انتحار.

تلتْ صورةَ قصرٍ ريفيٍّ إنجليزي صورةُ سلاحٍ ناري قديمٍ، ثمّ ماخورٍ لندني، ثمّ محقنة قديمة قد تكون لشرلوك هولمز.

وقع لوازو في فخّ القصّة. وكما في رواية بوليسية مشوّقة، أراد أن يعرف التتمة وأشار على مارتن أن يتابع.

- تعاقب مفتاح الجنّة على الأيادي بانتظام في بداية القرن العشرين، إذ أهداه أميرٌ من أوروبا الشرقية إلى فتاةٍ حسناء تعمل في مسرح فولي بيرجير والتي انتهى بها الأمر إلى قتله بطلقة نارية. وحين استولى عليه السلطان عبد الحميد، خسر بعد بضعة أشهر عرش الامبراطورية العثمانية...

- هل أنت واثقٌ من أنّ كلّ هذه الأحداث مُؤكّدة؟ سأل لوازو بارتياب.

- أغلبيتها كذلك، صرّح مارتن. وفي عشرينيات القرن العشرين، حطّت الحجرة الثمينة بين يدي صائغ المجوهرات بيير كارتييه والذي صاغها في شكلها الحالي، قبل أن يتنازل عنها لصالح مصرفيٍّ ثري كان مولعاً بإيزادورا دانكن.

- الراقصة؟

- نعم، لم تكن قد مرّت على تلّقيها جوهرتها سوى بضعة أيام حين لقت حتفها في نيس، مخنوقةً بوشاحها الذي علق بين أسلاك عجلة سيارتها المكشوفة. أمّا عن المصرفي الثري، فقد خسر ثروته وانتحر خلال فترة الكساد الكبير.

تتالت على الشاشة صور صفحات صحفٍ ذكرت الموت المأساوي لنجمة ما بين الحربين العالميتين، تلتها صور للأزمة الاقتصادية لعقد الثلاثينات: مشرّدون يتزاحمون حول حساءٍ مجاني، ورجال أعمالٍ أفلسوا خلال بضع ساعات وألقوا بأنفسهم من أسطح الأبنية.

- وماذا بعد ذلك؟

- وصلت الألماسة إلى يدَي رجل الأعمال جو كينيدي الذي قدّمها كهديّة زواج لابنه البكر، جوزف، والذي بُرمِج منذ ولادته لكي يصبح رئيساً للولايات المتّحدة الأمريكية.

- إلا أنّ طائرة جوزف البومبارديه انفجرت فوق بحر المانش عام 1944.

- صحيح، أكّد مارتن. موتٌ مبكّرٌ سوف يحدّد المصير السياسي لشقيقه الأصغر، جون فيتزجيرالد، الذي كان حتى ذلك

الحين شاباً هاوياً، معتلّ الصحّة، مهتمّاً بالنساء والصحافة أكثر من اهتمامه بالسياسة...

- هل حاز جي إف كي على الألماسة الملعونة؟

- لا أحد يستطيع أن يؤكّد ذلك على وجه اليقين، قال مارتن. يقول البعض إنّ الألماسة الزرقاء وجِدتْ حول رقبة مارلين مونرو ليلة موتها، في حين يقول آخرون إنّها كانت في جيب بزّة جون فيتزجيرالد كينيدي لحظة اغتياله في دالاس، بينما يقسم آخرون أنّ كارولين بيسيت كانت تحملها معها عام 1999 حين تحطّمت الطائرة الخاصّة لزوجها جون جون في المحيط الأطلسي. لكن الأمر ليس مؤكّداً على الإطلاق.

- ومن يمتلك الألماسة اليوم؟

- ستيفن براونينغ، الملياردير الأمريكي، أو بالأحرى مجموعة كورتلاين التي هو المساهم الأكبر فيها. إنّه صندوق استثمار أمريكي عملاق وسهمه...

- ... فقد جزءاً كبيراً من قيمته مؤخّراً، خمّن لوازو.

وتأكيداً على ذلك، عرض مارتن على شاشته مساراً منحنياً يُظهر انهيار قيمة المجموعة في الأسواق وكذلك رسالةً إلكترونية تُعلن البيع بالمزاد لمفتاح الجنة، بعدما عقدت مجموعة كورتلاين العزم على التخلّص من الجوهرة...

- لكن ثمة شيءٌ يصعب عليّ فهمه: لماذا يسعى الجميع إلى حيازة هذه الألماسة إذا كانت تجلب معها سيلاً من المآسي؟

- يرمز مفتاح الجنّة إلى النقاء. فبحسب الأسطورة، إنه يجلب الشقاء إذا ما آلَ إلى شخصٍ غير وفيّ أو جشعٍ. أما في الحالة المعاكسة، فيُزعَمُ أنّه مصدر للحياة والثروة الوفيرة.

- وما علاقة ذلك مع أرشيبالد ماكلين؟

- اسمع، يا حضرة العقيد، اعتقد أغلبُ الخبراء أنّ الحجرة قد اختفت، وأنها لن تظهر في الأسواق من جديد أبداً، فقيمتها لا تُقدّر بثمن وسعرها سوف يرتفع بجنون. فبحسب معلوماتي، بعض جامعي الأحجار الثمينة على استعدادٍ لأن ينفقوا ثرواتٍ طائلة على هذه الألماسة. الروس، والصينيون... الجميع مهتمون، وأنا أراهنك على أنّ الصفقة سوف تتجاوز الخمسين مليون دولار.

هزّ لوازو رأسه في حركةٍ تنمّ عن الشكّ، ولم يترك له مارتن المجال للجدال:

- هذه الحجرة ليست مجرّد ألماسة: إنّها أسطورة، قطعة حلمٍ حقيقية، وهي الشيء الوحيد الذي يهمّ ماكلين في الوقت الحالي.

- ما هي الأدلّة التي بحوزتك؟

قرّر مارتن أن يلجأ إلى الإيهام:

- لست بحاجة إلى أدلّة: أنا أعرف ماكلين جيّداً جدّاً، أشعر بما يشعر به، وأفكّر كما يفكّر. أنا أعرف أنّه ينوي سرقة هذه الألماسة، وأعرف كيف سيسطو عليها وأعرف كيف أمنعه من ذلك. رتِّب لي لقاءً مع مكتب التحقيقات الفيدرالي ودعني أذهب للتحقيق هناك.

- من دون عناصر ملموسة، هذا ليس وارداً، وأنت تعرف ذلك جيّداً.

- ولكن عناصر فريق الجريمة الفنية يعرفوننا: فقد ساعدناهم السنة الماضية في قضية سرقة لوحة إدوارد هوبر بموافقتنا على مشاركة مخبرٍ من الإف بي آي في تحقيقنا. هم يعلمون أننا محلّ ثقة!

هزّ لوازو رأسه:

- لا علاقة لهذه القضية بذلك، فقد كانت لدينا معطيات: مكالمات هاتفية مسجّلة، مراقبات وتعقّبات، صور... أما هذه المرّة، فليس لدينا أيّ شيء!

ساد صمتٌ طويلٌ بين الرجلين. بهيئته الشبيهة بهيئة مراهقٍ، جلس مارتن على الطاولة الزجاجية لرئيسه، وأشعل سيجارةً في حركة استفزازية.

نظر العقيد إلى مارتن برفقٍ. هذا الصباح، لم ينجح سلوك مرؤوسه حتى في إزعاجه. كان يشعر بحزنٍ مشوب بالغضب فحسب.

- ما الذي تسعى إليه، بحقّ الجحيم؟ انفجر، قائلاً.

طفا السؤال في الهواء، ممتزجاً مع دخان السيجارة. ألحّ لوازو:

- حتى إذا نجحت في إلقاء القبض على ماكلين يوماً، فما الذي سيتغيّر برأيك؟ لا تظن أنّ هذا سوف يحلّ أيّ مشكلة في حياتكَ، يا بومون!

- وأنت، أيّها العقيد، ما الذي تسعى إليه؟ سأل مارتن في هجومٍ معاكس.

- أنا لم أعد أسعى، أنا لم أعد أبحث، فأنا وجدت. وابتداءً من عمرٍ معيّن، يصبح هدف اللعبة الحفاظ على ما حصلت عليه.

- وماذا وجدت؟

- ما ينبغي للجميع أن يبحثوا عنه: جزئي المفقود.

لم يرغب مارتن في أن يعرف المزيد. كان على علمٍ

بالإشاعات: لقد ترك لوازو زوجته وأطفاله مؤخّراً لكي يُقيم مع ضابطة شابّة برتبة ملازم تخرّجت لتوّها من مدرسة الشرطة. أهي أزمة منتصف العمر؟ أهو وهم الشغف؟ أهو حبٌّ حقيقي؟

فكّر في كارين، وفي الرسائل التي تركتها على مجيبه الآلي والتي لم يردّ عليها. أيمكن أن تكون **جزءه المفقود**؟ كلا، كان متأكّداً من ذلك. لكن تسلّلت العبارة إلى داخله مثل سمّ عضّة ثعبانٍ، وزرعت بلورات من الثلج في عروقه، وكسرت الجدار الحجري الذي يحمي قلبه. شعر لثانيةٍ بأنّه يفقد توازنه، كما لو أنّه أُصيب بالدوّار. أغمض عينيه وعاد خمسة عشر عاماً إلى الوراء، ذات صباحٍ صيفيٍّ ماطر، أمام محطّة المسافرين في مطار سان فرانسيسكو. اختلط شعرٌ مبلّل بشعره، ولمعت عينان خضراوان تحت المطر، وتوسّل إليه صوتٌ: ابقَ لمزيدٍ من الوقت!

ابقَ لمزيدٍ من الوقت!

مكتبة
t.me/soramnqraa

*

نيويورك

كافيتيريا مستشفى ستاتن آيلاند الجامعي

أخذ الدكتور غاريت غودريتش مكانه قبالة أرشيبالد ماكلين.

فرش على الطاولة عدة الملفات تحتوي على نتائج الفحوصات التي أجراها لتوّه.

ورغم تحذير الطبيب، رفع أرشيبالد زجاجة الويسكي خاصّته وابتلع رشفةً من الشراب النفيس، بدافع الاستفزاز أكثر منه بدافع الرغبة. لم يسبق أن أمره أحدٌ، ولن يسمح بأن يأمرهُ أحدٌ اليوم. ثمّ سدّ زجاجته الفضّية وثبّت نظرته في عينَي غودريتش.

كان الرجلان يتشابهان: فهما في نفس السنّ، ولهما نفس

البنية، ليسا طويلين، ولكنّهما قويّا البنية. ولكليهما كاريزما وحضورٌ قويّ.

- إذاً، سأموت، أليس كذلك؟

بحكم العادة، كان أرشيبالد يسعى إلى مواجهة صريحة ومباشرة.

بادله غودريتش نظرته. شعر بتعاطفٍ غريب مع هذا المريض الذي كان يمكن له أن يكون شقيقه، صديقه، توأم روحه... ماذا كان ليفضّل لو كان في مكانه: تلميحٌ لطيف أم الحقيقة الأكثر قسوةً؟ اختار الحلّ الثاني.

- لديك ورمٌ في البنكرياس وقد وصل إلى الغدد اللمفاوية والكبد.

تحمّل أرشيبالد الصدمة دون أن يبدي أي ردّ فعل. تابع غودريتش:

- انتشاره الواسع يجعله غير قابلٍ للجراحة، وبشأن خبثه، أعترف لك بأنّه من النادر أن يكون ما هو أسوأ من ذلك. ولتخفيف آلام بطنك، يمكننا أن نجرّب إجراء عملية تحويل المجرى أو علاجٍ كيميائي، ولكنني أشكّ أن يكون ذلك أكثر فعاليةً من أخذ المسكّنات. وبالتالي، إذا سألتني عن أرقام أو احتمالات، عليّ أن أُخبرك بأنّ فرصكَ في البقاء على قيد الحياة لثلاثة أشهر شبه معدومة.

أغمض أرشيبالد عينيه وشعر بدقات قلبه تتسارع. على الأقل، أصبحت الأمور واضحةً الآن: كان في وضعٍ صعب ومرغماً على أن يخوض معركة أخيرة يعرف نتيجتها مسبقاً.

للحظةٍ طويلة، ظلّ الرجلان ينظران أحدهما إلى الآخر، دون

أن ينبسا ببنت شفة. ثمّ نهض غاريت غودريتش ليطلب كأساً فارغاً، قبل أن يعود ويجلس إلى الطاولة. وبدوره، صبّ لنفسه قطرةً من الويسكي شربها مشاركةً مع مريضه.

لاحظ أرشيبالد حينئذٍ أنّ إيقاع قلبه قد تباطأ. فالغريب في الأمر أنّ هذا التشخيص الكارثي حرّره من خوفه: فالخشية من الأسوأ أكثر رعباً بكثير من اليقين بالأسوأ.

العدو هو الخوف.

دائماً وأبداً.

9

الآنسة هُوْ

كان يبكي دموعاً من زجاج
وعند ملامستها الأرض
كانت تتحوّل إلى موسيقى
ملائكية وشبحية.

ميشيل بولناريف

محطّة سان-لازار
الساعة الثامنة وعشر دقائق مساءً

وصل القطار القادم من روان متأخراً بنصف ساعة. تُرى هل حدث التأخير بسبب حركة احتجاجية؟ مشكلة تقنية؟ حادثٍ مروري على الطريق؟ لم يحاول مارتن، المكتئب والمتعَب، حتى أن يفهم ما حصل.

كان من بين أوائل الركاب النازلين إلى الرصيف. واضعاً يديه في جيبَي سترته، ومعتمراً قلنسوة، وواضعاً سمّاعات جهاز الآيبود بأعلى الصوت في أذنيه، شقّ طريقه وسط الحشد، مستعجلاً على مغادرة الديكور الحضري والبارد للمحطّة.

في منتصف السلّم الكهربائي، شعر بأنّ أحدهم يحتكُّ به عن

قرب، فأدار رأسه ليرى رجلاً آسيوياً ضخمَ البنية مثل مصارع السومو. مرتدياً بزّة إيطالية وواضعاً نظاراتٍ سوداء، بدا كما لو أنّه خرج لتوّه من أحد أفلام المخرج جون وو.

ثمّ ظهر طيف امرأة رشيقة خلف منكبَي المصارع. كانت امرأةً شابة ذات مظهرٍ راقٍ وأنيق، ترتدي معطفاً ضيّق الخصر. نزلت السلالم لكي تنضمّ إلى الشرطي الشابّ. كان مارتن غارقاً في فقاعته الموسيقية، بحيث لم يستطع سوى أن يقرأ على شفتيها التحية التي ألقتها عليه باللغة الإنكليزية:

- مساء الخير، سيّد بومون.

رفع سمّاعات الآيبود من أذنيه وضيّق عينيه. ذكّرته المرأة بأحدٍ ما على نحوٍ مبهم.

عرّفته بنفسها وهي تمدّ له يدها.

- مون جين-هُوْ.

في البداية، لم يعنِ له هذا الاسم المعقّد شيئاً، ثمّ:

الآنسة هُوْ! نمرة سيئول.

- أعتقد أنّ هناك أموراً ينبغي أن نتحدّث فيها، سيّد بومون. هلا سمحتَ لي أن أناديك بمارتن، بدون رسميات؟

أمورٌ ينبغي أن نتحدّث فيها؟

قطب مارتن حاجبيه. نظرَ مطوّلاً إلى اليد الممدودة للحسناء الكورية قبل أن يقرّر مصافحتها.

قالت وهي تقترب منه أكثر:

- طمئني، أنت لم تفقد لسانك، صحيح؟

لم يفرج مارتن عن أيّ ابتسامة. كان يعلم أنّ هذه المرأة ليست سهلة وأنّ خلف جاذبيتها ولباقتها تختبئ سيّدة من حديد ذات طموحٍ

لا حدود له. كانت الآنسة هُوْ شخصية شهيرة في عالم الشرطة، وقد بدأت وسائل الإعلام تتحدّث عنها قبل خمس سنوات، حين كانت تعمل في مكتب المدّعي العام لشرطة سيئول. على رأس فريقٍ من خمسين محقّقاً، نجحت في أن تقطع رأس عصابة الثالوث للجريمة المنظّمة وأن تسجن الزعماء الرئيسيين لعصابة جوبوك، المافيا الكورية، وهي عملية سُمّيت «الأيدي النظيفة» والتي نظّفت سيئول من قسمٍ كبيرٍ من الشبكات الإجرامية في مجال الدعارة والقمار والتهديد والابتزاز. جعل منها هذا النجاح بطلةً، ولكن حكم عليها أيضاً أن تعيش تحت حماية حارسٍ شخصي على مدار الساعة، لأنّ عصابات الجريمة المنظّمة أقسمت على النيل منها. كان مارتن يعلم أنّها تعمل الآن لدى الفرع الأمريكي لشركة لويدز براذرز، وهي إحدى أكبر شركات التأمين في العالم.

- ادعني إلى العشاء. عشاء لكي أقنعك، طلبت منه الفتاة الكورية.

- تقنعيني بماذا؟

- لديك صوتٌ جميلٌ جدّاً.

- تقنعيني بماذا؟ كرّر بنبرة انزعاج.

- بأن تعمل لصالحي.

- أنا لا أعمل لصالحِ أحدٍ، قال وهو يهزّ رأسه.

- أنت تعمل لصالح دولةٍ لا تقدّر كفاءاتك.

التفت نحوها. كانت المحطّة مكتظة بالمسافرين، ولكنّ قامة مصارع السومو عملت كستارٍ يحميهما من الحشد.

- تعالَ واعمل معي، واصلت الفتاة الكورية. كلانا معاً، يمكننا أن نحظى بفرصة...

- فرصة لماذا؟

- لإلقاء القبض على أرشيبالد ماكلين.

*

قطعت سيارة البينتلي ذات الزجاج المظلل شارع سان لازار ثم جادة هوسمان قبل أن تتجّه نحو ساحة الكونكورد. فاحت من السيارة رائحة الفرش الجديدة. وخلف المقود، قاد الرجل الضخم ذو النظارات السوداء بهدوءٍ مدهش، وهو يستمع إلى نسخة منقّحة من قدّاس باخ. على المقعد الخلفي، كان مارتن غارقاً في أفكاره، يتأمّل آلاف المصابيح الزرقاء التي تلألأت مثل شلالاتٍ لازوردية على الأشجار المصطفّة على جانبي جادة الشانزيليزيه. كانت الآنسة هُوْ جالسةً إلى جانبه، تسترق إليه النظرات خلسةً. استقر نظرها على شعره الذي كان بحاجة لأن يُقص، وعلى لحيته التي لم يحلقها منذ أيام، وعلى القلنسوة المحاطة بشريطٍ من الفراء لسترته الخضراء الكاكي الذي لم يكلّف نفسه عناء خلعها، وعلى فتحة قميصه التي تركتها تلمح وشماً موجعاً، وعلى الضمادة الملصقة بالقرب من شفته. رأت فيه هيئة أميرٍ شابٍ من المدن، حزيناً ومعذَّباً، يشعّ جمالاً غريباً، رومانسياً وقاسياً في آنٍ واحد. نجحت في النظر في عينيه للحظةٍ. كانت لعينيه ذات اللون الأزرقِ البحريِّ الباهت قوّة جذبٍ شبيهة بتلك التي يمتلكها بعض الرجال الذين اعتزلوا الإعجاب والإغواء، لكن لمع فيهما بريقٌ يوحي بذكاءٍ وقّاد.

عبرت السيارة فوق نهر السين وانعطفت يميناً نحو رصيف دورسيه قبل أن تواصل نحو رصيف برانلي ومن ثم إلى جادة سوفرين.

تفاجأت الآنسة هُوْ بكونها تشعر بالبرد. لقد سبق لها أن

واجهت المجرمين الأكثر قسوةً، وحصلت على أحكامٍ بالإعدام لأشرس زعماء العصابات، وألقت القبض على القتلة الذين أرسلتهم المافيا للنيل منها، ولم ترتعش إثر كلّ ذلك ولو مرّةٍ واحدة. بيد أنّها، في هذه السيارة، إلى جانب هذا الرجل، شعرت بالخوف. خوفٌ من نفسها ومن الاضطراب الذي شعرت به فجأةً، والذي كان غير متوقّع ومربِكاً. كانت تُدفع لها الثرواتُ لقاء قدرتها على قراءة دواخل الناس، وكشف تصدعاتهم وندوبهم. فنظرياً، كانت تعرف مارتن عن ظهر قلب: كانت شركة التأمين التي تعمل لديها تتعقب النقيب الشابّ منذ عدّة أشهر، وكانت الآنسة هُوْ قد درست ملفّه وقرأت بريده الإلكتروني، ووصلت إلى القرص الصلب لحاسوبه، واستمعت إلى محادثاته الهاتفية المهنية والخاصّة. اعتقدت أنّها تتقدّم في أرضٍ مألوفة، إلّا أنها لم تتوقّع التأثير المغناطيسي الذي سيمارسه عليها الشرطي الشابّ.

أغمضت عينيها لبضع ثوانٍ، وكافحت لتكبح رغبتها الوليدة. كانت تعلم أنّ المشاعر غالباً ما تكون أكثر تدميراً وخطراً من طلقة مسدّس عيار 9 مم أو من نصل سيفٍ بتّارٍ.

توقّفت سيارة البينتلي بالقرب من ميدان شان-دو-مارس. فتح مصارع السومو لهما الباب ثمّ أغلقه من ورائهما.

كان الطقس بارداً، ويقارب مؤشر ميزان الحرارة الزئبقي الصفر، في حين جلبت الرياح معها مزيجاً من المطر وندائف الثلج.

- آمل أنّك لا تصاب بالدوار، قالت وهي تشير إلى الطيف المعدني لبرج إيفل، المضاء بلون العلم الأوروبي الأزرق.

سعياً إلى بعض الدفء، أشعل مارتن سيجارة دنهيل وأطلق نفثاً من الدخان الذي ارتفع لولبياً.

- بل على العكس تماماً، أنا أحبّ الوقوف فوق الفراغ، أكّد لها بما يشبه التحدّي.

*

ترك مارتن نفسه ينقاد خلف الفتاة الكورية في فناء برج إيفل وتحت المظلّة التي تؤدّي إلى المدخل الخاصّ بمطعم **جول فيرن**. نقلهم المصعد إلى الطابق الثاني حيث يقع المطعم الشهير لهذا المَعلَم الحديدي. قادهم رئيس النادلين عبر الصالة التي تتبع خط الأعمدة الأربعة للبرج وترسم ما يشبه صليب مالطة.

كانت الصالة مفروشةً بسجادٍ بنيٍّ كاشف، وينبعثُ منها صوتٌ هادئ لعزفٍ على البيانو، وفيها أرائك إيطالية أنيقة، ولها إطلالة تحبس الأنفاس: كان المكان ساحراً، وكانت وطاولتهم تطلّ على ساحة تروكاديرو وأنوارها المذهلة.

طلبا طعامهما بسرعة ثمّ أخرجت الآنسة هُوْ من حقيبتها مغلّفاً مستطيلاً بلون الرمل، ومدّته لمحدّثها.

فتحه الشرطي: كان في داخل المغلّف شيكٌ مصرفي باسمه مصدره شركة التأمين لويدز براذرز ومبلغه 250000 يورو.

راتبُ شرطيٍّ لمدّة عشر سنوات.

*

مارتن (وهو يدفع الشيك): ماذا تلعبين؟

الآنسة هُوْ: اعتبر هذا المبلغ دفعةً أولى. هدية ترحيبية لحثّك على ترك الشرطة.

لم يُجب مارتن. كان مذهولاً. نظر شارد الذهن إلى طبقه من السلمون المنقوع في صلصة من «الليمون والكافيار والفودكا»، في حين أكلت الآنسة هُوْ بتلذّذ كلّ لقمةٍ من طبقها من المحار.

بعد لحظةٍ من الصمت، سأل مارتن:

مارتن: ماذا تنتظرين منّي بالضبط؟

الآنسة هُوْ: لقد أخبرتُك بذلك. أريدُك أن تساعدني في إلقاء القبض على أرشيبالد.

مارتن: لماذا أنا؟

الآنسة هُوْ: لأنّك الشرطي الوحيد في العالم الذي رأيت وجهه ووضعته في مرمى سلاحك. ولأنّك تقضي لياليك في محاولة الدخول إلى رأسه ولأنّك مقتنعٌ بأنّ حياتك مرتبطة بحياته على نحوٍ لصيقٍ...

مارتن: ما الذي يجعلكِ تقولين ذلك؟

الآنسة هُوْ (وهي ترفع إلى شفتيها كأساً من الشمبانيا الروزيه): لنكن واضحين، يا مارتن، أنا أعرف كلّ شيء عنك: قياس حمالة صدر جدّتك، واسم معلّمتك في المدرسة الابتدائية، وأدقّ تفاصيل سجلّك في الخدمة، وتصحّر حياتك العاطفية، وماركة ورق السجائر التي تلفّ فيه سجائر الحشيش، وقائمة المواقع الإباحية المفضّلة لديك...

لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام. منذ بضعة أسابيع، لاحظ أنّه مُراقبٌ وأنّه تمّ تركيب جهاز تجسّسٍ على حاسوبه. وإذ اعتقد أنّ الأمر يتعلّق بتحقيقٍ من شعبة الشؤون الداخلية للشرطة، ركّز على حماية الأمور الأساسية: نيكو، الطفلة كامي، وملفّه السرّي حول أرشيبالد. اعتقدت الفتاة الكورية أنّها تعرفه، ولكنّها غفلت عن الأمور الوحيدة الهامّة في حياته.

أدركت سوءَ تقديرها، وأنّها قد سلكت الطريق الخطأ، وأنّها لن

تنجح في الحصول على تعاونه عن طريق التخويف، فألقت بورقتها الأخيرة:

الآنسة هُوْ: أنت تعتقد أنّك تعرف كلّ شيء عن أرشيبالد، ولكن هذا اعتقادٌ خاطئ. . .

مارتن (دون أن يبدو عليه أي انفعال): كلي آذان مصغية.

الآنسة هُوْ: بالنسبة إليكَ، ماكلين لصٌّ عبقري. أما بالنسبة إلينا، فهو خاطف.

قطّب مارتن حاجبيه.

الآنسة هُوْ: رسمياً، لا يتم الإعلان عن اختطاف الأعمال الفنية، لأنّ الاعتراف بذلك من شأنه أن يؤدي إلى تفشّي هذه الظاهرة. ففي وسطنا المهني، إنه موضوعٌ من المحظورات ولن يكسر أحدٌ قانون الصمت أبداً: لن تعترف أيّ شركة تأمين أو أيّ مدير متحفٍ أنهم دفعوا فديةً من أجل استرداد لوحةٍ فنّية.

مارتن (وهو يهزّ كتفيه): أعرف أنّ الوضع في الحقيقة مختلفاً تماماً. . .

الآنسة هُوْ: نعم وقد أصبح ماكلين خبيراً في هذه الممارسات: فباستثناء بعض اللوحات التي لم يرغب أبداً في التخلي عنها، إنه يقوم بانتظام في مساومة شركات التأمين لكي يُعيد لها أعمالها الفنية لقاء مبالغ باهظ، كفدية. لكن ما هو أكثر إثارةً للدهشة ربّما، هو ما يفعله بهذه الأموال. . .

تركت الفتاة الكورية معلومتها معلّقة عمداً. حاول مارتن أن يبدو غير مكترثٍ، وتظاهر بالاستمتاع بتناول الجمبري المشوي مع الكمأة الذي وُضِعَ أمامه للتو. ثمّ نظر إليها كما لو أنّه يتأمّل عملاً فنّياً في متحفٍ. كانت بشرتها صافية على نحوٍ مدهش، مائلة إلى

اللون الوردي، كما كانت طويلة ورشيقة مثل عارضة أزياء، وترتدي تنّورةً فضفاضة سوداء وقميصاً أبيض جعلاها تشبه بأودري هيبورن الإنجليزية، أكثر مما تشبه جونج لي الصينية.

الآنسة هُوْ: بحسب دائرة الإيرادات، أسس أرشيبالد نظاماً متطوّراً من الشركات الوهمية لتبيض أموال أعماله المشبوهة، وهي مبالغ نجد لها أثرٌ في حسابات بعض المنظمات الإنسانية.

مدّت له شاشة هاتفها البلاك بيري والتي تُظهر وثيقة من مديرية الضرائب الأمريكية بقائمة بمنظمات غير الحكومية المعنية. التقط مارتن بعض الأسماء، من بينها منظمة طيران بلا حدود، والأطبّاء الطيّارون، ومنظمة الإسعاف الجوي، وأجنحة الأمل...

كانت ندائف الثلج تتطاير على بعد بضع سنتمترات منهما قبل أن تتحطّم على الألواح الزجاجية. واصلت حديثها، لكن لم يعد مارتن يُصغي إليها. إذاً، أرشيبالد هو أشبه بروبن هود معاصر، يستخدم شغفه بالفنّ لغايات إنسانية وخيرية! راح عقله يضع ألف فرضية تؤدّي كلّها إلى نفس السؤال: ما هو الذنب الذي يسعى اللصّ إلى أن يكفّر عنه؟

الآنسة هُوْ: هل تعرف شركتنا، لويدز براذرز؟

أومأ مارتن برأسه إيجاباً. كانت شركة لويدز براذرز لاعباً أساسياً في عالم الفنّ: نوع من التكتل لشركات التأمين التي نجحت على مرّ السنين في ابتلاع منافسيها الرئيسيين لكي تخلق لنفسها وضعية احتكارية تخولها الحصول على كلّ العقود الكبيرة في السوق.

الآنسة هُوْ: على مدى السنوات الخمس السابقة، كرّست لويدز براذرز معظم أرباحها لتغطية الجرائم المرتكبة من قبل أرشيبالد.

مارتن (وهو يهزّ كتفيه): هذه مشكلتكم، ليست مشكلتي...

الآنسة هُوْ: مع تزايد ضربات ماكلين هذه السنة، وجدت المجموعة نفسها في وضعٍ ماليّ حرجٍ جدّاً، إذ اضطرت لأن تلجأ إلى احتياطاتها من أجل تسديد عشرات الملايين من اليوروهات...

مارتن: هناك أزمة فعلاً، ويعاني منها الجميع...

الآنسة هُوْ (محاولةً السيطرة على غضبها): لم يعد بإمكاننا تحمّل الأمر، ومكتب التحقيقات الفيدرالي كذلك. نحن نعمل الآن يداً بيدٍ مع المباحث الفيدرالية ونحن عازمون تمام العزم على أن نعالج مشكلة أرشيبالد **بشكلٍ نهائيٍّ**.

مارتن: وكيف تنوون فعل ذلك؟

الآنسة هُوْ: لقد وافقت شركتنا على تأمين تلك الألماسة الشهيرة، مفتاح الجنّة، التي ستُعرَضُ في المزاد العلني في سان فرانسيسكو. ومثلك، أعتقدُ أنّ أرشيبالد سيسعى إلى الظفر بها، ولكنّه لن ينجح هذه المرّة، لأنّك سوف تكون هناك لمنعه عن ذلك...

ودون أن تترك له المجال ليطرح أي أسئلة، وضعت تذكرة سفر على الطاولة.

الآنسة هُوْ: أنا أعمل بالتنسيق مع مكتب التحقيقات الفيدرالي وأريد أن تكون شريكي في هذه المهمّة. يمكنك أن توافق أو أن ترفض، ولكن ليس لديك سوى ربع ساعة لكي تتّخذ قرارك قبل أن أسحب عرضي.

نظر مارتن إلى تذكرة السفر: إنّها تذكرة ذهابٍ فقط إلى سان فرانسيسكو، بتاريخ بعد الغد. اختارت الفتاة الأسيوية أن تلجأ إلى علاقة القوّة: إنّه رهان من النوع الذي اعتادت على أن تربحه بكل

تأكيد، ولكن كان لدى الشرطي الشابّ أكثر من ورقة رابحة في جعبته.

مارتن: أريدُ أن أحصل على ترخيصٍ من مكتب التحقيقات الفيدرالي يتيح لي أن أحمل سلاحاً على الأراضي الأمريكية، مع إذنٍ خاصّ يخوّلني بأن أقبض على أرشيبالد ماكلين بنفسي.

الآنسة هُوْ: لا، هذا أمرٌ مستحيل.

مارتن: كلّ شيء قابل للتفاوض في ذلك البلد، إنّها نقطة قوّته ونقطة ضعفه في آنٍ واحدٍ، وأنتِ تعرفين ذلك أكثر منّي.

الأنسة هُوْ: هذا مستحيل.

مارتن: اسمعي، يمكنكِ تجنيد مكتب التحقيقات الفيدرالي، ودائرة الإيرادات الداخلية، وحتى الجيش الأمريكي، ولكنّك لن تتمكّني أبداً من توقيف أرشيبالد ما لم تعرفي من يكون حقاً، وأنتِ لا تعرفين شيئاً عن ماضيه ولا عن دوافعه. ليس لديكِ شيء متين لتستندي إليه، ولا عنصر جدّي واحد عن حياته. في حين أنني...

أخرج من جيبه كيساً صغيراً من البلاستيك الشفّاف، من النوع الذي يُستخدَم في جمع الأدلّة الجنائية. كان في داخله ملصق لقارورة شامبانيا.

مارتن: لدي ما لن تحصلي عليه أبداً عن أرشيبالد: إحدى بصماته.

نظرت إليه مشكّكة، فأوضح لها:

مارتن: لقد أرسل إليّ قارورة شامبانيا قبل ستّة أشهر. من باب الاستفزازِ أو اللعب ربّما. على أية حال، لقد ترك بصمةً واضحةً، بصمةٌ لم تُدرَج في أيّ ملفّ وأنا الوحيدُ الذي أعرفها. لقد سبق لي أن أجريتُ بحثاً على الملفّ المؤتمت للبصمات، ولكن يجب فعل

ذلك على نظام يوروداك (النظام الأوروبي لمقارنة البصمات) وعلى قاعدة بصمات مركز التحقيقات الفدرالي على وجه الخصوص.

مدّت يدها للحظة، وكأنها اعتقدت حقاً أنّ مارتن قد يعطيها الكيس، ثمّ نظرا في أعين بعضهما لبضع ثوانٍ، قبل أن يقترح الشرطي صفقة أخيرة.

مارتن: البصمة مقابل ترخيصٍ من المباحث الفيدرالية لأن أقوم بتوقيف أرشيبالد في الولايات المتّحدة بنفسي.

نهض عن الطاولة دون أن يلمس حلوى السوفليه بالشوكولاتة المرّة وقال، محذّراً:

- أنا لن أمنحكِ ربع ساعة للتفكير، وإنّما خمس دقائق فقط.

10

دوّامة الحياة

فانطلقنا كلانا
في دوّامة الحياة
واصلنا الدوران
وكلانا متعانقان
وكلانا متعانقان. . .

موسيقى جورج ديليريي
كلمات سيروس باسياك (سيرج ريزفاني)

برج إيفل
مطعم جول فيرن
الساعة العاشرة وثلاث دقائق ليلاً

توجّه مارتن برفقة رئيس النادلين إلى مخرج المطعم، ولكنّه مرّ أولاً أمام الأبواب الزجاجية الكبيرة التي تفصل بين الصالة والمطابخ. في هذا المكان الفاخر، لم يكن من المعتاد التعامل مع شخصٍ لا يلتزم بالأعراف المعمول بها، وبالتالي، وفي انتهاكٍ لكلّ القوانين، دخل إلى المنطقة المحظورة وفتح ثلّاجة المشروبات وأخذ عبوة كوكا كولا خالية من السكّر قبل أن يغادر الصالة.

نزل بالمصعد، ورفع سحاب معطفه، وأعاد وضع سمّاعاته: نفس موسيقى الراب الصاخبة والحادّة التي كان يستمع إليها في التسعينيات حين كان طالباً في الثانوية ثمّ في الجامعة، تلك التي أصبحت شهيرة على مرّ السنين: **سأضغط على الزناد، باريس تحت القنابل، ضع سلاحك**. . . كانت هذه الموسيقى موسيقاه: موسيقى طفلٍ من حيٍّ فقير في إيسون، موسيقى تطلق العنان لغضب ينفجر تارةً ويخبو تارةً أخرى. موسيقى شخصٍ لا مكان له في مطعمٍ لسائحين في شهر العسل على أية حال.

*

في ميدان شان-دو-مارس، كان الهواء شديد البرودة. فرك مارتن يديه ببعضهما ليتدفّأ وسار بضع خطوات على رصيف برانلي. ومنجذباً بشكلٍ لا يُقاوَم نحو النهر، توجه نحو جسر إينا الذي يربط برج إيفل بساحة تروكاديرو. هناك، على ضفاف السين، تاهت نظرته وسط رقصة القوارب والأضواء التي شعّت كاليراعات. ظلّت ندائف الثلج ترفرف في الهواء، ولكنّها استبدلت مظهرها القطني وغدت أشبه بمسحوق الكوكايين الناعم.

أخرج من جيبه تذكرة السفر التي حرص على ألا يتركها على طاولة المطعم.

سان فرانسيسكو. . .

لمجرّد ذكر اسم المدينة، سرت قشعريرة في جسده. انتابه شعورٌ متناقض، إذ شعر أوّلاً بالفتور الخادع للحنين، ثمّ اجتاحته موجة عاتية أرغمته على المقاومة بعزم لئلا يفقد السيطرة على نفسه.

من جديد، انتابه ذلك الشعور المؤلم بالفراغ الذي يرسم عميقاً تلك الأيام الأسطورية القليلة من ذلك الصيف، حماية ذراعي

غابرييل، المرّة الوحيدة التي شعر فيها بأنّه منصهر في كيانٍ واحد مع شخصٍ آخر.

لماذا الحبّ مخدّر شديد الإدمان؟

لماذا حين يحبّ المرء، يلحق على نفسه كل هذا العناء؟

أعادتهُ موسيقى منبعثة من أرغنٍ يدوي إلى الواقع للحظةٍ. تعرّف على لحن فيلم تروفو الجميل، وتذكّر عنوان الأغنية: **دوّامة الحياة**.

هذا صحيح، هكذا هي الحياة...

تارةً تكون دوّامةً تُذهلنا، مثل لعبة ركوب الأحصنة الدوّارة أثناء الطفولة.

وتكون تارةً أخرى دوّامة حبّ وثمالة، حين ننام أحدنا بين ذراعي الآخر في سريرٍ ضيّقٍ جدّاً ثمّ نتناول فطورنا عند منتصف النهار لأننا مارسنا الحبّ مطوّلاً.

وتكون تارةً أخرى دوّامة مدمّرة، إعصارٌ عنيف يحاول أن يسحبنا نحو القاع، فنُدركُ، ونحن محبوسين في قشرة جوزٍ وسط العاصفة، أننا سوف نكون لوحدنا في مواجهة الموجة.

وأننا نشعرُ بالخوف.

*

- مارتن!

سمع اسمه يُلفظ بلكنة إنجليزية: **مارتين**.

خلفه على بعد بضعة أمتار، أشارت إليه الآنسة هُوْ، مصحوبةً بغوريلاها، أن ينضمّ إليها.

كان واثقاً من أنّها سترضخ لطلباته وأنّه انتصر عليها.

الحقّ في مواصلة مطاردته لأرشيبالد في الولايات المتّحدة الأمريكية.

الحقّ في متابعة معركته ضدّ أكبر اللصوص: وهو الهدف الوحيد الذي وجده كي لا يغرق، وكي يعطي معنى لحياته.

والشيء الوحيد الذي يجعله لا يزال يعتقد أنّ لكلِّ امرئٍ مصيره في هذا العالم.

وأنّ مصيره هو إلقاء القبض على أرشيبالد ماكلين. إنه يقينٌ غير منطقي، ملتصق بجسده، يحمله في داخله منذ سنواتٍ.

وبوجود هذه البصمة التي رفعها عن قارورة الشمبانيا، بات مارتن متأكداً من أنّه سوف يحقق هدفه.

حتى وإن كان يعلم أيضاً أنّ هذه البصمة واضحة جدّاً، وسافرة جدّاً، وجليّة جدّاً بحيث لا شكّ له في كونها طعماً، فما كان لأرشيبالد أن يرتكب مثل هذا الخطأ.

هذه البصمة، لم يجدها هو بنفسه، وإنّما أرشيبالد من منحه إياها.

لأن قواعد اللعبة تغيّرت الآن: لم يعد هو من يُطارد أرشيبالد، وإنّما أرشيبالد هو من يحاول جذبه إليه.

ولكن لماذا؟

11

اليوم الذي سترحل فيه

لكن هذا ما هو الأكثر فظاعةً: يتمثل فنّ الحياة في أن نخفي عن أعزّ الناس الفرحة التي نشعر بها بوجودنا معهم، وإلاّ فسنخسرهم.

تشيزاري بافيزي

اليوم التالي، الثلاثاء 21 ديسمبر
مقرّ الشرطة القضائية في باريس
الساعة العاشرة وأربعين دقيقة صباحاً

شعر مارتن بالقشعريرة تسري في جسده وهو يقدّم طلب استقالته. استحضر ذكرى شبابه وهو يدخل للمرّة الأولى هذا المبنى الأسطوري الذي يقع على بُعد بضع خطوات من كاتدرائية نوتردام، ومقرّه 36 رصيف أورفيفر.

تذكّر نفسه وهو يسير في تلك الممرّات الضيّقة، وينزل سلالم تعود لقرنٍ مضى، ويبحث عن أشباح رجال شرطة أسطوريين تعاقبوا على هذا المكان العتيق، الصغير، غير الملائم لضغوطات عمل الشرطة المعاصرة، إلا أنّه حافظ على شحنة عاطفية قويّة لدى كلّ الذين عملوا فيه.

بين وحدة مكافحة المخدّرات والمكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية، أمضى عشر سنوات كمنزلٍ له. منزلٌ لم يعثر فيه على أسرة، ولكنّه منزلٌ صعب عليه مغادرته.

خرج من القلعة بعد نصف ساعة. كانت شمسٌ ذهبية تغمر بأشعّتها أرصفة ضفاف نهر السين. كان قد سلّم شارته الاسمية، وبطاقته، ومسدّسه، وزوج الأغلال.

شعر بنفسه عارياً، وخالجه شعورٌ هو مزيجٌ من الإحباط والارتياح. وهكذا، هو لم يعد شرطياً.

سيتوجب عليه أن يعتاد على ذلك...

*

دار المراهقين

شارع بور-رويال

الساعة الثالثة والنصف عصراً

من الشارع، كانت دار سولين أشبه بباخرة زجاجية بذراعيها الممدودتين نحو المدينة، كما لو أنّها تدعو إلى الدخول. عَبَر مارتن باحة مخضوضرة وسلك ممرّات حديقة صغيرة تؤدي إلى مبنى المستشفى. كان يأتي إلى هنا مرّة في الأسبوع منذ ثلاث سنوات.

كانت ردهة المستشفى واسعة ومضاءة. 600 مترٍ مربّعٍ يغمرها الضوء، مع أرضية مغطّاة بطبقة من الخشب فاتح اللون، وسقفٍ عالٍ تتدلّى منه لوحات إعلانية كبيرة تظهر معاناة المراهقين.

كان مارتن يشعر بالراحة على نحوٍ غريبٍ في هذا المكان الذي لا يوحي إطلاقاً بأنه مستشفى: فالمساحات الواسعة والواجهات الشفّافة تماماً والبيئة الطبيعية تنفي تماماً كلّ شعورٍ بالانعزال.

صعد مباشرةً إلى الطابق الثالث، وهو الطابق الخاص بالرعاية

الثقافية والذي توجد فيه مكتبة متعددة الوسائط، ومطبخ، وصالة للرقص وللموسيقى، واستديو إذاعي...

لم يكن مارتن يؤمن بالكثير، ولكنّه كان يؤمن بالفضائل العلاجية للفنّ وللثقافة كوسيلة لترميم صورة الذات، وبقوّة الإبداع في تعافي النفوس.

مدّ برأسه عبر باب ورشة الرسم.

- صباح الخير، يا سونيا.

- مرحباً، يا مارتن، لقد أبكرتَ في المجيء! ردّت المرأة الشابّة ذات الصدرية البيضاء.

طبعت قبلةً على خدّه على نحوٍ ودّي وأشارت إليه أن يدخل الغرفة التي تعجّ بإبداعات النزلاء المرضى. وفي كلّ مرّة، كان مارتن ينبهر بقوّة هذه الأعمال: لوحات معذَّبة يُخيّم عليها ظلّ الموت، ملائكة معزِّية من الجبس، شياطين مدمِّرة، وقوالب مصبوبة لأجسادٍ نحيلة لمريضات شابات فاقدات للشهية عند دخولهن المستشفى، ثمّ الأجساد نفسها بعد ستّة أشهرٍ وقد استعادت صحتها ووزنها. في هذه الصالة، بدا الملاك والشيطان يتواجهان في معركةٍ محتدمة نتيجتها غير مؤكّدة.

كما في كلِّ حياةٍ...

- هيّا، يا مارتن، ساعدني في نقل مساند الطاولات، هل تريدُ ذلك؟

استجاب مارتن لهذا الطلب بحماسة، وهو يستفسر:

- هل خرجتْ من فحصها الطبّي؟

- نعم، لقد أخبرتُها بأنّك ستنضمّ إليها في الأعلى.

- هل ترافقينني؟

- مارتن، أنت قادرٌ على ذلك!

- لديّ شيءٌ لأخبركِ به، يا سونيا...

سارت في إثره عبر الممرّ، وبينما كان ينتظر المصعد، ألقت عليه تحدّياً.

- سوف نسلك السلّم، أيّها الكسول! ومن يصل آخِراً يدعو الآخر إلى المطعم.

وحتى قبل أن تنهي جملتها، انطلقت راكضةً وهي تصعد دفعةً واحدة كلّ أربع درجات من السلّم المؤدّي إلى السطح.

لحق بها مارتن بشقّ الأنفس وثبّتها على الجدار.

- يجب أن أخبركِ بشيءٍ.

- بأنّك تحبّني؟ ولكن هذا مستحيل، فأنت تعرف بأنّ لديّ حبيباً...

- كوني جدّية بعض الشيء، قال وهو يخفّف من قبضته.

- ما الذي تُريدُ أن تخبرني به؟ بأنّك سترحل؟ لا ينبغي أن تُخبرني أنا بذلك، وإنّما هي، كاميل...

*

كان مارتن قد التقى بالطبيبة سونيا حاجب، رئيسة الأطباء المقيمين والأخصّائية بالطب النفسي للأطفال قبل ثلاث سنوات، حين أتت إلى مكتبه في مقرّ المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية.

كانت امرأةً نحيلة وذات مظهرٍ شبابي، لها شعرٌ أسودٌ فاحم مربوطٍ إلى الخلف برباطٍ مطّاطي، بالكاد تكبره سنّاً، وترتدي بنطال

جينز وسترة جلدية، تعيش في سان دوني، وأصبحت بمثابة أخته التي لم تلدها أمّه.

في عملها، كانت تحارب كلّ يومٍ فقدان الشهية، والشره المرضي، والاكتئاب، والسلوكيات المدمّرة التي تقود المراهقين إلى الانتحار.

منذ كلماتها الأولى، أحسّ أنّ سونيا امرأة طيّبة.

- ما أنا بصدد الكشف عنه ممنوعٌ تماماً بموجب القانون وبأصول مهنتي.

وقد أحبّ هذه الافتتاحية التي أوحت بشخصية قويّة وعزيمة راسخة.

- ولكي أكون صريحةً معكَ تماماً، أنا أجازف بوظيفتي...

- ولماذا تفعلين ذلك، إذاً؟

- لأنني أعتقد أنّ من شأنه أن يساعد فتاةً صغيرة في أن تصبح أفضل حالاً.

قطّب مارتن حاجبيه. لم يفهم كيف يعنيه هذا الأمر.

- هل تذكر كاميل؟

هزّ مارتن كتفيه.

- أعرف كثيرات اسمهنّ كاميل.

- نساء، ربّما، يا كازانوفا، ولكن ليست فتيات صغيرات في عمر الخامسة...

أغمض مارتن عينيه لنصف ثانية.

نصف ثانية شعر فيها بالأدرينالين يتدفّق في عروقه.

نصف ثانية عاد فيها كلّ شيء إلى ذاكرته على نحوٍ عنيف.

*

شتاء عام 2000.

حي لوت، في شمال بلدة جينيفيلييه.

أعمدة من العمارات مؤلّفة من عشرين طابقاً وبطول مئتي مترٍ.

مطرٌ ناعمٌ، كدِرٌ ورمادي اللون. لم تكن الساعة سوى الخامسة عصراً، ولكن بدا وكأنّ الليل قد هبط.

توقّفت سيارة البيجو 309 ذات اللون الأزرق الداكن أسفل البناية C فجأةً.

كان أحدَ رجال الشرطة الثلاثة اللذين سيقبضون على حبيبة تاجر مخدّرات موقوف. دقّ الباب ونطق بالعبارات المعتادة. لم يتلقَّ جواباً. كسر أحدُ زملائه قفل الباب. دخل مارتن أوّلاً إلى الشقّة، ممسكاً بسلاحه.

وجدوا المرأة مستلقية على فرشةٍ، تعاني من الحمّى، متّسعة الحدقتين ومقطوعة الشرايين. بلّل مزيجٌ من الدم والبول ثوبها. كان بجانبها غليون مخدّرات يدوي الصنع: قارورة كوكا كولا بلاستيكية غُرز فيها أنبوب قلم بيك شفّاف بمثابة مصّاصة. اتّجه نحو منضدة سريرها بينما طُلبت لها سيارة إسعافٍ. أدرك أنّ الأوان قد فات. إنها ترحل، ترحل... حين وصلت سيارة خدمة المساعدة الطبية الطارئة، كانت قد رحلت.

لم يسفر تفتيش البيت عن اكتشاف الشيء الكثير: قرابة عشرة أصابع من الحشيش، والقليل من الكوكايين، وبعض حُبيبات الكيكرا المخدّرة.

يومٌ سيّئ.

العودة إلى مركز شرطة نانتير، والمعاملات الورقية،

والإجراءات التي ينبغي إتمامها، والرغبة في التقيّؤ، وفي البكاء، وفي الذهاب إلى مكانٍ آخر. العودة إلى المنزل، والنوم الذي يجافيه، والشعور بتفويت ما هو جوهري، والنظرة الأخيرة لتلك المرأة التي عادت لتسكن مخيلته...

ليلةٌ سيّئة.

نهض مارتن واستقلّ سيارته من جديد، وأسرع نحو الضاحية: الطريق الدائري السريع، سانت-أوان، جينيفيلييه، حيّ لوت. تجوّل لبعض الوقت في المجمع السكني سيراً على الأقدام، استجوب صغار الصبية المسندين ظهورهم إلى الجدران، ثمّ صعد إلى الشقّة. كان يبحث عن شيءٍ ما، لكنّه لا يعرف ما هو، ففتّش الغرفة، والمطبخ، والحمام. كان يبحث عن شيءٍ ما، فنزل وتوقّف في بيت الدرج، وفتّش صناديق البريد، والسقف المستعار للمصعد. كان يبحثُ عن شيءٍ ما... في الخارج، كان الليل، والبرد، وهذا المطر اللعين. كان يبحث عن شيءٍ ما، المرآب، السيارات، درّاجات السكوتر، الحاويات التي تفيض بالقمامة. كان يبحث عن شيءٍ ما... عن شخصٍ ما؟ صرخة؟ حدس لا يعرف من أين أتى؟ فتح أوّل حاوية وراح ينبش في داخلها. سرت قشعريرةٌ في جسده. إنّه هنا! هو يعلم أنّه هنا، حتى قبل أن يعثر عليه. في كيسٍ كبيرٍ لمتجرٍ: طفلٌ وليدٌ بالكاد يبلغ بضع ساعات من العمر، عارٍ تماماً، متجمّدٌ برداً، وقد لُفّ في سترةٍ ومنشفة حمّام. كان لا يزال يحمل قطعاً من المشيمة على رأسه. لم يعد يتنفّس. بلى، لا يزال يتنفّس! ربّما. لم يكلّف نفسه حتى عناء طلب سيارة إسعافٍ. لفّ الوليد الجديد في معطفه، ووضعه على المقعد المجاور له، وأطلق صفّارة الإنذار، ثم انطلق

مسرعاً نحو الشرق، باتجاه مستشفى أمبرواز-باريه. أدرك في الحال أنّ الدم الذي شاهده على ثوب المرأة لم يكن دم الشرايين المقطوعة للرسغين فقط، وإنّما دم نزيف بعد الولادة أيضاً. وبئس هؤلاء العاملين في خدمة المساعدة الطبية الطارئة الذين لم يدركوا ذلك حتى! اتّصل بالمستشفى ليُعلن عن قدومه، وألقى النظرات على الطفل الوليد. كانت بنتاً. على ما اعتقد، على الأقل. كان مرتعباً ومنبهراً في آنٍ واحدٍ بحجمها الصغير. ألّا يكون الحمل قد وصل إلى منتهاه، هذا أمرٌ بديهي، ولكن كم من الوقت ظلّت في بطن أمّها؟ سبعة أشهر؟ ثمانية أشهر؟

المستشفى. تولّي الرعاية الطبية. كان عليه أن يملأ بعض الاستمارات. اسم ولقب الطفلة الرضيعة؟ في البداية، لم يدرِ بماذا يُجيب. اضطرّ إلى أن يبذل جهداً لكي يتذكّر اسم الأمّ. وكاسم للطفلة، كان أوّل اسمٍ راود ذهنه هو كاميل. ثمّ انتظر ساعاتٍ طويلة، انتظارٌ لم يُفضِ إلى شيءٍ. عاد إلى المستشفى في اليوم التالي. كحالِ مدمني المخدّرات، كانت الطفلة تعاني من أعراض عنيفة لحرمانها من المخدّرات، وتخضع للفطام. كان عليه الانتظار. ولكن لماذا كانت الطفلة الرضيعة صغيرة إلى هذا الحد؟ لأنّ المخدّرات تتسبّب في انخفاض مستوى المحلول المغذّي للمشيمة والذي يُحدثُ تأخّراً في نمو الجنين. عاد في اليوم الثاني، كانت الطفلة الرضيعة تكافح من أجل البقاء على قيد الحياة. أراد لو أنّه يكافح معها. في اليوم الثالث، قيل له إنّ المرحلة الأعنف من الفطام قد مرّت، ولكن الطفلة تحمل فيروس نقص المناعة البشرية وأنها ستعاني من عواقبه على الأرجح، بل ومن تشوّهات ممكنة. في اليوم الرابع، لم يذهب إلى المستشفى

وأمضى قسطاً من الليل في حانة رخيصة، يشرب الفودكا. لأنّ كاميل كان الاسم المفضّل لدى غابرييل. الاسم الذي كانت تودّ أن تمنحه لابنتها. في اليوم الخامس، لم يذهب إلى العمل. في اليوم السادس، دفن هذه الذكرى في ذاكرته وامتنع عن التفكير بكاميل مجدّداً.

ثمّ مرّت السنوات.

وذات صباح، أتت سونيا حاجب إلى مكتبه...

*

كانت الشرفة البانورامية على سقف المستشفى قد حوّلت إلى حديقة مشجرة، فيها بعض الطاولات والكراسي من الخوص المجدول.

بدت فتاةٌ صغيرة في العاشرة من عمرها، بشعرٍ قصيرٍ وأنفٍ ناعمٍ ككلّ شيءٍ فيها، مأخوذةً بكتاب **حيّ بعيد**، لكاتب المانغا اليابانية جيرو تانيغوتشي.

- مرحباً، يا كاميل.

- مارتن!

رفعت عينيها عن كتابها وركضت لتعانقه. ضمّها بين ذراعيه وأدار بها حوله بأقصى سرعة، وفق طقسٍ كان قد اعتادا على الالتزام به.

قبل ثلاث سنوات، فيما كانت كاميل تعيش مرحلةً صعبة في حضن عائلتها بالتبنّي، كانت سونيا حاجب، الطبيبة المختصّة بالطبّ النفسي للأطفال، والتي تابعت حالتها منذ نعومة أظافرها، قد أخذت على عاتقها أن تُخبرها بالحقيقة حول ولادتها. وكانت كاميل قد ألحّت آنذاك على أن تلتقي ذلك الأخ الأكبر الغريب الذي أعادها

إلى الحياة. وكان لدى هذه اللقاءات السرية أثر إيجابي على الفتاة الصغيرة، مثبتةً بذلك صحّة رهان سونيا.

مهما حدث، كانا يلتقيان مرّة في الأسبوع، ودائماً في المكان نفسه، ودائماً في يوم الأربعاء.

كانت كاميل جميلة، مفعمة بالحيوية والصحّة. حين نظر إليها مارتن، رأى الحياة، والعافية، ورأى أيضاً الدليل على أنّ الحياة لا تنهال عليك بأشياء رديئة فحسب، بل تمنحك هدايا غير متوقعة أيضاً. اختفت مخاطر التشوّه! وتمّ احتواء فيروس نقص المناعة البشرية! كما تمّ تجنّب حياة محتّمة كضحية!

- مرحباً، الجوّ باردٌ جدّاً، ألا ترغبين في العودة إلى الداخل؟ قال مارتن وهو يفرك يديه ببعضهما.

- لا، أريدُ أن أستمتع بهذه الشمس الجميلة! كما أنني أحبّ البرد، إنّه يبثّ فينا الحيويّة!

جلس إلى جانبها وترك نظره يشرد بعيداً، في شساعة أسطح باريس.

- ما رأيكِ بهذه القصّة المصوّرة؟

- إنّها رائعة! شكراً لك لأنّك نصحتني بقراءتها، أجابت كاميل بحماسةٍ.

- على الرحب والسعّة، ردّ مارتن بالإنجليزية.

فتح حقيبته الظهرية وأخرج منها جهاز الآيبود الصغير بلونه الأخضر التفاحي الذي قدّمه لها هدية قبل بضعة أشهر.

- هاكِ، لقد ملأته لكِ بالموسيقى الجميلة: مارفن غاي، فرقة ذا كيور، فرقة يو تو، جاك بريل...

- أنا أحبّ بيونسي وبريتني سبيرز!

- ولماذا لا تحبّين فرقة سبايس جيرلز أيضاً؟

قرّب كرسيّه منها وتحدّث بنبرة جدّية:

- حسناً، يجب أن نتحدّث، نحن الاثنين...

حدّقت فيه بإمعانٍ، وقد شعرت بأنّ خطراً يُحدقُ بالتوازن الهشّ الذي استقرّت عليه حياتها.

- هل سبق أن سمعتِ القول المأثور: **بعيدٌ عن العين، بعيدٌ عن القلب؟**

هزّت رأسها.

في حين كان يشرحُ لها أنّ هذه العبارة لن تنطبق عليهما أبداً، عَبَرَ ملاكُ النورَ ولامس بجناحيه آخرَ أشعّة شمس الشتاء.

12

دعني أذرف دمعةً

يجب أن نحافظ على ضعفنا لأنّه يقرّبنا بعضنا من بعض، في حين أنّ القوّة تبعدنا بعضنا عن بعض.

جان-كلود كاريير

جادة كليبر

انطلقت الدرّاجة النارية وسط الظلام.

ساحة النجمة

مسح مارتن المطر الذي يسيل على زجاجة خوذته.

كان لديه شيء أخير ليقوم به قبل أن يغادر فرنسا.

جادة فاغرام

شخص أخير ليراه.

امرأة.

مجدداً...

*

كانت المرّة الأولى التي التقى فيها نيكو مساءَ يوم أسبوع، حين وقف في طابور صندوق المحاسبة في متجر كارفور ببلدة أوليس.

كان مارتن هناك بمحض الصدفة: كان جدّاه يعيشان الآن في دارٍ للمسنّين تقع في بلدة بور-سور-إيفيت. لم يكن مارتن في وئام معهما حقاً، ولكنّه حرص على زيارتهما مرّة في الشهر، ليصغي إلى سلسلة من المعاتبات عامةً. لدى عودته من هناك، توقّف في السوق التجارية واشترى بعض الحاجيات: سباغيتي بالبيستو، عبوة من الحليب المركّز، كوكا كولا خالية من السكّر، رواية مايكل كونيلي الجديدة، الموسم الأخير من مسلسل **ستّ أقدام تحت الأرض**...

كانت المرأة الشابة أمامه ملفتة للنظر: كانت طويلة القامة، شقراء، بوجهٍ جميلٍ ونظرةٍ ودودة. وقد لاحظ لكنتها السلافية حين تبادلت بضع كلمات مع أمينة الصندوق، كما لمح في عينيها نجوماً ذابلة ولكنّها ساحرة رغم ذلك، ذكّرته بعينين براقتين أخريين.

دفعت المرأة الشابة فاتورة مشترياتها ثمّ ابتعدت مسرعةً. وكي لا تغيب عن أنظاره، ترك مارتن أغراضه على الحزام الناقل ولحق بها في أروقة المتجر، مدفوعاً بحافزٍ مفاجئٍ وغير متوقع.

- يا آنسة!

حين استدارت، فكّر في طائر نحام وردي أمام صيّادٍ. أراد أن يقول لها: «لا تخافي» ولكن بدل ذلك، أخرج بطاقته، وقال:

- شرطة، مراقبة الهويات! أوراقكِ الثبوتية من فضلك.

*

بعدها بنصف ساعة، كانت في سيارته. أوصلها إلى أمام عمارتها في مجمع سكني لا دونيير حيث تقيم في شقّة بالتشارك مع صديقةٍ لها. كان اسمها سفيتلانا، ولكن كان الجميع ينادونها بنيكو، بسبب شبهها بمغنّية فرقة ذا فيلفيت أندرغراوند. كانت تحمل شهادة الماجستير في تاريخ الفنّ لم تنفعها في الشيء الكثير، وكانت قد

غادرت كييف إلى موسكو حيث عاشت على الكفاف من خلال عملها كعارضة أزياء في وكالة صغيرة، إلى أن لوّح لها وكيل أعمالها بمستقبلٍ زاهر في الغرب.

فردوسٌ خادع كان قد أرغمها على أن تتاجر بالحبّ على الطرقات، وهي تحطّ من قيمة نفسها كلّ يوم على نحوٍ أكثر.

كان قد ذهب إلى حدّ أن سألها عن الأسعار التي تتقاضاها. لم تخجل من ذلك وأجابته دون أن يرفّ لها جفن: من 50 إلى 200 يورو، حسب المتعة التي يختارها الزبون. فناولها 200 يورو وأمرها:

- أُغْمِضي عينيكِ واستسلمي لما أشاء.

- هكذا... في السيارة؟

- نعم.

*

أغمضت عينيها: أدار محرّك السيارة ووضع أسطوانة يعشقها، حيث غنّت إيلا فيتزجيرالد في ثنائي مع لويس أرمسترونغ، قبل أن يسلك الطريق الوطني 118 نحو باريس.

لم تكن تتوقّع ذلك، ولكنّها استسلمت له، تاركةً عينيها مغمضتين طيلة الرحلة، يهدهدها صوت إيلا ولويس.

بعد مضي نصف ساعة، كانا في الأعالي في العجلة الدوّارة الضخمة لميدان الكونكورد. احتاجت إلى بعض الوقت لكي تسترخي، بيد أنّها لم تكن مطمئنّة تماماً مع ذلك، ولكنّ الحياة كانت قد علّمتها أنّ الأشياء الرائعة تكمن في الحظة الراهنة.

انبهَرَت نيكو مثل طفلة أمام تراقص أضواء المصابيح التي

أضاءت جادة الشانزيليزيه. وحين بلغت مقصورتُهما القمّة الأعلى، أرجعت رأسها إلى الخلف، مثل أضحيةً. نظر إليها مارتن: في عينيها، كان وابل النجوم يختلط بالستارة المتلألئة للأضواء.

أخذها بعد ذلك لكي تتناول الرافيولي بالفطر والبيسكوتي بالذرة في مطعمٍ صغيرٍ في شارع باسانو.

ثمّ عاد بها إلى أوليس، في أسفل بنايتها.

ثمّ سرت يدُ نيكو على طول ساقه وداعبت ركبته، وفخذه، و...

- لا، قال ببساطة وهو يضع يده على يدها.

خرجت سفيتلانا من السيارة ونظرت إليه وهو يبتعد.

كانت سعيدة وتعيسة في آنٍ واحدٍ.

*

تقابلا في الأسبوع التالي، ثمّ تتالت لقاءاتهما بشكلٍ منتظم خلال سنة كاملة. ودائماً بتعرفة 200 يورو ذاتها: كان ذلك الضمانَ بالنسبة إليه بأن لا يقع في حبها، والضمانَ بالنسبة إليها ألا تعيش في الوهم.

لقد عقد العزم على أن يقدّم لها منفذاً منتظماً لواقعها القذر: ممارسة مهنتها في السيارات والفنادق الرخيصة، واللجوء إلى الكوكايين والهيروين كعكازات قاتلة، والشعور بأنّها سجينة ولا تسيطر على شيءٍ في حياتها.

كان يتذكّر كلّ سهرةٍ من سهراتهما: حلبة التزلّج في الهواء الطلق في فناء مبني البلدية، وسيرك بوغليوني الشتوي، وحفلة الشرطة في ستاد دو فرانس، ومعرض بيكاسو وكوربيه في قاعة عرض القصر الكبير، ومسرحية **الحياة أمامك** في مسرح ماريني...

احتفظ في هاتفه بكلّ رسائلها البريدية التي تلقّاها في اليوم التالي لكلّ سهرة، والتي لم يردّ عليها أبداً.

مثل أبلهٍ. . .

*

من: svetlana.shaparova@hotmail.fr

الموضوع: الحياة لا تستحقّ أن تُعاش ...

التاريخ: 12 فبراير 2008 – 08:03

إلى: martin.beaumont1974@gmail.com

كان الطقس بارداً. استقلتُ الميترو لكي أذهب إلى «عملي»، فسحبتُ حقيبتي الصغيرة ذات العجلات بيدٍ، وأنا أضمّ على صدري الكتاب الذي أهديتني إياه. في أذنيّ، تلك الأغنية لسيرج غينسبور التي جعلتَني أكتشفها، أغنية تزعم أنّ **الحياة لا تستحقّ أن تُعاش من دون حبّ...**

شكراً على عشاء البارحة الساحر في ذلك المطعم فوق المسرح بجادة مونتين. الإطلالة على باريس لبضع لحظات، والتحليق فوق العالم، ومشاركتك قطعة من الحياة، والابتسامة تعلو وجهي من كثرة الاهتمام. حتى التعب عرف كيف يبقى بعيداً. كنتُ مستمتعة. كنتُ مستمتعة.

شكراً، شكراً، شكراً! لستُ نادمة على الماكدونالدز.

أنا لك

سندريلاتك

*

شارع ماليزيرب

انطلت الدرّاجة الناريّة على الأرض المبلّلة، وتجاوزت جادة بيرتييه والطريق السريع.

جادة بورت داسنيير

أبطأ مارتن السرعة ورفع زجاج خوذته.

شارع فيكتور هوغو

دار نصف دورة على الميدان المركزي.

كانت ثلاث فتيات من أوروبا الشرقية ينتظرن الزبون تحت المطر، بالقرب من لوحة إعلانات. اقترب من المجموعة، وأبطأ سرعة الدرّاجة. اعتقدنه زبوناً في البداية، ثمّ تعرفت إليه سفيتلانا. ناولها خوذته وأشار إليها أن تركب خلفه. كانت ترتعش، نحيلة وعيناها فارغتان وغائرتان. كان يعلم أنّها تعاني من قلّة النوم، وأنّها تصرف القسم الأكبر من نقودها على المخدّرات الآن.

- تعالي!

هزّت رأسها، وابتعدت. ارتابت مما يدور في ذهنه وخافت. خافت من الأعمال الانتقامية العنيفة لشبكة المافيا التي وضعتها على الرصيف، ومن الضغوطات التي يمارسها هؤلاء الرجال على أسرتها التي بقيت في البلاد.

ولكن لا يمكن للمرء أن يقضي حياته خائفاً.

فأمسك بها مارتن على الرصيف. كانت على درجة كبيرة من الضعف بحيث تخلّت سريعاً عن كلّ مقاومة. أمسك بها من كتفيها، وحملها حتى وصل إلى الدرّاجة النارية وهو يعدها:

- ستكون الأمور على ما يُرام، ستكون الأمور على ما يُرام.

*

بعد ساعةٍ، كانا في مونبارناس، في فندقٍ هادئٍ بشارع الأب غريغوار. استحمّت سريعاً وفركها بمنشفة الحمّام ليدفّئها. تحت تأثير حرمانها من المخدّرات، تقلّصت حدقتا عينيها وكانت ترتعش وتتشنّج. لاحظ ذراعيها المخدوشتين إلى حدّ الإدماء من كثرة الحكّ، وسمع بطنها يقرقر.

قبل أن تذهب إلى الحمّام، جعلها تأخذ ثلاث ملاعق من الميثادون لإبطاء ظهور أعراض الفطام. شرحت له سونيا أنّ المفعول المهدّئ للدواء سيظهر بعد ثلاثين إلى ستين دقيقة. وبانتظار ذلك، ساعدها على أن تلفّ نفسها باللحاف وأمسك بيدها بقوّة إلى أن أحسّ بأولى علامات الارتياح.

*

- لماذا، يا مارتن؟ سألت بلكنتها السلافية.

مستلقيةً على السرير، بدت مسترخيةً، شبه هادئة. كان هذا الهدوء اصطناعياً وكيميائياً طبعاً، ولكن كانت هذه الخطوة الأولى على الطريق.

- لا يمكنك التخلص من هذا الواقع لوحدكِ.

- ولكنّهم سيعثرون عليّ...

- كلا.

نهض وأمسك بحقيبته الظهرية الجلدية، وأخرج منها جواز سفرٍ مستعمل.

- إنّه يبدو حقيقياً أكثر من جواز حقيقي، أوضح لها وهو يفتحه على الصفحة الأولى. من الآن فصاعداً، لم يعد اسمكِ سفيتلانا، وإنّما تاتيانا. لم تولَدي في كييف، وإنّما في سان بطرسبورغ.

كان قد كرّس يومه الأخير في العمل في الشرطة لهذا الأمر: أن يؤمِّن لها هويّة جديدة.

- هناك أمرٌ ثانٍ، قال وهو يضع تذكرة سفرٍ على السرير. غداً صباحاً، سوف تغادرين إلى جنيف، إلى مستشفى جان دارك. سوف يجعلونكِ تقفين على قدميكِ من جديد، سترين ذلك.

- ولكن كيف؟...

- لقد دُفِعت كلّ التكاليف، قال، مستبقاً سؤالها.

ما لم يعترف لها به هو أنّه غطّى هذه المصاريف براتبه التقاعدي الذي كان قد سحبه بالكامل بعد ظهيرة ذلك اليوم.

ثمّ أعطاها بطاقة التعريف للدكتورة سونيا حاجب، وقال لها:

- في حال حدوث أيّ مشكلة، اتّصلي بهذا الرقم. إنّها امرأة، وهي طبيبة نفسية وصديقة: إنّها تعلم من تكونين وهي مستعدّة لأن تساعدكِ.

في تلك اللحظة، اغرورقت عينا سفيتلانا بالدموع، دموع تغسل وتريح، وتحيي نظرةً كان يُعتَقَدُ أنّها انطفأت إلى الأبد.

- مارتن... لماذا تفعل كلّ هذا من أجلي؟

وضع إصبعاً على فمها ليفهمها أنّ بعض الأسئلة لا جواب لها، وقال لها إنّ الوقت قد تأخّر وإنّ عليها أن تنام الآن.

استلقى إلى جانبها وأمسك بيدها بانتظار أن يغلبها النوم.

*

منتصف الليل، في مجمعٍ سكني اجتماعي في إيسون.

شقّة صغيرة، كلّ المصابيح فيها مطفأة.

فوق جرس الباب، اسمٌ يبدو سلافياً.

في داخل الشقّة، كلُّ شيء رمادي وكئيب.

في الغرفة، على إحدى الرفوف، بعض الكتب التي كان قد نصحها بقراءتها، وجهازُ موسيقى مع الأغاني التي كان قد طلب منها الاستماع إليها.

على الجدار، ملصقاتُ لأفلامٍ كانا قد ذهبا لمشاهدتها في تلك السنة، **عاشقان، نحن نملك الليل، إلى البرية**.

تحت السرير، صندوق موسيقى جميل.

حين نفتح الصندوق، يملأُ لحنٌ تقليدي الغرفة بالحنين.

في الصندوق، بعض الأوراق وصور مصفرّة لطفولةٍ أوكرانية.

حصى صغيرة...

في قاع الصندوق، مغلّفٌ.

في المغلّف، أوراقٌ نقدية. كلّ النقود التي أعطاها إياها في كلّ مواعدة بينهما. لم تكن قد مدّت يدها إليها قط، ولم تصرف منها يوروًاً واحداً، حتى في أسوأ اللحظات، حتى حين كانت مستعدة لأن تفعل أيّ شيء من أجل شراء القليل من الهروين.

حصى صغيرة، أدلّة على أنّ شيئاً ما قد حدث بينهما، في تلك السنة، حين دخل إلى حياتها لبضعة أشهر.

ودخلت هي
إلى حياته،
ولو قليلاً.

13

الجزء المفقود

يوماً بعد يوم
قصص الحبّ الميّتة
لا تنفك تموت.

سيرج غينسبور

هي
سان فرانسيسكو
الساعة السابعة صباحاً

بزغت أولى خيوط الشمس. أحسّت بطعم الملوحةِ في فمها، وبرأسها ثقيلاً، وجسدها منهكاً، وقلبها تائهاً.

نهضت غابرييل دون ضجيج كي لا توقظ الرجل النائم إلى جانبها: **السيّد أحمق**، الذي كانت قد نسيت حتى اسمه والذي لن تراه بعد ذلك أبداً. **السيّد أحمق** وسيارته رباعية الدفع الصديقة للبيئة، ووظيفته في مجال التكنولوجيا المتقدّمة، وشقّته المقابلة للبحر.

لملمت أغراضها وارتدت ثيابها في الحمّام على عجلٍ: بنطال جينز كاشف اللون، وكنزة سوداء طويلة العنق، وسترة من الجلد الصقيل، وحذاء طويل الساق وعالي الكعب.

أخذت قارورة مياه معدنية صغيرة من ثلّاجة المطبخ. استبدّت بها الرغبة في تدخين سيجارة وفي الإحساس بقرصٍ الليكسوميل المهدّئ تحت لسانها لكي تُسكِتَ هذا الفراغ الذي ينهش بطنها وهذه الوحدة التي تُطاردها منذ طفولتها.

لاطفت أشعّة الشمس الواجهة المزجّجة المفتوحة على الميناء البحري، وعلى المحيط الهادئ وجزيرة ألكاتراز. غادرت المنزل تحت الضوء الناشئ وعبرت الشريط المعشوشب الطويل. هبّت الرياح وحملت معها صوت مزامير المراكب.

تقدّمت على الشاطئ، وخلعت حذاءها وسارت بضع خطوات بمحاذاة الأمواج. كان الرمل فاتراً. داعبت جسيماتٌ متوهّجة شعرها. من بعيد، بدت كما لو أنّها ترقص على الشاطئ، وأنّها سعيدة.

بيد أنّ قلبها الممزّق لم يكن سوى صحراء من الجليد.

في ذلك الصباح، حلّ عيد ميلادها الثالث والثلاثون، وككلّ سنّة في هذا التاريخ، وجدت نفسها وحيدةً أمام نفسها.

وحيدةٌ للغاية.

أغمضت عينيها، فتحت ذراعيها واسعاً، وقدّمت وجهها لهبّات الريح ولنسيم البحر. كانت تعرف أنّها في حالٍ سيّئة.

لماذا تركتُ يدكَ؟

شعرت بالفراغ يبتلعها وبأنّها تتراقص كاللهب. فقاومت. لا يجب أن تنطفئ. لا يجب أن تسقط. لأنّه إذا سقطت، لن ينتشلها أحدٌ قبل أن تُسحَق.

*

هو

باريس

الساعة الواحدة صباحاً

كانت غرفة الفندق غارقةً في الظلام الحالك.

استلقى مارتن على السرير متصالب الذراعين ومفتوح العينين. كانت سفيتلانا نائمة إلى جانبه. هو يعلم أنّه لن تُغمَضَ له عينٌ طيلة الليل: لم يكن النعاس ديدنه. نهض دون ضجيجٍ، وانحنى عليها ورفع الغطاء ليغطي كتفها النحيل. ارتدى سترته، وأطفأ النور، وغادر الغرفة.

في المصعد، شعر بضيقٍ شديد، وكأنّ هاويةً قد فُتِحت فجأةً. شعور بالفقدان عجزَ عن تحديده. حزنٌ بلا قاع يتّخذ شكل كرةٍ في بطنه.

عَبَرَ الحواف الذهبية للبهو، وحيّا موظف الاستقبال وخرج إلى الشارع.

كان المطر لا يزال يهطل.

امتطى درّاجته النارية، ضغط على مكبس الوقود وانطلق بصخبٍ وسط الظلام.

في مهنته كرجل شرطة، غالباً ما لعب بالنار واحترق بها أحياناً. شعر هذا المساء بأنّه لا يُقهر وبأنّه في غاية الضعف في آنٍ واحدٍ، وبأنّه ممزّق بين رغباتٍ متناقضة، مثل بهلوانٍ يسير على خيطٍ ممدودٍ بين قمّتين صخريتين.

واصلت الكرة ضغطها على بطنه، واعتقد ذلك تعبيراً للغضب الذي يغلي في داخله.

لم يكن يعرف بعد أنّه الحبّ.

*

هي

سان فرانسيسكو

الساعة السابعة والنصف صباحاً

أيقظ نباحُ كلبٍ غابرييل من غفوتها. فتحت عينيها والتقطت أنفاسها. على الشاطئ، نبحَ كلبٌ من فصيلة لابرادور ذو وبرٍ كاشف اللون حولها وهو يجسّها بخطمه. داعبته ولعبت معه بضع دقائق.

ثمّ عادت إلى أرصفة الميناء حيث تعاقبت المنازل الجميلة الواقعة على شاطئ المحيط. تعرّفت على سيارتها من بعيد: سيارة مكشوفة من طراز موستانغ موديل 1968، لونها أحمر غامق، كانت لوالدتها. سيارة غير صديقة للبيئة، تعود إلى مرحلة ما قبل الأزمة النفطية والاحتباس الحراري، ما بدا أمراً شاذاً في أزمنة الحفاظ على البيئة هذه. ومع ذلك، كانت ترى فيها جاذبية خالدة وتستمتع بقيادتها.

أدارت محرّك السيّارة وأقلعت بها وسارت على طول مارينا بولفارد وريدوود هاي واي قبل أن تسلك جسر البوابة الذهبية.

كانت تعشق هذا الجسر المعلّق الذي تسلكه كلّ يوم. تحبّ لونه الأحمر المائل إلى البرتقالي، وبرجيه الضخمين اللذين يبدوان وكأنّهما ذاهبان لغزو السماء، وكانت فخورة به ككلّ سكان المدينة.

بعد أن هدأت روحها وصفا ذهنها، وضعت أسطوانة لمغني الروك لو ريد في قارئة الأسطوانات ورفعت الصوت عند أغنية **المشي على الجانب البري**.

تطاير شعرها بالهواء، وشعرت بنفسها وكأنّها تحلّق فوق البحر،

وتصعد نحو السماء، وتلامس الضياء. ثم عاودها الألم فجأةً وشعرت بالفراغ يزحف إلى جوفها من جديد.

وبدل أن تخفّف من السرعة، زادت منها.

إذا أنهيتُ حياتي، لن يشتاق إليّ أحدٌ.

*

هو

باريس

الساعة الواحدة والنصف صباحاً

واضعاً سمّاعات الآيبود في أذنيه، والرياح تخدش وجهه، عَبَرَ مارتن بسرعة ستار الأمطار المنهمرة بقوّة على الطريق الدائري السريع، الزلق مثل حلبة التزلّج. مرّ بمحطّات المترو بورت دو فانسين، ثمّ بورت دو بانيوليه، وصولاً إلى بورت دو بنتان.

ومضت المئات من الأضواء أمام عينيه، ودارت حوله، مشوّشة رؤيته. في السماعات الرأسية لجهازه، كان جاك بريل يغنّي البحث عن نجمةٍ لا يمكن الوصول إليها، والحبّ المجنون لعشّاق مسنّين، **عاهرات أمستردام أو هامبورغ أو مدينة أخرى.**

زاد من سرعته وانسلّ بين السيارات، وخمّن العقبات أكثر مما أنه رآها. محموماً ومبلّلاً بالمطر الفاتر، استسلم للطريق كما لو أنّه في حالة سُكر.

زاد من سرعته أكثر، وعرّض نفسه للخطر، وراح يستفزّ القدر، كما لو أنّه لم يعد خلف المقود، كما لو أنّه يطلبُ من يدٍ غير مرئية أن تقوده نحو شيءٍ ما أو أحدٍ ما...

*

هما

مركبتان سريعتان تندفع إحداهما نحو الأخرى، يفصل بينهما محيطٌ.

نجمتان مضيئتان سوف تصطدمان ببعضهما.

لمُّ شملٍ مؤجّل منذ زمنٍ طويلٍ.

لمُّ شملٍ محفوف بالمخاطر.

لأنّ الحبّ والحتف لا يفرّق بينهما سوى بضعة أحرف.

الجزء الثاني

شوارع سان فرانسيسكو

14

فالنتين

إن أحبّ اثنان بعضهما، فلن يكون لذلك نهاية سعيدة.

إرنست همنغواي

في اليوم التالي
22 ديسمبر
فوق المحيط الأطلسي

- القليل من الشمبانيا، يا سيّدي؟

على ارتفاع أكثر من ألف قدم عن سطح الأرض، واصلت طائرة الرحلة رقم 714 طريقها نحو سان فرانسيسكو، تحلّق مثل طائرٍ فضّيٍ فوق بحر السُحب.

رفض مارتن عرض المُضيفة. كان ركاب الدرجة الأولى من حوله يأكلون بشهيّة وجبتهم من كبد الإوزّ بالتين على شرائحٍ من خبز الزنجبيل. وكانت الآنسة هُوْ على يساره لا تزال برفقة حارسها مصارع السومو، تشرب جرعات صغيرة من المارتيني بيانكو.

- لقد كنتَ على حقٍّ، اعترفت له وهي تخرج مغلّفاً من الورق المقوّى من حقيبتها.

نظر مارتن إلى المغلّف. كان يحمل أحرف مكتب التحقيقات الفدرالي إف بي آي، تليها عبارة **سرّي للغاية**.

- هل حصلتِ على نتائج تحليل بصمات أرشيبالد؟

أومأت برأسها وحثّته على الاطلاع على الملفّ.

- أقدّم إليكَ جوزيف أ. بلاكويل، المُعتَقَل في سجن سان كانتان لغاية عام 1981، تحت الرقم IB070779.

وهو يتأمل حزمة الوثائق الموضوعة أمامه، شعر مارتن بقشعريرة من الإثارة تسري في عموده الفقري. قرّر أن يفتح المغلّف ولمع وميضٌ في عينيه.

*

كانت الصورة قد التُقِطَت في مركز شرطة سان فرانسيسكو أثناء توقيف شخصٍ يُدعى جوزيف أرشيبالد بلاكويل، في ليلة 23 إلى 24 ديسمبر 1975، بتهمة التسبّب «بجروح خطيرة قد تؤدي إلى الموت». أظهرت الصورة الشخصية بالأسود والأبيض رجلاً يقارب الثلاثين من العمر، حول عينيه هالاتٌ سوداء، ومنهك بالألم.

لخّصت نبذةٌ موجزة سيرةَ المشتبه به.

كان قد ولِدَ في حيّ فاونتنبريدج، وهو حي شعبي في إدنبرة، من أمٍّ تعمل خيّاطة، وأبٍ رسّام لم يبع لوحة فنّية واحدة في حياته. كان تلميذاً موهوباً ولكنّه طائش، ترك المدرسة في سنّ الرابعة عشرة ليعمل في عددٍ من المهن المتواضعة: بنّاء، ميكانيكي، مدهّن توابيت، موظف في مدرسة الفنون الجميلة في إدنبرة.

حينما بلغ العشرين من عمره، انضمّ إلى القوات الجوية الملكية كميكانيكي بسيط، ولكنّه نجح في نيل شهادةٍ كطيّار. وبعد مضي

خمس سنوات، أصبح طيّاراً يعمل لصالح جمعية الأطبّاء الطيّارين، المكلّفين بإجلاء المصابين في وسط أستراليا. وأظهرته صورٌ عديدة من تلك الفترة بوجهٍ مسفوعٍ بالشمس، بالقرب من طائرة سيسنا قديمة، وسط جفاف الأدغال الأسترالية.

كما كانت هناك سلسلة أخرى من الصور تشهد على انخراطه في مختلف المهمّات الإنسانية ضمن جمعية أخرى، أجنحة الأمل، وهي جمعية معنية بمساعدة الأطفال الذين بحاجة إلى الرعاية الصحية العاجلة في بيافرا، وبالإجلاء الطبّي للاجئين، وإيصال الأدوية إلى نيكاراغوا، ونقل فرق الإنقاذ إلى صقلية بعد أن ضربها زلزالٌ. . . وهي كلها جسور جوية حاملة للأمل، بضع قطرات من الماء على مجمرةٍ. بضع قطراتٍ من الماء لم تغيّر شيئاً. بضعُ قطراتٍ من الماء غيّرت كلّ شيء. . .

ذُهِل مارتن بكلّ صورة رآها. فقد تبيّن له أنّ من أصبح لصّاً كان في شبابه رائداً من روّاد العمل الإنساني، محارباً منفرداً ذا وجهٍ مسفوعٍ تشي نظرته القاسية بالكآبة، والتمرّد، والافتقار إلى الحبّ.

كانت الصورتان الأخيرتان تتناقضان مع الصور الأخرى. في الصورة الأولى، يظهرُ أرشيبالد وهو يحتضن فتاةً على شاطئٍ رملي. وخلفهما، بحرٌ أزرق غامق، وجبالٌ مكسوّة بالثلج وأسوار مدينة محصّنة يعرفها مارتن جيّداً.

أثارت الصورة فضول الشرطي السابق، فقلبها، ورأى على ظهرها عبارة مكتوبة بقلم حبرٍ - **آنتيب، يناير 1974** - تليها رسالةً باللغة الفرنسية:

ابقِني بقربك.

إلى الأبد.

أحبّك.

فالنتين.

إذاً، كان أرشيبالد في عطلة على شواطئ الكوت دازور في نفس السنة التي وُلِدَ هو فيها. أكّد له هذا الاكتشاف فكرة أن مصيرهما مرتبط.

لم يرتاح مارتن لفكرة التطفل على حميمية شخصٍ ما دون أن يكون قد دُعي إلى ذلك، فشعر بشيءٍ من الإرباك حين تمعن في رفيقة أرشيبالد: امرأة جميلة، نصف وجهها محجوبٌ بخصلات شعرها البني الطويل الذي جعلته الرياح يرفرف أمام عينيها. بدا واضحاً أنّ الذوق الرفيع للصّ لم يقتصر على الأعمال الفنية...

كانت الصورة الأخيرة تُظهر أرشيبالد من قرب على رصيف مطعمٍ، حيث منحته الشمس التي أضاءت وجهه تعابير لطيفة. بدت كلّ ملامحه مسترخية ومرتاحة. ملامح وجه رجلٍ أعزل ولا يخاف من كونه كذلك. وجهُ رجلٍ عاشقٍ لم يكن ينظر إلى عدسة آلة التصوير، وإنّما إلى الابتسامة الودودة لامرأة.

لم تحمل الصورة أيّ كتابة، ولكن بدا جليّاً لمارتن أنّ فالنتين هي التي التقطت الصورة.

منْ كانت؟ وما الذي ارتكبه أرشيبالد ليجد نفسه في السجن؟

شدّته سيرة أرشيبالد على نحوٍ متزايد وواصل قراءة الملفّ الذي ضمّ استجواباً من قبل الشرطة ولائحة اتّهامٍ، وكذلك تقريرَ محكمةٍ.

كانت القضية تعود إلى إحدى ليالي شهر ديسمبر 1975.

ليلةٌ كان من المفترض أن تكون ليلة كلّ المسرّات.
لكنها كانت ليلة كلّ المآسي.

*

سان فرانسيسكو
الاثنين 23 ديسمبر 1975
الساعة الخامسة صباحاً

- حبيبي، أنا أتألّم!

فتح أرشيبالد عينيه فَزِعاً.

كانت فالنتين بجانبه تتلوى من الألم. كانت حامل في شهرها السادس، وتعاني منذ فترة آلاماً حادّة في المعدة. كانت قد فقدت شهيّتها وتتقيّأ على نحوٍ متكرّر. الطبيب الذي فحصها شخّص حالتها على أنّها تعاني من التهابٍ في المعدة والأمعاء، ولكنّ حالتها الصحية ازدادت سوءاً.

- سنذهب إلى المستشفى، قرّر وهو يجلس إلى جانبها.

داعب جبينها ثمّ ساعدها على الوقوف. كان قد عاد في منتصف الليل من مهمّة في أفريقيا، وقد تأخّرت طائرته ثلاثة أيام، لأنّ الولايات المتّحدة كانت قد تعرّضت منذ أسبوعٍ إلى موجة بردٍ غير مسبوقة، إذ ضربت عواصفُ ثلجية وجليدية البلاد من ساحلٍ إلى آخر، متسبّبة بقطع التيار الكهربائي وبتعطيل حركة السير البري والجوي في خضمّ عُطَل أعياد الميلاد. وحتى في كاليفورنيا، أعاقت موجة البرد هذه كلّ شيء، إذ تمّ إغلاق أجزاء من الطرق السريعة، وفي سان فرانسيسكو، استمرّ الصقيع ستّة أيام متتالية، وهو ما لم يسبق له مثيل أبداً.

لحسن الحظّ، كان سريرهما محاطاً بثلاثة أجهزة تدفئة كهربائية تبعث دفئها المُطمئن، والتي جعلت السكن في منزلهما الواقع على البحر ممكناً، وهو منزلٌ بالكاد يكبر كوخٍ مبنيٍّ من كرات الثلج.

وقفت فالنتين بصعوبة، مستندةً إلى أرشيبالد. كانت قدماها متورّمتين، وتعاني من ألمٍ متزايد ومن صداعٍ في رأسها جعلها تشعر بالغثيان.

خرجا عرجاً من البيت، ولا يزال في الخارج ميناءُ ساوساليتو الصغير غارقاً في الظلام. أمام منزلهما المحاط بالمياه، كان الزجاج الأمامي لسيارتهما الموستانغ الحمراء مغطّى بالجليد.

ساعد أرشيبالد فالنتين على الجلوس في السيّارة ثمّ راح يحكّ طبقة الجليد بأظافره.

- توجد مجرفة في صندوق السيارة، يا حبيبي، لفتت فالنتين انتباهه بلطفٍ.

أخذ بالنصيحة، أدار المفتاح، شغّل المحرّك، وانطلق نحو المستشفى.

- هذه المرّة، لن نجازف بالتعرّض لأيّ خطر وسنذهب إلى مستشفى لينوكس!

- كلّا، يا أرشي، سنذهب إلى ميشن، وهو المستشفى الذي من المفترض أن ألِدَ فيه.

لم يرغب أرشيبالد في معارضتها، ولكنّه لم يكن يثق في الدكتور أليستر، طبيب الأمراض النسائية الذي يُتابع حالتها. إنّه رجلٌ متغطرس وواثقٌ من نفسه أكثر من اللازم، يستحيل النقاش معه.

لذا، حاول أن يُقنعها:

- في مستشفى لينوكس، هناك إليوت كوبر.

- إليوت كوبر جراح قلب، يا حبيبي...

نظر إليها. رغم الألم، ابتسمت له بحنان، وكأنها تستمتع بمشاحناتهما. سُر مَن قرأ

وبما أنها دائماً على حق على أيّة حال، سلك «أرشي» جادة ريتشاردسون، عند مخرج جسر البوابة الذهبية.

- ألا تُسمعنا الموسيقى، يا حبيبي؟

- ولكن يا فالنتين، أنتِ ...

- لا تجادل وشغّل الراديو! دعني أفكّر بشيءٍ آخر غير الألم!

فرافقهما في ذلك الصباح صوت ليونارد كوهين العميق، وهما يقطعان الوديان الصغيرة لشارع ديفيساديرو وصولاً إلى باسيفيك هايتس وهايت آشبوري.

كانت فالنتين جميلة، جميلة رغم الآلام والصداع والغثيان.

نظرت إليه وابتسمت له.

حتى تلك اللحظة، لم يكونا يعلمان أنّها آخر أغنية سيسمعانها معاً...

*

وصلا إلى كاسترو - وهو حيٌّ بدأ يُطلق عليه اسم «قطاع المثليين» منذ أن صادقت المدينة على قانون حقوق المثليين ضدّ التمييز الجنسي. ثمّ انعطفا إلى اليسار، وعبرا منتزه دولوريس بارك ووصلا إلى حي ميشن، وهو القطاع الإسباني. هذا المكان الذي يتجاهله السيّاح ولا يظهر في أيّ دليلٍ سياحي هو الأقدم في المدينة

رغم ذاك، فهنا أسّس الإسبان أوّل كنيسة لهم عام 1776، وهو مركز التبشير الفرنسيسكاني في المنطقة.

كان أرشيبالد يكره هذا الحي الذي اعتبره بائساً وعنيفاً وخرِباً، في حين عشقته فالنتين ووجدته زاهي الألوان ومتوهّجاً ونشيطاً.

بسبب الورشة العملاقة لنظام المترو، شبكة الخطوط الحديدية للضواحي التي شقّت المدينة خلال أشهرٍ طويلة، كان دخول المستشفى يتم من الخلف، الأمر الذي أرغمهما على أن يلتفّا على المبنى. ومضتْ في العتمة اللافتاتُ المضيئة لحانات فطائر التاكوس والكاسادياس، وشمّا روائح الطبخ رغم النوافذ المغلقة: التشيلي بالفلفل الحارّ، والبوريتوس، وعرانيس الذرة بالزبدة المذابة.

حين وصلا أخيراً إلى قسم الطوارئ، صُدما بالفوضى السائدة. فلدى رؤية قاعة الانتظار المكتظة، كان واضحاً أنّ المستشفى تعاني من نقصٍ في الموظّفين. كما كانت القاعة مليئة بالمدمنين والمتشرّدين، في انتظار معاينة في العيادة المجانية الموجودة في نفس المبنى.

هذا هو الجانب المظلم من المدينة: المشرّدون الذين يتزايد عددهم كلّ يوم وسط لامبالاةٍ شبه عامّة، والشباب الذين عادوا من فيتنام مصدومين والذين يجولون في أروقة مستشفيات الأمراض النفسية قبل أن يناموا في صناديق أو على مقاعد الميترو. لكن توفُّر المخدّرات على نطاقٍ واسع هو أكثر ما جلب الويلات، إذ تدفع سان فرانسيسكو ثمن مبالغة حركة الهيبيين. لا، لم يعزز عقار الـ «إل إس دي» المخدِّر والهرويين إدراك النفوس ولم يحرّرا الوعي، وإنّما حوّلا مَن لم يحسن الإقلاع عنهما إلى أحياء موتى منهكين يموتون على الأرصفة، والإبرة في ذراعهم والقيء على شفاههم.

- هيا بنا ننصرف! قال أرشيبالد بنبرةٍ قاطعة وهو يلتفت نحو فالنتين.

فتحت المرأة الشابّة فمها لكي تحتجّ، لكن انقطع تنفّسها فجأةً، وانهارت على الأرض.

*

- ماذا هناك؟

في مكتبٍ فاخرٍ، وقف أرشيبالد أمام الدكتور أليستر، الذي تلقّى للتوّ أولى نتائج فحوصات فالنتين.

كان الرجلان في نفس العمر تقريباً، ويمكن أن يكونا أخين أو صديقين، ولكن منذ لقائهما الأوّل، أحسّا بعداءٍ شديد أحدهما تجاه الآخر.

كان أحدهما قد وُلِدَ في الشارع، والآخر في حي بيكون هيل الراقي.

كان أحدهما يرتدي سترةً، والآخر ربطة عنق.

كان أحدهما لديه خبرة حياتية، والآخر لديه الشهادات.

كان أحدهما غريزياً، والآخر عقلانياً.

كان أحدهما يحبّ، والآخر يُريدُ أن يُحَبّ.

لم يكن أحدهما طويل القامة ولا وسيماً، ولكنّه رجلٌ حقيقي، وكان للآخر وجهٌ جميلٌ وفمٌ مليءٌ بالمجاملات.

لم تعطِ الحياة لأحدهما شيئاً، فأخذ ما استطاع بنفسه. وأعطت للآخر الكثير، فلم يعتد على أن يتفوّه بكلمة شكرٍ.

كافح أحدهما لسنوات قبل أن يستيقظ إلى جانب المرأة الوحيدة، الفريدة. تزوّج الآخر من حبيبته الأولى في الجامعة فيما

يقيم العلاقات الجنسية مع الممرّضات المتدرّبات، تحت الضوء الكئيب لقاعات الأشعّة.

يكره أحدهما كلَّ ما يمثّله الآخر.

وهو شعورٌ متبادل.

- ماذا هناك؟ كرّر أرشيبالد وقد نفذ صبره.

- تُظهر تحاليل الدم انخفاضاً في نسبة الصفائح: أربعون ألف مقابل مئة وخمسين ألفاً على الأقلّ. فحص الكبد ليس جيّداً جدّاً، ولكن. . .

- ما الذي تنوي فعله؟

- لقد أعطيناها أدوية لتخفيض ضغطها وسننقل إليها كميّة من الدم لرفع صفائحها الدموية.

- وبعد ذلك؟

- سننتظر.

- ننتظر ماذا؟ قال أرشيبالد، مستاءً. ضغطها مرتفع، وهناك زلالٌ في دمها: هي تعاني من تسمّم الحمل.

- ليس بالضرورة.

- يجب إنهاء الحمل.

هزّ أليستر رأسه، رافضاً.

- كلا، يمكننا أن نحافظ عليه إذا نجحنا في تحقيق استقرار الحالة الصحية لزوجتك. فحتى الآن، المؤشرات البيولوجية طفيفة ولا شيء يُثبتُ لنا أنّها ستتطوّر على نحوٍ سلبي.

- طفيفة؟ هل تمزح؟

- اسمع، يا سيدي، أنت لست طبيباً.

- هذا صحيح، قال أرشيبالد موافقاً، ولكن النساء يمُتنَ إثر تسمُّمِ الحمل، وقد رأيتُ من هذه الحالات في أفريقيا أكثر منك.

- لسنا في أفريقيا هنا. وزوجتكَ في الأسبوع الخامس والعشرين من حملها فقط، وبالتالي إجراء عملية قيصرية الآن هو بمثابة الحكم بالموت على الطفل...

تغيّرت تعابير وجه أرشيبالد وغدت قاسية ومريرة.

- لا أكترثُ لذلك، أُريدُ أن أُنقِذَ زوجتي فحسب.

- المشكلة لا تُطرح على هذا النحو تحديداً، جادل الدكتور أليستر. نحن نسعى إلى نهاية للولادة تُنقذ حياة الطفل والأم معاً.

- الشيء الوحيد الذي ستفعله هو إتلاف دماغها وكبدها وكليتيها...

- لقد سبق وناقشتُ هذا الأمر مع زوجتك. إنها تُدرك أنّ ثمة أخطاراً محتملة، ولكنّها لا ترغب في إجراء عملية قيصرية في الوقت الحالي.

- ليست هي من تُقرّر هذا الأمر.

- كلا، أنا من أُقرّر ذلك. ولا أجد أيّ سبب طبّي مقبول كي لا يصل هذا الحمل إلى نهايته.

*

عاد أرشيبالد إلى غرفة فالنتين. جلس إلى جانبها، وداعب وجهها بلطف. استحضر في ذاكرته الطريق الطويل الذي قطعاه معاً لكي يعيشا حبّاً كاد لا يتفتّح أبداً. استحضر جميع العقبات التي تغلّبا عليها، وجميع المخاوف التي انتصرا عليها.

- لا أُريدُ إجراء عملية قيصرية! قالت متوسّلةً.

كانت بشرتها شاحبة وعيناها محاطتين بهالات سوداء وغارقتين في الدموع.

- لستُ سوى في الأسبوع الخامس والعشرين من حملي، يا حبيبي! دعني أحتفظُ به لبعض الوقت!

كانت بحاجةٍ إليه، ولكنّه كان عاجزاً. كان قد وعدها بأن يكون إلى جانبها، في السرّاء والضرّاء، في الصحّة والمرض. كان قد وعدها بأن يحميها وأن يعتني بها، ولكنّ المرء يعد دائماً بما يفوق قدرته على الإيفاء بالوعود.

نظرت إليه وهي ترمش بعينيها.

- دعني أمنحه المزيد من القوّة...

- ولكنّكِ تعرّضين نفسكِ لخطر الموت، يا حبيبتي.

رغم كونها موصولةً بأنابيب المحاليل ورغم الألم الذي يقطع أنفاسها، نجحت في أن تمسكَ بذراعه، وقالت له:

- هذا الطفل، أُريده من أجلكَ. أشعر بنشاطه في بطني! إنّها بنتٌ، أنا متأكّدة من ذلك! سوف تحبّها، هاه، يا أرشي، سوف تحبّها!

كان على وشك أن يقول لها إنّه يحبّها هي، حين رأى عينيها تنقلبان. ثمّ عضلات وجهها ويديها فجأةً و...

*

- سوف تُجري هذه العملية القيصرية اللعينة!

تحدّى أرشيبالد الدكتور أليستر وهو يصرخ في وسط الممرّ.

نظر إليه الطبيب مرتبكاً وهو يندفع نحوه، فائراً بالغضب ومستعدّاً للمشاجرة.

*

في سريرها، قضمت فالنتين قطعةً من طرف لسانها وهي تكزّ على أسنانها. تصلّبت ذراعاها وساقاها وانكمشت حركة تنفّسها وتوقّفت.

*

اقترب الحارس الأمني من أرشيبالد بهدوء وتقدّم خلفه، ممسكاً بسلاحه. كان معتاداً على كبح جماح المدمنين، الذين غالباً ما يكونون عنيفين إذا لم يحصلوا على جرعة من عقار السوبوتيكس.

لكن أرشيبالد لم يكن مدمناً. وإذ خمّن حضور الحارس، انحنى فجأةً وبحركة مفاجئة وعنيفة، رمى ساقه وركله بقوّة، فسقط الحارس أرضاً، وأفلت سلاحه الذي سارع أرشيبالد إلى التقاطه.

*

انتفضت فالنتين جراء تشنّجاتٍ عنيفة. سال لعابٌ من الزبد والدم من بين شفتيها وبدأ يخنقها.

*

- إنّها مصابة بتشنجاتٍ، يا أحمق!

فيما بعد، أثناء المحكمة، سوف يشرح أرشيبالد أنّه أراد أن يهدّد الطبيب بسلاحه فحسب، وأنّه أراد أن يُخيفه فقط، وأنّ الطلقة انطلقت من تلقائها وأنّه لم يشأ أبداً أن يضغط على الزناد. وسوف يشهد الحارس الأمني بدوره معترفاً بأنّ المسدّس لم يكن قد تلقّى الصيانة اللازمة وبأنّ حادثة مشابهة لهذه سبق وحدثت له مرّتين. على أية حال، لم تغيّر الطبيعة العرضية لما حدث من النتيجة، إذ تلقّى الدكتور أليستر رصاصة عيار 9 مم في رئته اليمنى.

ترك أرشيبالد سلاحه في اللحظة التي فقدت فيها زوجتُه وعيَها

ودخلت في غيبوبة. أُمسِك به حينها وطُرِح أرضاً على بطنه قبل أن تُكبّل يداه في جلبةٍ لا توصَف.

حين اقتادته الشرطة، التفت نحو غرفة فالنتين وبدا له أنّه سمع الطبيب المقيم يصيح:

- لقد فقدناها!

ثمّ صوت الممرّضة وهو يقول:

- إنّها طفلة.

*

في يوم الخميس ذاك، استقبل قسم الإنعاش في المستشفى العام لحي ميشن طفلة ولدت قبل موعد والدتها بثلاثة أشهر. كان وزنها 510 غرامات وطولها أقل من 30 سنتمتراً. مثل الكثير من الأطفال المولودين مبكّراً، كانت طفلة متناسقة، ذات وجهٍ جميلٍ وبشرةٍ رقيقةٍ وشفّافةٍ تسمح برؤية شرايينها.

بيد أن الطبيب الذي تمّ استدعاؤه اضطرارياً لكي يُشرف على الولادة تردّد للحظةٍ قبل أن يحاول إنعاشها، وحتى بعد أن فعل ذلك، لم يكن ليراهن إطلاقاً على بقائها على قيد الحياة.

ومع ذلك، وُضِعت في حاضنة، مع جهازٍ للتنفّس.

كانت ممرّضة التوليد التي تعتني بها تُدعى روزاليتا فيغالوزا، تُقيم في الحي منذ عشرين عاماً ويناديها الجميع ماما في المنطقة. هي من نظّفت كلّ ثلاث ساعات الرئتين غير الناضجتين للطفلة لمساعدتهما على أن تعملا من تلقائهما.

قبل الذهاب إلى عملها، اعتادت أن تزور كنيسة ميشن دولوريس كلّ صباح لتوقد شمعةً وتُصلّي من أجل نجاة الطفلة. وبعد بضعة أيام، انتهى بها الأمر إلى تسميتها بـ «الطفلة المعجزة».

على سوار الولادة، في اللحظة التي وجب فيها أن يُكتَب اسمٌ للرضيع، قالت روزاليتا لنفسها إنّ الطفلة بحاجة إلى الملائكة لكي تبقى على قيد الحياة.

لذا، وكتعويذة، اختارت أن تمنحها اسم ملاكٍ:

غابرييل.

5

توأم الروح

ثمّة أشياءُ في أرواحنا لا نعرف كم نحن متشبّثون بها، وإذا كنّا نعيش من دونها، فذلك لأننا نُرجئ يوماً بعد يوم، خوفاً من الإخفاق أو الألم، استحواذها علينا.

مارسيل بروست

سيّداتي سادتي، ستبدأ طائرتنا قريباً هبوطها نحو سان فرانسيسكو. نرجو منكم ربط أحزمتكم ورفع مساند مقاعدكم.

كان مارتن لا يزال مصدوماً بما قرأه للتوّ، فظلّ غير آبه بنداءات طاقم الطائرة.

هذا الاسم... تاريخ الميلاد هذا...

سارع محموماً إلى إنهاء قراءة محضر المحاكمة، ورأسه غارقٌ في ملفّه ويداه متعرّقتان وقلبه ينبض بسرعة. محاكمةٌ أُدين إثرها أرشيبالد وحُكِم عليه بالسجن عشر سنوات بتهمة إصابته الدكتور أليستر بجروحٍ بليغة.

ذكرت نسخة ملفّ سجن سان كوينتن بعض المشاجرات التي

حرمته من تخفيض مدّة عقوبته، كما ذكرت زياراته المنتظمة للمكتبة وحضوره دروس تاريخ الفنّ التي أعطاها أستاذٌ متطوّع من جامعة ستانفورد.

ولكن الأكثر إثارة للدهشة هو أنّ أرشيبالد لم يتلقّ أيّ زيارة في السجن. لم يأتِ صديق ليخفف عنه، ولم يأتِه أحدٌ من ذويه لتزويده بأخبار العائلة، ولم يأتِ أحد ليقدّم له ابنته. . .

ومن ثمّ فُقِدَ أثره في أعقاب فراره من السجن في نوفمبر 1981. اختفى جوزف أ. بلاكويل دون أن يترك أثراً، ليصبح أرشيبالد ماكلين، ملك اللصوص. . .

تفحّص مارتن الصفحة الأخيرة من الملفّ، وهي عبارة عن نسخة مصوّرة حديثة بتاريخ الأمس. تحقيق إضافي على الأرجح، أُعدَّ على عجلٍ من قبل الشرطة الفيدرالية ومصحوبٍ بصورةٍ أثارت فيه الأمل والخشية في آنٍ واحد: صورة شابّة ذات وجهٍ ناعم، ونظّارات شمسية على أنفها، خلف مقود سيارة من طراز فورد موستانغ لونها أحمر غامق. شابّةٌ بشعرٍ طويل وأملس لم ينسَ أبداً عينيها الخضراوين البراقتين تحت المطر. شابّة طلبت منه ذات صيفٍ: «ابقَ لمزيدٍ من الوقت!».

لكي يُخفي ارتباكه، أدار رأسه نحو النافذة. ما وراء الجبال القاحلة، تصوّر ساحل كاليفورنيا وأمواج المحيط الهادئ وخليج سان فرانسيسكو.

كما تصوّر أنّهما، هو وأرشيبالد، يتشاركان نفس فرصة الحبّ الضائعة.

وتصوّر أيضاً أنّ ملاحقته لأرشيبالد تمثّل أكثر بكثير من مجرّد

إلقاء القبض على مجرم. كانت تحقيقاً حول نفسه هو، وعلاجاً نفسياً حقيقياً. ليس من تلك العلاجات التي يقوم بها المرء مستلقياً على أريكة طبيبٍ نفسي، وإنّما مواجهة مع ماضيه، ومخاوفِه الدفينة والجوانبِ الأقلّ اعترافاً بها من شخصيته.

*

استغرق أرشيبالد أقلّ من نصف ثانية ليفتح قفل باب المنزل القائم على الماء الذي تقيمُ فيه غابرييل.

دخل إليه كما لو أنّه يدخل إلى مزارٍ، واستبدّ به انفعالٌ شديدٌ، كما لو أن حيواناً انقضّ على حنجرته. ففي هذا المنزل العائم، استيقظ إلى جانب فالنتين قبل ثلاثة وثلاثين عاماً، في ذلك الصباح المشؤوم من شهر ديسمبر، والذي حوّل حياتهما إلى كابوسٍ.

تقدّم بحذر داخل المنزل. فاحت رائحة البخور في الجوّ. لم يكن أحد في المنزل، ولكنّه كان مليئاً بالذكريات. تعرّف من النظرة الأولى على الأثاث المصنوع من خشب الجير الذي قاما بدهنه معاً، والخزانة الصغيرة التي اشترياها بسعرٍ زهيدٍ من سوق كارميل للأثاث المستعمل، والمرآة التي اقتنياها من متجر مونتيري للبيع بالتقسيط...

اندفعت هبّة رياحٍ خفيفة عبر الباب المفتوح وهزّت الستائر الشفّافة التي نفذ الضوء عبرها.

ثمّ دخل إلى المطبخ حيث طفت ذكرياتٌ من الماضي على السطح على نحوٍ أليم: وجبات الفطور التي تناولاها معاً بحبّ، إعداد وصفتها الشهيرة للمعكرونة بالبيستو، طبق فالنتين المفضّل، أكواب النبيذ، الضحكات المجلجلة، القبلات المتبادلة.

لمقاومة هذه الصور القادمة من الماضي، فتح صنبور المغسلة

وصبّ بعض الماء على وجهه. قبل يومين، كان السرطان الذي ينهش بنكرياسه قد أضعفه لدرجة لم يعد قادراً معها على القيام بأدنى جهدٍ. أمّا اليوم، فقد شعر بأنّه أفضل حالاً، إذ فعلت الجرعات العالية من المسكّنات فعلها، وساعدته على احتواء المرض، ومنحته شفاءً قصير الأمد، وقد تمنحه أيضاً الفرصة ليتحدّث إلى غابرييل للمرّة الأخيرة.

مرّةٌ أخيرة ستكون أيضاً المرّةَ الأولى.

*

في السجن، كاد الحزن يُفقده صوابه، ورفض الاعتراف بأبوّته طيلة السنوات التي قضاها هناك. كانت غابرييل قد أودعت عند جدّتها، وهي سيّدة فرنسية غريبة الأطوار بعض الشيء، متزوّجة من مزارعٍ للكروم وصانعٍ للنبيذ في وادي سونوما. وحين فرّ من سجن سان كوينتن في بداية الثمانينيات، تقصّى سرّاً المعلومات عن ابنته ليعلم بأنّهم أخبروها بأنّ والدها قد توفي في حادث تسلّقٍ للجبال قبل ولادتها، وأنّ عائلته تقيم في اسكوتلندا وأن اسكتلندا بعيدة.

ربّما كانت الأمور أفضل هكذا، في نهاية المطاف.

لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الذهاب لانتظارها لدى خروجها من المدرسة لكي يراها ولو لمرّة. رآها من بعيد وما شعر تجاهها أرعبه حقاً. كان حاقداً على هذه الطفلة! حاقد عليها حقداً شديداً لأنها انتزعت منه المرأة التي أحبّها. كان هذا الشعور جائراً ولاعقلانياً، ولكنّه لم يستطع منعه.

فاختار أن يختفي وعرف تماماً كيف يفعل ذلك...

*

سجن سان كوينتن
اكتوبر 1977

- ونجحتَ في الإفلات منهم؟

- كما أخبرتك، أيّها الفتى الصغير. ولكن في ذلك الحين، لم تكن رئتاي قد تلفتا بعد.

كان أرشيبالد وشريكه السجين إيوان كامبيل جالسين على سريريهما، يتبادلان الحديث عن ماضيهما. أو بالأحرى، كان كامبيل من يتحدث، فيما اكتفى أرشيبالد غالباً بالإصغاء إليه.

كان الرجلان يتشاركان نفس الزنزانة منذ بضعة أشهر. وبعد بداياتٍ صعبة بعض الشيء، ساد تفاهمٌ حقيقي بينهما، عزّزه الأصل الاسكتلندي المشترك.

كان كامبيل يقضي عقوبة من عدّة سنوات بتهمة سرقة لوحات فنية، وقد نجح بسخريته المُعدية أن يُسلّي أرشيبالد الذي كان غارقاً في اكتئابٍ عميقٍ منذ احتجازه.

- لم تكن لتستطيع القيام بذلك اليوم، مع كلّ تلك الأنظمة الأمنية، أردف أرشيبالد، مقطباً حاجبيه.

- أنت مخطئ تماماً. يعتقد الناس أنّه ما أن تحطّ ذبابةٌ على لوحةٍ فنّية، حتى يصل عشرون شرطياً المكانَ مشغلين صفّارات الإنذار. هذا يحدث في الأفلام فقط. فالواقع مختلف تماماً. صدّقني، لا تزال متاحف العالم كلّها قابلة لأن تُسرَق: يكفي أن نعرف الثغرات الموجودة فيها.

- وأنت، هل تعرف هذه الثغرات؟

- أعرف عدداً منها. نعم، أعرف عدداً منها...

بدت ملامح الرضا على وجه الرجل المسنّ، ثمّ سأل أرشيبالد:

- هل تريد أن تتعلّم بعض الثغرات؟

هزّ أرشيبالد رأسه ببطء وأجاب، ساخراً:

- لا أنوي أن أُنهي حياتي مثلك.

ولكي يُؤكّد أنّ النقاش قد انتهى، تمدّد على سريره واستأنف قراءة رواية **الكونت دي مونت كريستو** لألكسندر دوما.

ولكنّ رفيقه رفض الاستسلام:

- سنتحدّث عن الأمر لاحقاً، أيّها الفتى الصغير، سنتحدّث عنه لاحقاً.

*

وهكذا، على مدى أشهرٍ، علّمه إيوان كامبيل كلّ ما يعرفه عن السطو قبل أن يتوفى في السجن، ضحيّة لسرطان الرئة.

وعندما حان الوقت لتغيير حياته، قرّر أرشيبالد أن يستفيد ممّا تعلّمه وأن ينتحل، جزئياً، شخصيّة «أستاذه». وداعاً جوزف أرشيبالد بلاكويل، مرحباً بأرشيبالد ماكلين!

أرغمته بعدها شخصية أمير اللصوص هذه على أن يكون متأهباً دائماً، وأن يعيش حياة مجرمٍ فارّ، وأن يُعدّد هوياته، ومخابئه، وضرباته. وشكلّ كلّ هذا رياضة جسدية وذهنية أبقته على قيد الحياة، إذ منعته عن التحسر على نفسه والشعور بالندم.

نجح هذا النهجُ لبعض الوقت، ثمّ أدرك أرشيبالد أنّه ما كانت غابرييل لترضى عن هذا الإصرار على إنكار وجود ابنته. فراحت لياليه تزداد قِصَراً، وغدا يستيقظ دائماً على نفس الكابوس الذي انتهى بهذه الصرخة:

«إنّها بنتٌ، أنا متأكّدة من ذلك! سوف تحبّها، هاه، يا أرشي، سوف تحبّها!».

صرخة أشبه بنداءٍ قادمٍ من عالم آخر لكي يرشده إلى الطريق الصحيح.

فقرّر، في يوم عيد ميلاد غابرييل الخامس عشر، أن يتّصل بها وأن يُخبرها بالحقيقة ويشرح لها كلّ شيء.

ولكن، رغم رغبته في القيام بذلك، إلا أنه افتقد الشجاعة اللازمة.

كان يشعر بالخجل من سلوكه - الذي لم يكن يعرف كيف يبرّره - كما كان يخشى ردّ فعل ابنته. فإذا كانت الصبيّة تشبه أمّها، فستكون لديها شخصية قوية ولن تستقبله بالأحضان في حياتها.

وكي لا يعود خالي الوفاض دون أن يكون قد تبادل معها بعض الكلمات، لم يجد سوى وسيلة وحيدة: التنكّر.

في 23 ديسمبر 1990، سائق سيارة الأجرة الذي أوصلها إلى المطار: كان هو.

في 23 ديسمبر 1991، الرجل المسنّ غريب الأطوار الذي علقت معه في مصعد مركزٍ تجاري: كان هو.

في 23 ديسمبر 1992، المشرّد الثرثار الذي عزف على الساكسفون في شارع ماركت ستريت والذي أعطته دولاراً: كان هو.

في 23 ديسمبر 1993، بائع الورد الذي أوصل إليها ألف وردة ووردة من معجبٍ مجهول: كان هو.

هو، هو، هو... إنّه حاضرٌ ولكنّه متنكّرٌ في كلّ عيدٍ من أعياد ميلادها التي مثلت بالنسبة إليه ذكريات أليمة.

وفي كلّ مرّة تقابل معها وجهاً لوجه، قال في نفسه إنّها المرّة المناسبة، وإنّ زمن الأكاذيب والتنكّر قد ولّى، ولكنّه تراجع في كلّ مرّة.

ومع ذلك، أيقظت فيه اللقاءاتُ المتخفّية مع غابرييل مشاعر أبوية لم يكن يعتقد أنّه قد يشعر بها. شعر بالقلق بشأنها، فعيّن محقّقاً خاصّاً لكي يطلعه على حياة ابنته اليومية. لم تكن هذه بالخطوة الأخلاقية ولا النزيهة تماماً، ولكنّها الوسيلة الفاعلة الوحيدة التي أتاحت له أن يلعب في الظلّ دور الملاك الحارس.

سحبٌ زائد من البنك، صديقٌ عنيف، ثغرة في المحاسبة، نفقات طبيّة غير متوقّعة: كان يستبق ويحلّ كلّ المشاكل. كان هذا أفضل من لا شيء، ولكنّه لم يكن كافياً على الإطلاق. . .

أما الآن، فبات يعلم أنّ المرض لم يترك له الخيار وسهّل ذلك الأمور، على نحوٍ ما.

*

فتح أرشيبالد باب الثلّاجة وأخرج منها زجاجة من جعّة كورونا وفتحها.

ممسكاً بالزجاجة، جال في غرفة المعيشة، وأمعن النظر في كلّ قطعة زينة، وتفحّص الكتب التي تقرأها، والأفلام التي تحبّها.

كانت قد نسيت هاتفها البلاك بيري يُشحَن على المنضدة. فتّش في الجهاز واطّلع على رسائلها الإلكترونية والنصّية دون أي خجل: كانت رسائل صريحة من رجالٍ التقت بهم في سهراتٍ، ودعواتٍ لاحتساء كأسٍ، ومكالمات عابرة. لماذا أعطت غابرييل رقم هاتفها لكلّ هؤلاء الأوغاد؟

لم يكن على الرفّ سوى إطارين للصور. تعرّف على الصورة الأولى لأنّه هو من التقطها: ابتسامة فالنتين وهي مبلّلة بمياه الأمواج على صخور آنتيب، خلال عطلتهما في فرنسا. أما الصورة الثانية،

فكانت لرجلٍ شابّ في العشرينات من عمره: مارتن بومون، في صيف عام 1995.

مارتن بومون الذي يطارده منذ سنوات. مارتن بومون الذي تسلّى معه في لعبة القطّ والفأر والذي يتعقبه منذ أشهرٍ.

وضع أرشيبالد نظارته كي ينظر إلى الصورة عن كثب. كان قد سبق له وأن رأى المئات من صور مارتن، ولكن كانت هذه الصورة مختلفة. ذكّره هذا الوجه بوجهٍ آخر. وجه رجلٍ أعزل لم يكن يخشى من أن يكون كذلك. وجه رجلٍ ينظر إلى الابتسامة اللطيفة لامرأةٍ شابة. وجه رجلٍ يحبّ لأوّل مرّة.

في ردّ فعلٍ منه، قام بفكّ إطار الصورة، فسقطت على الأرضية ورقة مطوية في أربعِ ثنيات. التقطها أرشيبالد وفتحها. كانت رسالة مؤرّخة بتاريخ 26 أغسطس 1995، تبدأ بهذه الكلمات:

عزيزتي غابرييل،

أردتُ فقط أن أخبركِ بأنني سأعود غداً إلى فرنسا.

أردتُ فقط أن أخبركِ بأنّه لم يهمّني شيء خلال إقامتي في كاليفورنيا أكثر من تلك اللحظات التي أمضيناها معاً...

ظلّ واقفاً في مكانه لوقتٍ طويل، حائراً ومرتبكاً، يقرأ ويُعيد قراءة هذا التصريح.

حين أعاد الإطار إلى الرفّ، حدّق في عيني مارتن، وقال له فيما يشبه التحدّي:

- سنرى ما الذي تحمله داخلك، أيّها الفتى الصغير.

16

ها أنا قادم يا كاليفورنيا[1]

إنّ خارطة حياتنا مطوية بحيث لا نرى طريقاً كبيراً واحداً يعبرها، بل طريق صغير جديد وهي تنفتح شيئاً فشيئاً.

جان كوكتو

سان فرانسيسكو

الضوء.

العذوبة.

الرياح الخفيفة.

سماءٌ كما لو أنّها ربيعية.

أغنية لفرقة ذا بيتش بويز في راديو السيارة.

واكفهرار باريس الذي لم يعد سوى ذكرى سيّئة.

على متن سيارة رودستر مستأجرة، عَبَرَ مارتن الشوارع شديدة الانحدار، المحاطة بمنازل من النمط الفيكتوري والتي تماوجت مثل عربات قطار الملاهي. ورغم أن عيد الميلاد كان على بعد يومين

---

(1) California here I come : بالإنجليزية في النص الأصلي.

فقط، إلّا أنّ الشمس غمرت المدينة، وشعر بالبحر قريباً جدّاً، كما على شاطئ المتوسّط.

أعطت هذه المدينة غير النمطية انطباعاً بأنّها طُليت بألوان الباستيل واحتفظت بالجو المسترخي والسحر المُسكِر اللذين عاشهما في شبابه. تذكّر كلّ شيء: الأصوات القادمة من الميناء، والهواء المنعش للمحيط، والقطارات العائدة لسنوات الخمسينيات، ذات التلبيس الخشبي والأجراس النحاسية.

تجاوز حافلة كهربائية ترفع علماً مناصراً لأوباما، ثمّ لمح الخليج اللازوردي محاطاً بالتلال وهو ينزل نحو الرصيف البحري للميناء.

وللمرّة الأولى في حياته، قطع بالسيارة مسافة الكيلومترين لجسر البوابة الذهبية، مستمتعاً بمشهد المدينة المحاطة بالخليج على المرآة الداخلية. ومن ثمّ سلك المنعطفات الحادّة للطريق الضيّق المؤدّي إلى ساوساليتو. كانت المنازل الفاخرة المبنية على سفح التلال قد حلت محل مساكن الهيبيين العشوائية منذ وقتٍ طويلٍ، ولكن وسط هذا المنظر الخلّاب، لم يكن مارتن يفكّر سوى في أمرٍ واحدٍ: سوف يرى غابرييل من جديد.

كانت حكايتهما قد بدأت هنا، تحت شمس صيف عام 1995.

وكادت تنتهي في حانة بمانهاتن في إحدى ليالي عيد الميلاد، وسط البرد والألم.

وبعدها بثلاثة عشر عاماً، خلط القدر الأوراق ليقدّم لهما لعبة لم يعد أيٌّ منهما ينتظرها.

*

شتمت غابرييل ولعنت وهي تُغلق صندوق العدّة خاصتها.

- اللعنة! تعطل المكربن مرة أخرى!

كانت منحنية على محرّك طائرتها المائية، ثم قفزت إلى الأرض اليابسة برشاقة قطّةٍ.

- لا عليكِ، الأمر ليس بالخطير، سوف نصلحه! واساها سوني.

- في نظركَ، لا شيء خطيرٌ أبداً! وكيف سأسدّد فواتيري إذا لم يعد بإمكاني نقل الركاب؟

- لا تزال لدينا طائرة السيسنا.

- فيها ثلاثة مقاعد بدل ستّة، وهذا يعني أن نصف الواردات قد تبخّرت!

وضعت يديها على وركيها وظلّت تتأمّل لبرهةٍ الجهاز الذي يعذّبها: **صليب الجنوب**، طائرة قديمة من طراز لاتيكوير 28، وهي طائرة مائية أنيقة ذات محرّكٍ واحدٍ، من خشب الأرز المطلي بالورنيش والنسيج. بلونها النبيذي المعرّق بحوافٍ صفراء تتألّق بألف ضوء، كانت الطائرة مميزة وتجذب انتباه كلّ المتنزّهين.

للوهلة الأولى، بدت الطائرة جديرة بأن تكون في متحفٍ بدل أن تكون على مسطّحٍ مائي، ولكنّ غابرييل كانت قد أصلحتها ورممتها تماماً، مكرسة لها عطل نهاية الأسبوع وصارفة عليها جزءاً كبيراً من مدّخراتها. مع منزلها العائم على البحر وسيارتها الموستانغ القديمة، كانت هذه التركة الوحيدة التي ورثتها من أمّها وكانت تعتني بها وتحافظ عليها كما تحافظ على قرّة عينها.

تفحّصت المرأة الشابّة العُقد التي تربط الطائرة بالجسر العائم وعادت إلى المقصورة الخشبية الصغيرة التي يدير فيها سوني الحجوزات ويبيع المثلّجات والمشروبات للمتنزّهين.

كانت نهاية الخليج تشبه بحيرة محاطة بأشجار الصنوبر. في نهاية ما بعد الظهيرة هذه، كان النور لطيفاً والهواء نقيّاً وتنعكس زرقةُ السماء الصافية مرتعشةً على صفحة الماء.

كانت غابرييل تعمل في هذه الحديقة الطبيعية منذ عشر سنوات. فبعد الكثير من الإجراءات والمساعي، حصلت في النهاية على رخصة استثمار طائرتيها المائيتين لتعرض على السيّاح تحليقاً لا يُنسى فوق الخليج. أمّا سوني، وهو هيبي سابق، فكان يعاونها في مهمّتها. كان قد تجاوز سنّ التقاعد منذ زمنٍ طويل، ولكنّه بثيابه الملوّنة وشعره على شكل ذيل الحصان ووشومه القديمة التي تعود إلى نصف قرنٍ، كان يسلّي السيّاح بسرد ذكرياته عن **صيف الحب**[1] وعن سان فرانسيسكو الأسطورية لستينيات القرن العشرين.

في الصيف، كانت «البحيرة» تكتظ بالسباحين، والزوارق، والألواح الشراعية، والدرّاجات المائية. ولكن في ذلك اليوم الشتوي، ساد هدوءٌ ريفيٌّ صفحة الماء حيث كانت طيور مالك الحزين والغاق والنحام تعيشُ في وفاق.

تقدّمت غابرييل نحو المقهى والقلق بادٍ على وجهها. ناولها سوني زجاجة مياه معدنية صغيرة شربتها من فوهة الزجاجة مباشرةً.

- هل لديكِ مشكلة في الطائرة؟

التفتت نحو الصوت الذي سألها. كان الرجل يسند مرفقيه على منضدة المشروبات، وهو يحتسي جعّة كورونا باردة، وإلى جانبه

---

(1) Summer of love: ظاهرة اجتماعية حصلت في صيف عام 1967 حين تدفق ما يقارب 100 ألف شخص على حي هايت-أشبوري في سان فرانسيسكو آذنة ببدء تغير ثقافي وسياسي كبير في المنطقة - المترجم.

خوذة درّاج. بدا الرجل في حدود الستين من العمر، شعره أسودُ وأشعث، وله لحية خفيفة وأناقة غير متكلفة: كان يرتدي بنطال جينز وكنزة سوداء ذات ياقة طويلة وسترة رياضية صوفية.

- هل العطل في المحرّك؟

- نعم! أجابت وهي تجلس على الكرسي العالي بجانبه.

رفع زجاجة الجعّة نحوها كما لو أنّه يشرب نخبها.

قرّرت أن تدخل في لعبته:

- اجلب لي زجاجة من الجعّة، يا سوني. السيّد هو من يدعوني.

كانت هذه قاعدتها الأولى: أن تسابق الرجال منذ البداية وتباغتهم لكي تحكم على رد فعلهم، فإمّا أن يبتلعون الطعم ويفقدون مصداقيتهم، أو يكسبون حقّ البقاء في السباق.

أفرج عن ابتسامةٍ صغيرة وقدّم نفسه:

- أُدعى أرشيبالد.

- غابرييل.

بدورها، رفعت زجاجة الكورونا باتجاهه، وقبل أن تشرب منها جرعةً، قضمت شريحة الليمون الأخضر.

شعرت بنظرته عليها ورفعت عينيها.

لم يكن ينظر لا إلى نهديها ولا إلى مؤخّرتها ولا إلى فمها. كان ينظر إلى عينيها فحسب. شفّ وجهه عن حنانٍ حقيقي. لم يكن حنانَ جدٍّ، ولا حنان زوجٍ لا يزال يحبّ زوجته ولكنّه لم يعد يلمسها. كلا، كان حناناً مختلفاً: حنانٌ حقيقي لرجل. شيءٌ لم تراه كثيراً مؤخراً.

كانت تستحضر أحياناً في ذاكرتها دروس الفلسفة حول اللغة،

فتذكّرت قول هيجل: **نحن نفكّر في الكلمات، فالكلمة هي التي تُعطي للفكر وجوده الأسمى والأصحّ.**

ومع ذلك، بدت الكلماتُ تعابيرَ جوفاء في فم الرجال الذين يتقرّبون منها. كان معظمهم يكررون لها نفس الهراء، ونفس الرموز، ونفس المواعيد الفاشلة، ونفس الرسائل النصية المقتضبة، الجوفاء والخالية من الإبداع. فتشبّثت بما هو غير منطوق: الحركات، والنظرات، وتعابير الوجه، والوضعيات...

وانبثق من أرشيبالد هذا ثقةٌ بالنفس لم يكن بحاجة إلى أن يبالغ فيها. شيء غريب، متحفظ ومُطمئِن ومألوفاً في آنٍ واحد.

*

قادت توجيهات جهاز الجي بي إس مارتن إلى أن وصل إلى المسطّح المائي حيث تعمل غابرييل. ركن السيارة تحت أشجار الصنوبر وظلّ جالساً فيها لوقتٍ طويل، متردّداً في الإقدام على الخطوة التالية. كان قد راجع تقرير التحقيق الذي أجراه مكتب التحقيقات الفيدرالي والذي لم يذكر أيّ اتصالٍ بين أرشيبالد وابنته، ولكن ما مدى مصداقية هذه الوثيقة؟ وكان هو نفسه قد طرح السؤال على المرأة الشابّة فيما قبل، وأجابته بأنّها لم تعرف والديها أبداً. فلماذا التشكيك في هذا الأمر، اليوم؟

لأنّ غابرييل امرأة غامضة ومحفوفة بالأسرار. لأنّها تعيش في سان فرانسيسكو ولأنّ أرشيبالد لن يتوانى عن الوصول إلى المدينة لكي يحاول الاستحواذ على الألماسة. على فرض أنّه لم يصل إليها فعلاً...

ضغط مارتن على زرٍّ، وفي غضون بضع ثوانٍ، انطبق جانبا السقف أحدهما على الآخر، فحولا سيارة الرودستر إلى سيارة

عادية. حين خرج ليقفل السيارة، لم يتعرّف في الحال على الصورة المنعكسة على زجاجة النافذة. يجذر الاعتراف هنا بأن شركة لويدز براذرز قد أحسنت ترتيب الأمور: لدى عودته إلى فندقه، وجد ثلاث بدلات من ماركة سمالتو مفصّلة على مقاسه، بحيث كانت الأكمام والكتفان والقوام قمة في الأناقة. والأكثر إثارة للدهشة، كان حلاق ينتظره في الغرفة لكي يحوّل الشرطيّ الشاب الملتحي وذا الشعر الطويل إلى بطل مسلسلٍ تلفزيوني لجيري بروكهايمر[1]. جعله هذا المظهر الجديد يشعر بأنّه شخصٌ آخر. شخصٌ أكثر أناقةً وأكثر نعومةً، ولكنّه لم يعد هو، كما لم يعد هو الشرطيُّ المنهك عصبياً الذي يجرّ حذاءه الرياضي على أرصفة باريس. منذ متى وهو لا يشعر بأنّه على وفاقٍ مع نفسه؟

منذ قصته معها...

تنهّد من الإحباط وخطا بضع خطوات نحو «البحيرة». كان المكان هادئاً ومشرقاً، ذكّره بمنطقة بروفانس حيث ترعرع. لم يكن ينقص المشهد سوى حشرات الزيز لتكتمل اللوحة.

توجّه نحو المقصورة الخشبية الموضوعة على ضفّة البحيرة والتي تُستخدَم كمقهى.

وعندها رآهما...

*

- هل تُريدين أن أُلقي نظرة على المحرّك؟ سأل أرشيبالد بصوتٍ متحمس.

---

(1) جيري بروكهايمر: منتج أمريكي شهير أنتج العديد من المسلسلات التلفزيونية البوليسية، منها: **سي إس آي: التحقيق في موقع الجريمة، دون أثر، القضية الباردة...**

- هل أنت ميكانيكي؟

- ليس تماماً. أنا أعمل في مجال الفن.

- لا أعتقد أنّ تدخّلك سيفيد في شيء غذاً، أجابت غابرييل وقد علت الابتسامة وجهها. إنّها ماكينة مزاجية ومعقّدة، طائرة قديمة جدّاً...

- نعم، أعلم ذلك، إنّها من طراز لاتيكوير 3. 28.

رفعت غابرييل حاجباً، وقد فوجئت وارتابت في آنٍ واحدٍ.

أظهر أرشيبالد المزيد من الخبرة التقنية:

- المحركِ ليس محرّك هيسبانو الأصلي، أليس كذلك؟ بماذا استبدلتِه؟

- بمحرّك شيفروليه.

- بقوّة 640 حصاناً؟

- نعم، هذا... هذا صحيح.

لم يعد لغابرييل أي شك هذه المرّة: هذا الرجل يعرف الكثير عن الميكانيك.

- هل يمكنني إلقاء نظرة؟

أرته يديها الملوّثتين بالشحم والزيت المعدني.

- ستلوّث ثيابك بالشحم والزيت!

لكن كان أرشيبالد قد خلع سترته ورفع أكمام كنزته ذات الياقة العالية.

- أنت من أردتَ ذلك في نهاية المطاف، قالت مبتسمةً، وهي تناوله صندوق العدّة.

تبعته، متسليةً بالمشهد، حتى الجسر العائم حيث صعد إلى جسم الطائرة كما لو أنّه فعل ذلك طوال حياته.

- ماذا ستقدّمين لي إن قمتُ بإصلاحه؟ وجبة عشاء؟ سأل وهو يرفع غطاء المحرّك.

رمشت بعينيها، متعجّبةً، وتسارعت نبضات قلبها. شعرت كما لو أنّ ماءً بارداً قد نزل عليها.

كانت تعلم أنّ لديها هذا الشيء فيها. هذا الشيء الذي يُثير إعجاب الرجال ويجعلهم يعتقدون أنّ الأمر ممكنٌ معها ويحثّهم على أن يجربوا حظّهم. كان الجميع يفعلون ذلك، بدرجات متفاوتة من اللباقة، ولم يكن هذا الرجل مختلفاً عن الآخرين.

حرصت على ألا تظهر له ارتباكها، ولا خيبة أملها، وتظاهرت بأنّها تستمتع بالمحادثة.

- ها نحن ذا إذاً... يُعطي أحدكم الانطباع بأنّه رجل شهم ونبيل، ثمّ يعود الأمر إلى هذا، أليس كذلك: وجبة عشاء صغيرة، احتساء كأس صغير، قبلة صغيرة...

تظاهر أرشيبالد بأنّه لم يسمع شيئاً.

- في نهاية المطاف، مثلكَ مثل الآخرين، قالت ملِحّة.

- ربّما، قال وهو يرفع رأسه عن المحرّك، وربّما لا.

- حسناً، لك وجبة عشاء إذا نجحت في إصلاح المحرك، قالت له بتحدٍّ.

*

عاد مارتن إلى السيارة وقلبه يدقّ بقوّة. فتح، مضطرباً، صندوق قمرة السيارة ليأخذ منه المسدّس جلوك 19 مع مخزن الطلقات الذي أعطته إياه الآنسة هو. كانت الفتاة الكورية قد وفت بوعدها وقدّمت له سلاحاً وتفويضاً من مكتب التحقيقات الفدرالي. كما عثر أيضاً

على مصباحٍ، وشعلة ضوئية، وسكين صيد، ومنظارٍ مقرِّبٍ. أمسك بالمنظار ونظر باتجاه البحيرة.

كانت غابرييل تتحدّث مع والدها!

كانت ترتدي كنزة طويلة من الصوف فوق بنطال جينز مهترئ وحذاءً عالياً. شعر مارتن بيديه ترتعشان على نحوٍ خفيف. لم يكن قد رأى غابرييل منذ ثلاث عشرة سنة، ولكنه شعر كما لو أنّه تركها أمس. وكما في السابق، كان شعرها البني الفاتح، شبه الأشقر، يُخفي عينيها غالباً، دون أن تكلّف نفسها عناء رفعه. كشف الضوء الخافت عن تناسق ملامح وجهها، وجعل شيئاً يتلألأ فيها، قبل أن ينطفأ فجأةً.

فأدرك مارتن أنّ لا الزمن ولا المسافة لم يُخمدا حبّه.

ولكنّ حبّاً يجعلك تتألّم حتى الموت، هل هو حبٌّ حقاً؟

*

سعل محرّك الطائرة المائية، وبدا أنّه يختنق كما لو أنّه ابتلع برغياً عن طريق الخطأ، ثمّ التقط أنفاسه قبل أن يُفرقع ثمّ يزأر.

نزل أرشيبالد بحذر من الطائرة المائية ومسح يديه بقطعة قماش، دون أن يُظهِر نشوة الانتصار.

- لم تكن المشكلة في المكربن، وإنّما في إحدى الأسطوانات. قد تصمد لبعض الوقت، لكن ينبغي التفكير في تغييرها.

ارتدى سترته، ورتّب كنزته والتفت نحو غابرييل، مبتسماً.

- بخصوص المطعم، كانت هذه مجرّد دعابة، بالطبع. إلا إذا ألححتِ على ذلك...

أبدت برهةً من التردّد، إذ شعرت بالإرباك. رغبت لو أن تطول

هذه اللحظة قليلاً وفي أن تعرف المزيد عن هذا الرجل، ولكنّها آثرت ألّا تُظهِرَ اهتمامها به.

- كلا، لن ألحّ على ذلك.

تقبّل أرشيبالد قرارها، ثم التقط خوذته وحيّاها:

- إلى اللقاء، يا غابرييل.

- إلى اللقاء.

ابتعد عن المقصورة الخشبية، متجهاً نحو موقف السيارات.

لم تعد ترغب في أن يُغادر. رغبت في الإصغاء إليه، إلى كلماته التي أراحتها. رغبت في أن تعرف ما الذي أربكها في حضوره. رغبت في ذلك، ولكنّها لم تجرؤ عليه.

كان قد ركب درّاجته النارية الضخمة حين سألها:

- في الواقع، أنت لا تواعدين سوى الرجال الذين لا يُثيرون إعجابكِ، أليس كذلك؟

- نعم. قالت، بأنفاس متقطعة.

- لماذا؟

- لأنّ الآخرين، أخشى أن أخسرهم، اعترفت له غابرييل.

لقد تخلّت عن المقاومة. عرفتْ أنّه يقرأها مثلما يقرأ كتاباً. لقد اكتشف الثغرة، الهوّة، الخجل، اللحاء النازف، عمق الجراح، الفكّ الذي ينهش أحشاءها.

اعتمر خوذته، ورفع زجاجته الواقية، ونظر إليها مرّة أخيرة.

كانت عيناها متّقدتين وبرّاقتين، كما لو أنّها تبكي.

كانت منتصبةً وسط الجسر العائم، تشعر بالضعف، وبدت وكأن الرياح تستطيع أن تجرفها مثل الورقة.

كان ثمة شيءٌ ما يحدث بينهما. لم يكن ذلك إغواءً، ولم يكن رغبةً، وإنّما شيءٌ له قوّة البداهة.

دعس أرشيبالد على مشغّل المحرّك ذي الأسطوانات الأربع، فاشتغل هادراً. كان قد انتقل إلى الغيار الأول للسرعة حين انضمت إليه غابرييل راكضةً وصعدت خلفه على سرج الدرّاجة النارية. شعر بها تتشبّث بخصره وتضع رأسها على كتفه.

فأسرع أرشيبالد وانصهرت الدرّاجة النارية في الشمس الغاربة.

17

التعطش للآخر

لكلٍّ منّا غرفة ملكية في قلبه؛ أنا سوّرتها، ولكنّها لم تُدمّر.

غوستاف فلوبير

- أيّها الوغد!

استشاط مارتن غضباً، إذ كان من الصعب جدّاً عليه ملاحقة درّاجة أرشيبالد. فلو أنّه في باريس، لكانت لديه صفارات إنذار وجهاز راديو لاستنفار زملائه، ولكن هنا، شعر بأنّه وحيدٌ وعديم الوسيلة.

انسلّت الدرّاجة النارية المصنوعة من خليط من الألمنيوم والكروم والفولاذ بين السيارات. على الجانب الآخر من الطريق، سارت السيارات جنباً إلى جنب في حركة مرورٍ بطيئة بسبب الازدحام، ولكن للذهاب إلى المدينة كانت حركة المرور أكثر سلاسة، والتزم أرشيبالد بحدود السرعة. لم يرغب لا في لفت انتباه رجال شرطة الطرق السريعة لولاية كاليفورنيا، ولا في تعريض حياة ابنته، التي لم تكن تعتمرُ خوذةً، للخطر.

لم يعرف مارتن كيف يصف المشهد الذي حضره للتوّ. هل كان

هذا أول لقاءٍ لغابرييل وأرشيبالد؟ هل كانت المرأة الشابّة تعرف الحقيقة بشأن والدها؟

عند نهاية الجسر، عبرت الدرّاجة الناريّة المناطق المشجرة لحديقة بريسيديو قبل أن تسير على طول المجمّع البحري. أتاحت الشمس المائلة للغروب والتي ألهبت السماء للسيّاح أن يلتقطوا صوراً تصلح لأن تكون بطاقات بريدية. أمّا بالنسبة إلى مارتن، فقد جعل اقترابُ المغيبِ من الصعب عليه رصد الدرّاجة النارية وتعقّبها.

في حي راشن هيل السكني، اختفى عن أنظاره الطيفُ الضخم لدرّاجة الياماها، ليعود ويراه في مدخل الحي الإيطالي بعد بضع دقائق.

وصلت الآن الدرّاجة ذات الأربع أسطوانات إلى إمباركاديرو، وهو الطريق الذي يحاذي الواجهة البحرية. كانت هذه المنطقة الصناعية القديمة قد تغيّرت على نحوٍ مذهلٍ بعد زلزال عام 1989، إذ حلّ محل أرصفة الميناء جادةٌ واسعة مزروعة بأشجار النخيل، تمتدّ على طول الشاطئ لمسافة عشرة كيلومترات، وتستهوي راكبي الدراجات الهوائية ومنتعلي أحذية التزلج.

تجاوز أرشيبالد محطّة العبارات التي نجا برجُها ذو السبعين متراً والمحاط بأربع ساعات جدارية من جميع الزلازل. منحت أقواسه المبنية بالقرميد وأرضيته المغطاة بالرخام المبنى سحراً إيبيرياً، إذ يشعر المرء بأنّه في ميامي أو لشبونة أو إشبيلية. . .

ثمّ انطلقت الدرّاجة النارية إلى رصيفِ ميناءٍ أنيقٍ امتدّ حتى مشارف المحيط الأطلسي، متيحاً لبعض المحظوظين الدخول إلى مطعمٍ فاخرٍ يقع على المحيط مباشرةً.

بوغِتَ مارتن، فكبح فجأةً وركن سيارته اضطرارياً في مكان

حافلةٍ بينما كان أحد عاملي موقف السيارات يهتمّ بدرّاجة أرشيبالد ويُجهِّزُ رئيس الندل في المطعم طاولةً له.

*

حلّ الليل.

شعّت أضواء أبراج حي الأعمال وسط الظلام. ومن بعيد، على تل تلغراف هيل، توهّج برج ليليان كويت في الظلّ مثل سيفٍ يقوم بحمايتها.

أضاءت شعلةُ قدّاحةِ «زيبو» قمرة السيارة لبرهةٍ قصيرة وأخذ مارتن نفساً طويلاً من سيجارته.

الانتظار، من جديد.

تسليط المنظار المقرّب على أرشيبالد، والتساؤل ما إذا كان من المناسب التدخّل، من جديد.

لكن الأمور تغيّرت الآن. لم يعد أرشيبالد اللصّ العبقري هو الذي يبهره، وإنّما والد غابرييل وعاشق فالنتين.

هذا الرجل المغرم الذي يشبهه كثيراً...

*

ما الذي أفعله هنا؟

نظرت غابرييل إلى نفسها في المرآة. كانت قد توجّهت إلى الحمّام حال وصولها إلى المطعم. احتاجت إلى بضع دقائق لتفكّر وتستعيد رباطة جأشها. ما هذه القوّة الغريبة التي دفعتها إلى اللحاق بهذا الرجل؟ لماذا هذا الاندفاع؟

غسلت يديها ورتّبت شعرها على عجلٍ، شاردة الذهن، وشعرت بالأسف على ارتدائها ملابسَ بسيطة في هذا المكان الفخم.

لم تكن على ما يُرام مؤخراً، ولم تحاول إقناع نفسها بعكس

ذلك. كانت تعمل كثيراً، وتخرج كثيراً، وتنام قليلاً. كما أنها حافظت على دورٍ تطوّعي في منظمة أجنحة الأمل، المنظمّة الإنسانية التي أسّستها والدتها، ولم توقف أبداً تعاونها مع الإطفائيين: إذ كلما شبّ حريقٌ في الخليج، قادت إحدى طائرات الإطفاء كناديرالتي تتزوّد بالماء من البحيرات والمستنقعات المحيطة.

كانت حياتها مليئة، ومنصبّة على الاهتمام بالآخرين. حياةٌ سعت إلى أن تمنحها معنى إيجابياً. حياةٌ أرادت أن تكون فخورةً بها. إلا أنّ هذا الفرط في النشاط لم يكن سوى هروبٍ إلى الأمام، رغبة في أن تثمل بالحركات، مثل فراشة الليل التي تصطدم بعناد بالمصباح. لا تتوقف أبداً، ولا تكفّ عن الرفرفة بجناحيها أبداً، حتى الإرهاق، حتى الاحتراق. ولا تمنح نفسها الفرصة أبداً لكي تعترف بما تعرفه فعلاً: أنّها بحاجة إلى بوصلة ترشدها، وإلى ذراعٍ يحيط بها، وإلى قبضة تحميها.

أخرجت أنبوب تجميل الرموش الذي كانت تحمله معها على الدوام. استخدمت الفرشاة المشبعة بمستحضر التجميل لتصبغ رموشها بدقّةٍ، وتجعلها أطول وأكثر انحناءً.

كانت دائماً ما تستخدم مستحضرات التجميل، ولكن لا لزيّن نفسها، وإنّما لتُخفي ملامحها.

سالت دمعةٌ على خدّها فمسحتها بحركة تلقائية قبل أن تنضمّ إلى أرشيبالد على شرفة المطعم.

*

ضبط مارتن العجلة الواقعة بين عدستي المنظار المقرِّب لكي يحسّن الرؤية.

بين السماء والمحيط، كانت الشرفة المغطاة للمطعم تمنح

إطلالةً بانورامية وتعطي الزبائن الانطباع بأنّهم يتناولون العشاء على سطح الماء. كان الديكور الأنيق والرصين يميّزه الرقي والذوق الرفيع: تناسقت تشكيلات أنيقة من زهور الأوركيد مع اللونين البيج والأبيض فيما خلقت الكراسي المبطّنة والاضواء الخافتة جوّاً حميمياً.

أطفأ مارتن سيجارته في اللحظة التي عادت فيها غابرييل لتجلس بجانب أرشيبالد.

تسارعت نبضات قلبه، وتشوّش ذهنه، وانتابته رغباتٌ متضاربة.

الرغبة في إثبات أنه قادر على القبض على أرشيبالد.

ولكن الرغبة في أن يعرف المزيد عنه أيضاً.

الرغبة في أن يحبّ غابرييل لأنّها كانت بداهته.

ولكن الرغبة في أن يردّ لها الأذى الذي كانت قد ألحقته به أيضاً.

لأن توأم روحك يمكن أن يكون روحك الملعونة في آنٍ واحدٍ.

*

حين رأى غابرييل ترتعش، أشار إلى النادل ليُقرّب المدفأة المتنقّلة.

شكرته بابتسامة متكلفة. على الرغم من الجوّ الدافئ للمكان، لم تستطع أن تسترخي لشدّة ما كانت مضطربة. ولكي تبدّد حرجها، بادرت هي بالحديث:

- تبدو خبيراً بشأن الطائرات.

- لقد قدتُ بعضها، اعترف أرشيبالد.

- بما فيها طائرات مائية؟

أومأ برأسه بالإيجاب وهو يقدّم لها كأساً من النبيذ الأبيض الذي كان قد طلبه.

- لم أفهم ماذا تفعله بالضبط. لقد أخبرتني بأنّك تعمل... في مجال الفنّ، صحيح؟

- في الحقيقة، أنا أسرق لوحات فنية.

أفرجت عن ابتسامةٍ، معتقدةً أنّه يسخر منها، ولكنّه ظلّ جادّاً.

- أهذه هي مهنك الحقيقية؟ سرقة اللوحات الفنية؟

- نعم، اعترف بلا مواربة.

- ولكن ممنْ تسرقها؟

- أوه! من الجميع: من المتاحف، وأصحاب المليارات، والملوك، والملكات...

وضع نادلٌ على عربة بالقرب من طاولتهما صينيةً فضّية عليها مجموعة من المقبلات المحضّرة في أكوابٍ صغيرة: محار بالكافيار، سلطة الحلزون بالكرز، قريدس مشوي بزبدة الفول السوداني، مزيج من الكركند وأفخاذ الضفادع بالفستق...

بمزيجٍ من الفضول والتوجّس، بدآ باكتشاف النكهات المبتكَرة لهذه الأطباق، وأصبح الجو أكثر دفئاً شيئاً فشيئاً. مزح أرشيبالد، واسترخت غابرييل، وقدّم لها كأساً آخر من النبيذ، فذهبت إلى حدّ الضحك. بينما تركت نفسها تنساب وراء صوته الآسر، هو لم يرفع عينيه عنها. كان قد لاحظ على ضوء الشمعة تجاعيد التعب الصغيرة حول عينيها، والتي خفّت بعد ذلك، كما لو بفعل سحرٍ، واستردّت نظرتُها بريقَها. كانت تشبه فالنتين كثيراً. لها نفس الطريقة في إمالة رأسها جانباً حين تبتسم، ونفس الطريقة في لفّ خصلةٍ من شعرها عفوياً حول إصبعها، ونفس التعبير اللطيف حين تنفرج أسارير

وجهها. ونفس البريق في عينيها، القادرتين، كما في القصيدة، على أن «تجعلا السماء التي تعقب المطر تغار منهما»[1].

أخْبِرها! أخْبِرها الآن بأنّك والدها! لمرّة واحدة في حياتك، كن شجاعاً معها. إذا تهرّبت هذا المساء،فسوف تتهرّب إلى الأبد...

- وعدا اللوحات، هل تسرق شيئاً آخر؟ سألته، ضاحكةً.

- نعم، المجوهرات، أجاب.

- المجوهرات؟

- الألماس و... الهواتف أيضاً.

- الهواتف؟

- هواتف مثل هذا، قال وهو يمرّر على الشرشف هاتف البلاك بيري الذي كان قد سرقه منها قبل بضع ساعات.

حين تعرّفت على هاتفها، وضعت كأس النبيذ من يدها وتوقّفت ضحكتها فجأةً.

ماذا...؟

كانت تعلم أنّها نسيته في منزلها هذا الصباح. لقد فتّش هذا الرجل الذي لا تعرفه شقّتها إذاً، وانتهك خصوصيتها. أي رجلٍ غريب الأطوار هذا الذي صادفته؟

وضع أرشيبالد يداً على ساعد ابنته، ولكن تشنجت هذه الأخيرة ودفعت كرسيها فجأةً قبل أن تقوم عن الطاولة.

- **انتظري يا غابرييل، دعيني أشرحُ لكِ!** صاح، متحدّثاً باللغة الفرنسية.

---

(1) بيتٌ من قصيدة **عينا إلزا**، للشاعر لويس أراغون - المترجم.

ارتبكت للحظةٍ من الإحباط الذي بدا ينبعث من هذا الرجل فجأةً. لماذا حدّثها باللغة الفرنسية؟ ولماذا خاطبها بغير كلفةٍ، متخطّياً الرسميات؟

ولكن بسبب غضبها من انتهاكه خصوصيتها، غادرت الشرفة دون أن ترغب في الإصغاء إليه، وراحت تركض على رصيف الميناء كما لو أنّ أحدهم يلاحقها.

*

أفلت مارتن منظاره المقرِّب حين رأى غابرييل توسع الخطى في شارع إمباركاديرو بحثاً عن سيارة أجرة. خرج من سيارته دون أن يكشف عن نفسه وظلّ مختبئاً خلف الرودستر مثبِّتاً نظره على أرشيبالد الذي بدا وكأنه تقبّل فكرة مغادرة ابنته، في الجانب الآخر من الشارع.

امتنع مارتن عن عبور الطريق. ففي تلك الساعة من الليل، كانت حركة المرور كثيفةً بالعادة، ولم يشأ أن يجد نفسه وجهاً لوجه مع غابرييل.

وقفت أخيراً سيارةٌ بالقرب من المرأة الشابّة. كانت على وشك الصعود إلى سيارة الأجرة حين رنّ هاتفها في يدها. تردّدت لبضع ثوانٍ ثمّ. . .

*

- لا تغلقي السماعة، يا غابرييل، أرجوكِ. دعيني أتحدّث إليكِ. فأنا أسعى إلى فعل ذلك منذ سبع وعشرين سنة. . .

التفتت غابرييل. كان رصيف المرسى لا يزال مكتظاً بالناس، إذ أسرع حشدٌ من البشر ليركبوا آخر العبارات أو ليحتسوا كأساً في المقاهي والنوادي المصطفة على طول الجادة.

واصل أرشيبالد حديثه بصوتٍ أجشّ على الطرف الآخر من الخط:

- يجب أن أشرح لكِ...

فتّشت عنه بأنظارها. لم تفهم شيئاً. لم تشأ أن تفهم.

- أنا لم أمت، يا غابرييل.

وأخيراً، لمحته على بعد خمسين متراً، عند تقاطع حاجز الأمواج والرصيف.

أشار إليها بحركةٍ ترضيةٍ من يده وواصل اعترافه:

- لقد تخليّتُ عنكِ، هذا صحيح...

تركت سيارة الأجرة تغادر وظلّت للحظةٍ ساكنة بلا حراك، مشلولةَ الحركة وسط الرصيف.

- ... ولكن لديّ الحقّ في أن أشرح لكِ السبب.

شعر أرشيبالد بقلبه الذي كان يدقّ بكلّ قوّة وبكلّ سرعة في هيكله القديم المتهالك. كانت هذه الكلمات، التي ظلّت حبيسة حنجرته منذ سنوات، تنبعث من فمه الآن وتسيل مثل حممٍ على جوانب بركانٍ.

أبي...

بعد لحظة تردّد، قرّرت غابرييل أن تذهب للقائه. فأشارت إليه بدورها بحركةٍ من يدها و...

- احذر!

*

هي من صرخت لكي تحذّر والدها. فعلى الجانب الآخر من الرصيف، كان رجلٌ يتقدّم وفي يده سلاحٌ. وكان هذا الرجل...

*

- توقّف! ضع يديك فوق رأسك! صاح مارتن بالإنجليزية، مخاطباً اللص.

أُخذ أرشيبالد على حين غِرّة ورفع ذراعيه ببطء. وفي يده اليمنى، فوق رأسه، انبعث صوتٌ قلقٌ من هاتفه المحمول:

- أبي؟ أبي؟

ممدود الذراعين وقابضاً على المسدّس نصف الآلي بإحكام، وضع مارتن أرشيبالد في مرمى سلاحه، لا يفصل بينهما سوى سيل السيارات السائرة من الغرب نحو الشرق.

هذه المرّة، كان عاقدَ العزم على الانتهاء من كلّ شيء: الماضي، والهوس الذي أُصيب به رغماً عنه بهذا المجرم، وحبّه العبثي والجنوني لغابرييل. كان سيقبض على أرشيبالد، ويعود إلى فرنسا، ويكبر. يصبح رجلاً أخيراً. . .

- ارفع يديك! ارفعهما! صرخ عالياً لكي يغطّي على ضجيج حركة المرور.

أخرج البطاقة المغلّفة بالبلاستيك والموقعة بالأحرف السحرية الثلاثة - إف بي آي - التزاماً بالقانون وكذلك لتطمين المارّة المرتابين والمرعوبين، وليتمّ التوقيف بموجب القوانين أيضاً، من دون ارتكاب أي تجاوزات أو خلل في الإجراءات.

وهو يحاول عبور الطريق المزدوج، جمّده في مكانه صوتُ بوقٍ مصمّ للآذان، ومرّت حافلةٌ بأقصى سرعة على بعد بضع سنتيمترات منه، فاستغلّ أرشيبالد هذا التمويه لكي يفرّ نحو رصيف الميناء.

حينما نجح الشرطي السابق أخيراً في الوصول إلى الرصيف الآخر، كان اللصّ قد تقدّم عليه. جدّد مارتن تحذيره ثمّ أطلق عياراً

نارياً في الهواء. اضطرّ لأن يُطلق المزيد من الأعيرة النارية لإخافة أرشيبالد. . .

غيّر مارتن خطّته حينئذٍ وعاد إلى سيارته لكي يمنع هروب عدّوه.

مستخفاً بكلّ القوانين، انطلق بسيارته وأطاح السياج الذي يحيط بالجزء الخلفي من المرآب الصغير المجاور للمطعم. ولكنّ أرشيبالد كان قد ركب درّاجته النارية واعتمر خوذته الواقية، فطارده مارتن على طول رصيف المرفأ، وهذه المرّة، لم يُطلق النار في الهواء، وإنّما استهدف الدرّاجة النارية. دوّت طلقتان ناريتان في عتمة الليل. اخترقت إحدى الطلقات غطاء الألمنيوم في واجهة الدرّاجة، في حين ارتدّت الثانية على العادم. ورغم الأعيرة النارية، لم يدع أرشيبالد نفسه ينجرّ نحو الساحل ونجح في الوصول إلى الطريق. وصلا إلى الجادة في نفس الوقت تقريباً، لكن فيما اعتقد مارتن أنّ الدرّاجة النارية ستنسل في حركة المرور، بدا وكأن أرشيبالد ينوي سلوك شارع إباركاديرو في الاتجاه المعاكس.

لن يجرؤ.

كان ذلك رهاناً طائشاً، وشبه انتحاري حتى، ومع ذلك. . .

. . . ومع ذلك، تشبّث أرشيبالد بمقوده، وأطلق العنان للمئتَي حصانٍ لمحرّك درّاجته، وانطلق بسرعةٍ صاعقة، فترك الإطار خطّاً أسود طويلاً على الإسفلت تحت وطأة هذه الدفعة القوية، واندفعت الدرّاجة النارية مثل الصاروخ وسط نيران حركة المرور.

تردّد مارتن ثمّ اندفع بنفس الاتجاه بدوره، فراحت المركبات تُمطرُ في وجهه مثل سحابةٍ من الشُهب، وسط جوقة المزامير والأضواء التحذيرية الساطعة. لم يستطع مواصلة هذا المسار سوى

لمئة متر، ثمّ اضطرّ لأن ينعطف نحو فونتين بلازا ليتفادى وقوع حادث سير. وإذ أدرك أنّه أفلت من كارثة وشيكة، شعر بقلبه يدقّ بعنف وبيديه ترتعشان على المقود.

استدار عائداً في الاتجاه المعاكس.

مرّة أخرى، كان قد لعب وخسر.

*

بحث عنها في كلّ مكان: في المطعم، وعلى الرصيف، وفي الميناء. . .

بحث عنها طويلاً.

ولكن غابرييل لم تنتظره.

مكتبة
t.me/soramnqraa

18

الذكريات والحسرات أيضاً...

إذا رغبت في شيء بقوّة، فلا تحاول أن تتمسّك به.
فإذا عاد إليك، فسيكون لك إلى الأبد.
وإذا لم يعد إليك، فهو لم يكن لك منذ البداية.

مقتبس من فيلم عرض غير لائق

الساعة الواحدة صباحاً

كان مارتن مستلقياً على الشاطئ، وشعره معفّرٌ بالرمل، ووجه مشرّعٌ للريح، وعيناه ترنوان إلى النجوم.

كان قد اتّصل بغابرييل على هاتفها، ولكنّها لم تردّ. بحث عنها في كلّ مكان: في المقصورة الخشبية بالقرب من الطائرات المائية وفي كلّ الأماكن التي اعتادا أن يذهبا إليها في السابق. ولكنّه لم يعثر عليها.

قصّة حياته...

وكما كان يفعل حين يشعر بالإحباط وهو في العشرينات من

عمره، انتهى به المطاف على هذا الشاطئ الصغير، خلف مارين درايف، بين الميناء وجسر البوابة الذهبية.

في تلك الليلة، كان القمر يوشك على أن يكون بدراً مكتملاً، وانبعث من المحيط صوت غناءٍ غامض. ورغم الساعة المتأخّرة، لم يكن الشاطئ خالياً من الناس، إذ تحدّت مجموعةٌ من الفتيات لافتاتِ المنع، وأوقدت ناراً احتفالية وسخرت من رجلٍ عجوزٍ يرتدي بزّة رائد فضاء ويجرّب عجلةً شراعية. وقام رجلٌ أسيوي غير محدد الجنس - بنظارة سوداء وكيمونو بنفسجي اللون، وبصدر لاعب كمال الأجسام - بإطلاق طائرة ورقية ضخمة على شكل تنين. واضعاً سماعات الموسيقى في أذنيه، كان في عالمه الخاصّ. لكلٍّ هواه، ولكلٍّ مخدّره: كانت هذه فلسفة هذه المدينة، وما يمنحها سحرها، وثمالتها، ونفورها...

بعيداً عن الشاطئ، خلف الصخور، كان ثنائيٌّ شاب يتبادلان القبل بحياءٍ، وكأنّهما يكتشفان لتوهما مُتع الحبّ.

- ألا ترى أنّهما يشبهاننا بعض الشيء؟ سأل صوتٌ قادمٌ من خلفه.

ارتعش مارتن لدى تعرّفه عليه. جلست غابرييل على بعدِ مترٍ منه ووضعت ذقنها على ركبتيها.

حاول أن يبدو غير متأثّرٍ. أدار رأسه نحو الثنائي الشابّ فحسب، ثم قال:

- نعم، إنّهما نحن، في ذلك الوقت.

- إنّهما أكثر تحفظاً! لا أدري إن كنت تذكر كلّ ما فعلناه على هذا الشاطئ...

- كلّ هذا من الماضي البعيد.

- ليس بعيداً جدّاً، قالت. هل تذكر جملة فوكنر هذه التي كتبتَها لي في إحدى رسائلك: «**الماضي لا يموت أبداً، فهو حتى ليس بماضٍ**»[1].

لم يحاول إخفاء مرارته:

- رغم أنك لم تردي على رسائلي، يبدو أنك قرأتِها على الأقل...

- ... وأتذكّرها، حتى بعد مرور ثلاثة عشر عاماً.

للمرّة الأولى، نظر إليها مباشرةً وشعر بعينيه ترمشان بسرعة، كما لو أنّه مكتوبٌ في مكانٍ ما أنّ اللحظات مع غابرييل هي عابرة بطبيعتها وأنّ عليه أن يستعجل حفر هذه الصورة في عقله.

حين تركها، كانت لا تزال الفتاة المراهقة تطغى على المرأة. أما اليوم، فالأمر عكس ذلك، إلا أنّها احتفظت بجانبٍ صبياني جعلها أكثر فرادة.

- هل جئتَ إلى سان فرانسيسكو لتراني؟

- لا، جئتُ لكي أُلقي القبض على والدكِ.

- إذا، أرشيبالد هذا، هو حقاً...

- نعم، يا غابرييل، إنّه والدكِ.

- ومنذ متى تعرف ذلك؟

- منذ هذا الصباح.

- إنّه والدي، وحاولتَ أن تقتله.

- إنها مهنتي!

---

(1) مقتبسة من مرثية راهبة لويليام فوكنر، وجاءت بالإنجليزية في النص الأصلي.

- هل مهنتكَ هي أن تقتل الناس؟
- أنا شرطي، يا غابرييل، أقصد، كنتُ. . .
- أعلم أنّك شرطي.
- كيف؟
- هل سمعت بغوغل؟!
هزّ كتفيه ثمّ أوضح:
- أنا لم أحاول قتله، بل استهدفتُ درّاجته النارية فحسب، الأمر مختلف.
- آه، نعم، بالتأكيد! استهدفتَ درّاجته النارية **فحسب**! أيّ نوع من الرجال أصبحت، يا مارتن بومون؟
قال بانزعاجٍ:
- والدكِ مجرم ويجب أن يدفع ثمن أفعاله.
- إنّه مجرّد سارق لوحات فنية. . .
- **مجرّد** سارق! جميع أجهزة الشرطة في العالم تلاحقه منذ سنوات.
اشتدّت الرياح وأصبحت الأمواج أكثر عنفاً. انطوى كلٌّ منهما على نفسه للحظةٍ، شارد النظر نحو الأفق، ومعذَّب الروح بالذكريات التي أجّجت جراحاً قديمة.
- هل هذه أوّل مرّة ترينَ فيها والدكِ؟
- نعم! أكدّت له.
- ماذا قال لكِ؟
- قال إنّه يريد أن يشرح لي سبب تخلّيه عني.
توهج وجه غابرييل بضوء القمر، وفضحت عيناها البراقتان ألمها وتأثّرها.

- لقد حرمتني من فرصة هذا الشرح، قالت معاتبة.

- لا، كلّ شيء موجود هنا، قال وهو يفتح حقيبة الظهر الموضوعة بجانبه على الرمل.

مدّ لها ملفّ مكتب التحقيقات الفيدرالي.

- ولهذا السبب أيضاً أردتُ أن أراكِ: لكي تعرفي الحقيقة.

- لستُ متأكّدة من أنني أريدُ معرفة الحقيقة، يا مارتن.

- ليس لديكِ الخيار، ويجب أن تعلمي أنّ رغم أفعاله، والدكِ رجلٌ طيّب.

- رجلٌ طيّب؟

- نعم، أقصد... إنها مسألة معقّدة. على أيّة حال، كان يحبّ والدتكِ حقاً: كان يحبّها حبّاً قلّ نظيره، حبّاً عميقاً وشغوفاً...

- إذا كان طيّباً كما تقول، لماذا تريد أن تقبض عليه إذاً؟

- ربّما لكي أؤذيكِ، يا غابرييل.

هزّت رأسها، مذهولةً ومتأثّرةً بردّ مارتن. شعرت بأنّ جراحها لا تزال عميقة، وبأنّه من المستحيل تخفيف ألمها.

- لا! مارتن الذي أعرفه غير قادرٍ على أن يؤذيني. ولهذا السبب أيضاً أحببته: للطفه و...

- كفّي عن عاطفتكِ السخيفة ومجاملاتكِ الكاذبة! على أيّة حال، مارتن الذي عرفتِه لم يعد موجوداً، وأنتِ المسؤولة عن ذلك!

- لأنني لم أحضر إلى موعدكَ في نيويورك؟ ألا تجد أنّه عذرٌ سهل شيئاً ما؟!

- لقد عملتُ أشهراً طويلة لنحظى هذا اللقاء! انتظرتُكِ في مقهى ديلالو طيلة النهار وطيلة المساء! لم تكتفي بعدم الحضور

فحسب، بل لم تقدّمي لي أي تفسير أبداً. كان لديكِ رقم هاتفي، وكان لديكِ عنواني، وكان لديكِ. . .

- وأنت، لم تحاول أن تراني بعد ذلك أبداً! لقد تخلّيتَ عن قصتنا سريعاً نسبةً إلى شخصٍ كان يقول إنني حب حياته! كما أنك لم تحاول أبداً أن تعرف سبب عدم مجيئي إلى الموعد.

- لأنّكِ كنتِ مع رجلٍ آخر، أليس كذلك؟

- لا يهمّ، عند أدنى عقبة، أنت. . .

صدمه تحيزُها، فلم يدعها تُكمِل جملتها:

- أكرهكِ لتجرئك على قول ذلك!

- لكنّها الحقيقة! قالت وهي تشدّد على كلماتها. لقد شعرتَ حضرتك بالإهانة. لقد رأيتَ حضرتك أنّ كرامتك كرجل قد انتُهِكت ولم تتحمّل ذلك. فانغلقتَ حضرتك على نفسك في غضبك وقرّرت أن تحرد لمدة ثلاثة عشر سنة! كنت أعتقدُ أنّك مختلفٌ عن الآخرين، أنّك أعلى من كل ذلك!

- أعلى من ماذا؟ لقد فطرتِ قلبي، يا غابرييل!

- لا، يا مارتن، أنت وحدكَ من أردت أن تفطر قلبك! وبفعلك ذلك، لقد فطرتَ قلبي أيضاً.

- لا تقلبي الأدوار بخطبكِ الرنانة، أرجوكِ!

باغتتهما هبّة رياح فأرغمتهما على أن يحميا عيونهما من سُحب الرمل. تقوقعت على نفسها في معطفها وتعرّف على المعطف الجلدي القصير الذي كان قد أهداها إياه قبل ثلاثة عشر عاماً. رفع كمّي قميصه وأخرج ولّاعته وأشعل سيجارةً. سُمِعَت أصوات صفّارات عربات الإسعاف وسيارات الشرطة على نحوٍ متقطّع، ثمّ

استعاد الشاطئ أصواته المألوفة: ارتطام الأمواج، صياح النوارس، تقلّبات الرياح.

- لماذا لم تأتِ إلى ذلك الموعد؟ سأل بنبرةٍ أقلّ حدّة.

- كنّا في العشرين من عمرنا، يا مارتن، العشرين من عمرنا! لم نكن نفهم شيئاً عن الحياة وعن الحب. وكنتَ تريد الحصول على يقينٍ وعهودٍ كبيرة!

- لا، كنتُ أريدُ إشارةً فحسب.

حاولت أن تبتسم له، وقالت بصوتٍ مفعم بالأمل:

- هيّا، يا مارتن، كفى حديثاً عن الماضي! لقد التقينا هنا من جديد، أنا وأنت، في نفس المكان، بعد ثلاث عشرة سنة. هذا أشبه بالسحر، أليس كذلك؟

مدّت يدها لكي تُداعب خدّه بدافعٍ من الحنان، لكنّه ردّ يدها بجفاء. اغرورقت عيناها بالدموع. عينان لم يعد يرى فيهما الكثير من البريق. عينان لم يعد يرغب أن يرى فيهما شيئاً. قد يكون فقد مشاعره تجاهها. وقد يكون ذلك أفضل شيء يمكن أن يحدث له.

نهض من مكانه، زرّر سترته، وعاد إلى سيارته دون أن يلتفت.

*

لم تنم غابرييل تلك الليلة.

كانت الساعةُ الثانيةَ صباحاً حين عادت إلى منزلها. أعدّت لنفسها إبريقاً من الشاي ودخلت شبكة الإنترنت لكي تعرف المزيد عن أرشيبالد ماكلين هذا الذي وصلتها «مآثره» على نحوٍ متقطّع، ومشوّهة بفعل الضجّة الإعلامية.

ثم انكبت على الملفّ السميك الذي أعطاها إياه مارتن. وهي تتقدّم في القراءة، لم تكتشف أباً لم يحدّثها عنه أحدٌ أبداً فحسب،

بل رأت أمها على نحوٍ مختلف أيضاً: امرأة عاشقة وعازمة على إنجاب طفلتها أيّاَ كان الثمن، حتى لو كلّفها ذلك حياتها.

ثمّ... بكت بحرقة وحرارة لإدراكها أنّ ولادتها قد تسببت في تدمير أربع حيوات. حياة أمّها أوّلاً، ثمّ حياة أرشيبالد، الذي سُجنَ على نحوٍ جائرٍ، وحياتها هي بعد ذلك، هي اليتيمة الوحيدة والكئيبة التي لم تجد أبداً مكانها في هذا العالم. وأخيراً حياة مارتن، الذي آلمته رغماً عنها.

في الساعة الرابعة صباحاً، استبدلت الشاي بالفودكا بنكهة التوت وراحت تنبش في خزانة العلية بحثاً عن ألبومات صور قديمة. نظرت إلى صور أمّها بعينٍ جديدة، فلاحظت أن بعض الصور - التي تبدو فالنتين فيها الأكثر سعادةً - قد قُصّت بالمقصّ، وهي رقابة منهجية من قِبل جدّتها على الأرجح، أرادت من خلاها إلغاء وجود أرشيبالد. كانت تعرف هذه الصور عن ظهر قلب - لم يكن لديها الكثير من الصور لأمّها -، فكيف أمكن لها ألا تتساءل عن هذا «التنقيح الغرافيكي» الجدير بالعهد الستاليني؟

ولكن ربّما تكون قد فعلت ذلك لا شعورياً... تدافعت ذكرياتٌ مرتبطة بجدّها وجدّتها في ذهنا - جملٌ غامضة ونظرات متواطئة - والتي أثارت حيرتها حينذاك، ولكنّها أصبحت تفهمها على نحوٍ أوضح الآن. ومثل كلّ الأسرار العائلية، لقد أثقلت المأساةُ التي رافقت ولادتها كاهلَها مثل طبقة غير مرئية من الرصاص، وخنقت طفولتها ومراهقتها وتسبّبت بأضرارٍ لا تزال تجد صعوبةً في التخلص منها.

في الساعة الخامسة صباحاً، أقلعت عن الفودكا وأعدّت لنفسها القهوة وهي تُعيدُ قراءة الرسائل القديمة الملتهبة التي كتبها إليها مارتن. امتزجت صورة الشاب المغرم مع صورة الرجل الأكثر قسوةً الذي اكتشفته هذا المساء. ومن سطرٍ إلى آخر، ومن ثانية إلى أخرى، كانت تنتقل من الفرح إلى الحزن. ترتسم ابتسامةٌ على شفتيها لبرهةٍ، وفي اللحظة التالية، تنهار واضعةً رأسها بين يديها، مستسلمةً لحزنها العميق.

لقد أحبّته كثيراً، بل تحبّه كثيراً، فهي لم تكفّ عن حبّه أبداً! منذ القبلة الأولى، كلا، منذ الرسالة الأولى! الرسالة التي بدأت بـ:

أردتُ فقط أن أخبركِ...

في الساعة السادسة صباحاً، استحمّت لوقتٍ طويلٍ. شعرت بنفسها أكثر خفّةً، كما لو أنّها تحرّرت من ثقلٍ.

وبخلاف ما راودها قبل بضع ساعاتٍ خلت، بدت لها الآن الظروفُ المأساوية لولادتها كما لو أنّها تمنح قيمةً أكبر لحياتها. ألا ينبغي لها أن تكون جديرة بها؟

فهي التي لطالما اعتبرت نفسها من فئة الناس المنذورين للشقاء، شعرت بعزيمة جديدة تتفتّح في داخلها: للمرّة الأولى في حياتها، كانت عازمة على المجازفة بأن تكون سعيدة.

في الساعة السابعة صباحاً، فتحت غابرييل ستائر النوافذ ورأت البوارق الوردية لشروق الشمس الباكر التي زادت من جمال الخليج. كان يومٌ جديد مليء بالوعود يبزغُ على سان فرانسيسكو.

يوم أمس، وبتيسيرٍ غريبٍ من الظروف، ظهر من جديد وفي نفس اللحظة الرجلان الأكثر أهمية في حياتها.

وكانت عازمة اليوم على ألا تدعهما يرحلان.

تمنّت فقط ألا تضطرّ إلى أن تختار بينهما أبداً...

19

أترى، لم أنسَ شيئاً...

الحب هو الحقّ الذي نمنحه للآخر
في أن يضطّهدنا.

فيودور دوستويفسكي

23 ديسمبر

الساعة الثامنة صباحاً

لمعت الإبر الذهبية والفضية تحت الضوء.

رفيعةً مثل شعرةٍ، وبطول عشرة سنتمترات، تطايرت في الهواء، منقادة بحركات خفيفة ودقيقة من الآنسة أوفينيا والاس.

انضمت إيفي إلى أرشيبالد في هذا المنزل الجميل المُستأجَر الواقع على التلّة، حيث أجرت السيّدة الإنجليزية، التي تقوم بدور الحارس الشخصي ومدبّرة المنزل معاً، والمتخرّجة من كلّية الطب في جامعة مانشستر، لرئيسها جلسةَ وخزٍ بالإبر بهدف التخفيف من آلامه.

بحركةٍ خفيفة، غرزت ما يقرب من ثلاثين إبرة في كلّ أنحاء جسد أرشيبالد بزوايا وأعماق مختلفة، وذلك بغرض التأثير في مسارات الطاقات على نحوٍ أفضل.

كان اللص مستلقياً على بطنه، مغمض العينين.

كان يتألّم.

كان قد نجح في احتواء الألم في الأمس، ولكن عاوده الألم هذا الصباح وأذاقه عذاباً مضاعفاً.

كان شَعْرُ إيفي الأشقر معقوداً على شكل كعكة، وجسدها المشدود القوام والمفتول العضلات مدسوساً في بزّة رياضية حمراء فاقعة. واصلت عملها في غرز الإبر في جسد أرشيبالد، وما إن غرزت الإبر، حتى شرعت في تحريكها لكي تعزّز تأثيرها العلاجي، فضغطت على بعضها وأدارت أخرى وهي تبرمها بين إبهامها وسبابتها. إنّه فنٌّ دقيق وراقٍ يتطلّب اللطف والمهارة، مثله مثل فنّ الحبّ.

استسلم أرشيبالد لمختلف الأحاسيس: الخدر، والارتعاشات، والحرارة، والتشنجات العضلية، والشحنات الكهربائية الخفيفة...

هل كان هذا النوع من العلاج فعّالاً؟ لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك. منذ بضعة أسابيع، كان يبتلع المسكّنات طوال اليوم. وقد أتت هذه المسكنات مفعولها البارحة، أمّا اليوم، فكان يحتاج إلى شيءٍ مختلف. وكانت إيفي بارعة في التوفيق بين الطب الغربي الحديث والطب الصيني القديم الذي يعود إلى آلاف السنين.

بعد أن وضعت كل الإبر في مكانها، خرجت السيّدة الإنجليزية من الغرفة لكي تدع مريضها يسترخي تماماً. حاول أرشيبالد أن يتنفّس بعمق. ثمِل برائحة أعواد البخور التي احترقت في الأركان الأربعة من الغرفة، والتي امتزجت برائحة الشيح الأقوى فوحاً. انبعثت في الأرجاء أنغام بيانو إريك ساتي وهدّأته قليلاً، وأعادته إلى صور الأمس وانفعالاته: اعترافه لغابرييل ومبارزته مع مارتن.

أرغم نفسه على الابتسام. لم يتوقف الفتى الصغير عن ملاحقته: لقد لحق به إلى كاليفورنيا، والبارحة مساءً، كاد أن يُلقي القبض عليه فعلاً. ولكن لا تعني **كاد** أنه فعل. لم تكن **كاد** كافيةً. مرّة أخرى، تراجع مارتن في اللحظة الأخيرة، فلم تكن لديه الشجاعة في أن يلحق به بعكس اتجاه السير.

ازدادت مشاعره تجاه الشابّ الفرنسي تناقضاً: امتزج التعاطف بالغيرة، فكان يرغب أن يستفزّه ويحميه، أن يساعده ويتهرب منه في آنٍ واحد.

عبس من شدّة الألم. لم يتبقَّ له سوى وقتٍ محدود ليعرف ما إذا كان مارتن بومون يتحلّى بالشجاعة. فلم يكن يرغب في أن يلعب الوقت الإضافي: كان يريد أن يموت بتألقٍ، لا أن يموت طريح الفراش، في سرير مستشفى.

لم يخيّب الفتى الصغير أمله حتى الآن، ولكن لم ينته الاختبار بعد.

*

كان مارتن جالساً على كرسيٍّ بلا مساند في الطابق العلوي لمطعم **لوريس داينر**، يتناول فطوراً مكوّناً من أغذية عضوية: خبزٌ أسمر، طبقٌ من الموسلي، تفاحة ذابلة، وقهوة خفيفة، ويراقب من خلال الواجهة الزجاجية حشود الناسَ وهم يتدفقون في شارع بويل.

- عرفتك أكثر شراهةً!

جفله الصوت كما لو أنّه أيقظه من النوم.

نظرت إليه غابرييل مبتسمةً، وقد بدت نضرة ومتألقة. كانت ترتدي بنطال جيز كاشف اللون، وقميصاً أبيض وتلك السترة الجلدية ضيّقة الخصر الكستنائية التي كانت ترتديها قبل ثلاثة عشر عاماً.

- حسناً، أعطني قائمة الطعام، ودعنا نطلب شيئاً أكثر دسماً، قالت وهي تجلس أمامه.

- هل تتبَّعتِني؟

- ليس من الصعب العثور عليك. يبدو لي وكأنك تقوم برحلة حجّ إلى أماكن شبابنا! هل تذكر عدد أطباق بانانا سبليت التي تقاسمناها هنا؟ كنتُ دائماً ما أتركُ لك حبّة الكرز الموضوعة على الكريمة المخفوقة، لأنني كنتُ أعلم أنّك تحبّها. هل تذكر كم كنت تراني رائعة؟

هزّ رأسه، متنهّداً، ثمّ قال:

- ماذا تفعلين هنا؟

استعادت جدّيتها.

- أوّلاً، جئتُ لأشكرك على هذا، قالت وهي تُعيدُ إليه الملفّ الذي كان قد أعطاها إياه أمس.

- ممتاز، وماذا بعد ذلك؟

- وبعد ذلك، جئتُ لأتناول فطوراً لذيذاً معك!

نادت النادلةَ وطلبت فنجان إسبريسو، وحلوى الخبز بالفانيليا والتوت، وطبقاً من بيض بنديكت بالسلمون.

أدار مارتن رأسه وتظاهر بأنّه مهتمّ بديكور الصالة المستلهم من ستينيات القرن العشرين: صندوق الموسيقى، آلة لعبة الكرة والدبابيس، عرض لدرّاجات هارلي ديفيدسون، ملصقات أفلام لجيمس دين ومارلين مونرو.

- لقد قرأتُ الكثير عن أبي هذه الليلة. منذ متى وأنت تحاول إلقاء القبض عليه؟

- منذ عدة سنوات.

- ألم يبدُ لك ذلك غريباً؟

- ماذا تقصدين؟

- أن يكون الرجل الذي تلاحقه منذ سنوات أبي **تحديداً**. . .

قطب مارتن حاجبيه. لقد أبقاه هذا السؤال يقظاً طوال الليل. كان من الصعب التصديق أنه ضرب من الصدفة، ولكن هل كان هناك تفسيرٌ آخر؟

أحضرت النادلة طلب غابرييل، التي قسّمت الحلوى إلى قسمين متساويين، كما كانت تفعل في الماضي. ومع أنّ مارتن رفض ضيافتها، تظاهرت بأنّها لم تتأثّر برفضه وواصلت حديثها:

- ما الذي قادك إلى الاهتمام بأمر أرشيبالد؟

هزّ كتفيه.

- أنا شرطيٌّ متخصّص في الفنّ وهو أكبر لصّ للوحات الفنية في العالم. هذا يكفي كدافع، ألا تعتقدين؟

ارتشف شفّة من قهوته الخفيفة فجفل من مذاقها الغريب.

- ما الذي شدّك إليه في البداية؟ تابعتْ وهي تناوله فنجانها من الإسبريسو.

- لا شيء! كنتُ أشعر بالغضب غالباً.

- هل لديك ذكرى محدّدة؟

فكّر لبضع ثوانٍ.

- في فبراير 2005، سرق لوحة **القبلة** لغوستاف كليمت من متحفٍ في فيينا. كانت هذه لوحتي المفضّلة و. . .

- إنّها لوحتنا المفّضلة، قاطعته.

- حسناً، وماذا في ذلك؟

- ألا يبدو لكَ ذلك غريباً أيضاً: أن يسرق هذه اللوحة

بالتحديد، بعد انضمامك إلى المكتب المركزي لمكافحة الإتجار بالممتلكات الثقافية بوقتٍ وجيز؟

تحاشى الإجابة على سؤالها، قائلاً:

- أرى أنّكِ تحرّيتِ عن عملي.

تنهّدت غابرييل، وقالت:

- لقد فعل أرشيبالد كلّ ما بوسعه كي تهتمّ به. فهو من يتحكّم بخيوط اللعبة منذ سنوات وأعتقد أنّه الوقت قد حان لتُدرِك ذلك.

نهض مارتن وقد أزعجه كلامها. قد تكون غابرييل على حقّ، ولكن لكي يتأكّد من ذلك، كان عليه أن يُلقي القبض على أرشيبالد، مهما كان الثمن.

وضع ثلاث أوراق نقدية من فئة عشرة دولارات على الطاولة وعبر صالة المطعم دون أن يلقى نظرةً واحدة على ابنة عدوّه.

- هل نتناول الغداء معاً؟ سألته.

ولكنّه لم يلتفت.

*

بعد مضي ساعة

يقع فندق بالاس هوتيل في شارع مونتغومري ستريت، بين حي الأعمال وساحة يونيون سكوير.

جال مارتن والآنسة هُوْ في قاعة الطابق الأرضي - قاعة غاردن كورت الفخمة - التي تستضيف عملية عرض وبيع ألماسة مفتاح الجنّة.

كانت الألماسة الزرقاء الشهيرة محميةً خلف واجهةٍ زجاجية مدرّعة، وتشعّ ببريقٍ مبهرٍ. ورغم أنّ الوقت كان صباحاً، توافد حشدٌ كبيرٌ إلى القاعة لمشاهدة الجوهرة النادرة. وفي وسط القاعة، كانت

فرقة من أربعة عازفين تلعب موسيقى فيلم **الإفطار عند تيفاني**.

منحَ ترفُ المكان ورقيّه إطاراً خلّاباً لهذا الحدث. كان الفندق ملتقى الأسر العريقة للمدينة، والتي تناولت فيه وجبات الفطور المتأخرة أيام الأحاد، ونظمت فيه حفلات الغداء الفاخرة بمناسبات الزواج والتعميد. كما أن المكان كان مفعماً بالتاريخ: إذ أقام فيه أوسكار وايلد، وكذلك مغني الأوبرا الشهير كاروسو، والرئيس روزفلت. أمّا سارة برنار، فقد أحدثت فوضى حين نزلت فيه برفقة نمرها الأليف.

كان الفناء القديم الذي وصلت إليه عربات الخيول فيما مضى قد حوِّلَ إلى حديقة شتوية رائعة ذات قبابٍ مهيبة يعلوها سقفٌ زجاجي عملاق. انبهر مارتن بالزجاج الملوّن للقباب، والثريات المصنوعة من الكريستال النمساوي، والأعمدة المنحوتة من الرخام الإيطالي، والشمعدانات الكهرمانية ذات الزخارف الذهبية. كان يكفي أن يغمض عينيه ليتخيّل قاعة رقصٍ من العصر الفيكتوري، وفي الوقت نفسه، أعطت عشراتُ أشجار النخيل المزروعة في أصصٍ زجاجية ضخمة والغارقة في ضوءٍ طبيعي للقاعةَ تصميمَ فناءٍ عصري.

- ما رأيكَ؟ سألت الفتاة الكورية.

- المكان رائع. لكن من الناحية الأمنية...

- ماذا؟

- إنه مصفاة حقيقية!

*

عادا إلى مقرّهما العام الذي رتباه في أحد أجنحة الطابق الأخير من الفندق. فوق طاولةٍ طويلةٍ، كان جدارٌ من الشاشات يبث الصور التي التقطتها كاميرات المراقبة المنصوبة في غاردن كورت.

كان مارتن يشاهد الشاشات، حاد العينين وقلق الوجه.

- هناك ثغراتٌ في كلّ مكان!

انحنت الآنسة هُوْ فوق كتفه، وقد فاحت منها رائحةُ زهور خفيفة.

- أنت تبالغ: كلّ المنافذ محروسة، ورجال الأمن يقومون بدورياتٍ في كلّ الطوابق، والألماسة في علبةٍ زجاجية مثبّتة بالأرض. ما الذي يجب فعله أكثر من ذلك؟

نهض مارتن ليتحرّر من التأثير غير المرئي للفتاة الكورية.

- المكان مكتظٌّ بالناس! يمكن لأرشيبالد أن يخلق الفوضى في غمضة عين: نشوب حريقٍ، صفارة إنذار تنطلق على نحوٍ غير متوقّع، طلقة نارية... سيؤدي ذلك إلى حدوث فوضى وتدافع.

حاولت الآنسة هُوْ دحض حجّته:

- لقد تمّ تدريب الجميع على كيفية إخلاء القاعة.

ظلّ مارتن واقفاً ونقر على لوحة مفاتيح حاسوبه المحمول ليراجع جدول مناوبات حرّاس الأمن.

- عدد رجال الأمن كبيرٌ في النهار، ولكنّهم أقلّ عدداً بكثير في الليل! وبصراحة، عرض الألماسة تحت علبةٍ من زجاج... يبدو وكأنّكم فعلتم ذلك عن قصدٍ! كم مرّة تسلّل أرشيبالد عن طريق الجوّ؟ هذا اختصاصه!

ظلّت الآنسة هُوْ صامتةً كما لو أنّها أدركت فجأةً ثغرات خطّتها.

عاد مارتن إلى طاولة عمله وحمّل على حاسوبه خرائط الفندق التي كانت الإدارة قد أرسلتها إليه للتوّ. كان يهمّ بطبعها حين صدر من هاتفه رنّةٌ ارتجاجية وحادّة تنبئه بوصول رسالة نصية.

هل أزعجك؟

نظر إلى الرقم: كانت غابرييل. آثر ألّا يردّ عليها، ولكن بعد أقلّ من دقيقتين، سألته من جديد.

هل أزعجك؟

نعم!

. . . أجاب، منزعجاً.

مستخدمةً الرسائل النصية كرسائل فورية، لاحقته بأسئلتها:

هل تُريد أن نتغدّى معاً؟

لا.

ماذا تفعل؟

أقوم بعملي

تقتل الناس؟

كفّي، يا غابرييل

هل تذكر عندما كنّا نمارس الحبّ؟

كما لو تمّ الإمساك به بالجرم المشهود، رفع مارتن رأسه نحو الآنسة هُوْ، التي كانت تنظر إليه بفضول من الطرف الآخر من الطاولة، متواريةً جزئياً خلف شاشة حاسوبها الماكبوك.

آمل ألا يكونوا قد وضعوني تحت المراقبة الإلكترونية، قال في نفسه وهو يعود إلى هاتفه لينقر على الأزرار الصغيرة من جديد:

كفّي، قلتُ لكِ!

كان الحبّ رائعاً دائماً، كان لطيفاً،
كان جميلاً كان أنت

أوشك على أن يطلب منها مرّة أخرى أن تكفّ عن هذه السخافات، ولكن لم تعد لديه أدنى رغبة في ذلك. وبدلاً من ذلك، انتظر دقيقةً كاملة، وعيناه مثبّتتان على شاشته الصغيرة، متمنيّاً أن ترده رسالةٌ جديدة، والتي لم تتأخّر في الوصول:

بالنسبة إليّ، كان ذلك في غاية
الروعة، في عاية القوّة، وفي غاية
الحسّية

هذه المرّة، لم يستطع منع نفسه عن الردّ:

إذا كان الأمر رائعاً إلى هذا الحد،
لماذا لم تأتِ إلى الموعد إذاً؟

دون أن تردّ على سؤاله، واصلت غابرييل سرد ذكرياتها من خلال باقةٍ من الرسائل النصّية الملتهبة:

هل تذكر حبّنا؟

هل تذكر كلماتنا؟

هل تذكر قبلاتنا؟

هل تذكر مداعباتنا؟

هل تذكر جسدينا

وفجأةً، طفح الكيل. توقّف عن القراءة ورمى بكلّ قوّة هاتفه الذي تحطّم على جدار المكتب.

*

صعد شارع ماركيت ستريت ونزل شارع جيري ستريت وسار على جادة غرانت أفينيو وصولاً إلى **كافيه ديزانجز**. كان متأكّداً من أنّه سيجدها هناك!

عند مدخل الحي الصيني وعلى مسافة بضعة شوارع من القنصلية الفرنسية، كانت الحانة تمثّل ركناً فرنسياً صغيراً في قلب سان فرانسيسكو. ورغم أنّ المحلّ لم يكن يبيع السجائر، كان المقهى يحمل لافتة مكتوب عليها «حانة- محل بيع الدخان»، في نسخة مطابقة لواجهات الحانات الباريسية القديمة في خمسينيات القرن العشرين.

دفع مارتن الباب ودخل الحانة.

مكان أوّل موعد غرامي لهما.

شعر بالسحر ذاته في كلّ مرّة: مع أغطية الطاولات ذات المربّعات، ومنضدة المشروبات المغطّاة بالزنك، والكراسي الخشبية، شعر بأنّه في فيلمٍ فرنسي قديم، ولدى مراقبة الزبائن، كاد ينتظر ظهور لينو فينتورا أوْ برنار بلييه، أو يتوقع حواراً على طريقة أوديار!

كما ذكّرت قائمة الطعام المكتوبة على لوحٍ بفرنسا القديمة: بيض بالمايونيز، رنكة مع البطاطس بالزيت، كرّاث بصلصة الخلّ والخردل، يخنة لحم العجل، لحم الديك بالنبيذ، كرشة على طريقة كاين...

خلف المنضدة، عُلِّقت مفكّرة لمؤسسة البريد الفرنسي،

وبطاقات بريدية قديمة عن طواف فرنسا للدرّاجات الهوائية تمجّد بطولات جاك أنكتيل وريمون بوليدور، وبجانبها لعبة كرة الطاولة من طراز غارلاندو بلاعبين متعبين. كانت نفس الموسيقى تنبعث في الجوّ: ريمكس لإديت بياف، ورينو وأغنيته **سهرات ليلة السبت الراقصة**، وزازا فورنييه وأغنيتها **رَجلي**...

بعد أن استعلم من أحد النُدل، وجد مارتن غابرييل جالسةً إلى الطاولة الأكثر رومانسيةً في المطعم، المعزولة بتعريشةٍ صغيرة تتدلّى منها تفرعات دالية عنبٍ.

- تُريدين أن تلعبي هذه اللعبة، حسناً! قال وهو يجلس أمامها.

- هل ستتناول اللحم المقدد كمقبلات؟

- كيف حصلتِ على هذه الطاولة؟

- مثلما فعلتَ أنت في أوّل مساءٍ لنا: أكرمتُ النادل.

- ما الذي تسعين إليه بالضبط؟

- أريدُ أن أعثر عليه، قالت وهي تُغلق قائمة الطعام.

- مَنْ؟

- مارتن الذي عرفته: الذي أحببته.

- لا يمكنكِ إحياء الماضي.

- وأنت، ليس لديك الحقّ في هدمه!

- لا أريدُ هدمه، بل أريدُ أن **فهمه**: فهم لماذا لم تأتِ إلى ذلك الموعد.

تصاعدت نبرة صوتهما. ثم هدأت فسألته:

- ألا تريدُ أن تنظر إلى الأمام بدل ذلك؟

أشاح بنظره، وتابعت بنفس الزخم:

- غالباً ما يُقال إنّ السعادة لا تعود مرتين، ولكن لدينا الحقّ في هذه الفرصة الثانية، يا مارتن! دعنا لا نفسدها! نحن لا نزال شابّين، ولكننا بالكاد كذلك. لدينا المزيد من الوقت أمامنا مقارنةً لما خلفنا، ولكن هذا لن يطول. لا نزال نستطيع إنجاب الأطفال، ولكن ينبغي لنا أن نبدأ الآن...

احمرّت خجلاً من جرأة تصريحها، التي بدت وكأنّها لم تحرك فيه شيء.

ولكنّها لم تيأس مع ذلك:

- لم أكن مستعدة، قبل خمسة عشر عاماً. لم أكن في المستوى المطلوب، لم أكن قويّة بما يكفي، وكنت أشكّ في كلّ شيء. وأنت كذلك، لم تكن مستعداً ربّما، رغم ما تُريد إقناع نفسك به...

عبس عبوساً ينمّ عن الشكّ، وواصلت حديثها:

- أنا مستعدة الآن. أترى، الحبّ مثل الأكسجين، إذا حُرمنا منه طويلاً، ينتهي بنا الأمر إلى الموت. لقد أحببتَني كثيراً خلال بضعة أشهر بحيث كوّنتُ مخزوناً من الحبّ يكفيني لسنوات. وبفضل هذا المخزون من الحبّ، استطعتُ أن أواجه الكثير من الأمور، ولكنني أصل الآن إلى نهاية هذا المخزون، يا مارتن.

مررت يدها خلف رقبتها وداعبت شعرها عند أسفل رقبتها، كعلامة تشجيع اضطرّت لأن تمنحها هي لنفسها بما أنّه لم يكن هناك أحدٌ ليفعل ذلك بالنيابة عنها.

- لقد آذيتُك، أنا أعلم ذلك. سامحني، قالت خاتمةً كلامها.

وأخيراً، فتح مارتن فمه لكي يقول ما كان في قلبه:

- الألم ليس المشكلة. فالألم يوجعك، ولكنّه لا يحطّمك.

المشكلة هي الوحدة التي يسبّبها الألم. هي التي تقتلك على نارٍ هادئة، وتقطعك عن الآخرين وعن العالم. وتوقظُ أسوأ ما فيك.

لم تسعَ إلى الهروب من المناقشة:

- أن تحب هو فعل خطير، يا مارتن! أن تحب هو أن تأمل في الفوز بكلّ شيء وأنت تخاطر بأن تخسر كلّ شيء، وهو أيضاً أن تقبل بالمخاطرة بأن تكون محبوباً أقل ممّا تحبّ.

- أترين، يا غابرييل، قال وهو يقوم عن الطاولة، أنا لم أعد مستعدّاً لأن أتحمّل هذه المخاطرة.

*

عاد مارتن إلى المقرّ الأمني للفندق وقضى جزءاً كبيراً من فترة ما بعد الظهيرة في العمل على خرائط غاردن كورت. كان عليه أن يشارك بعد ذلك في اجتماعٍ مع قائد فرقة الأمن التي وظّفتها لويدز براذرز ومع بضعة عناصر من مكتب التحقيقات الفيدرالي الذين كانوا قد احتلوا المكان.

كانت الشمس تميل للغروب حين كتب مذكّرة طويلة موجّهة إلى الآنسة هُوْ: قائمة بالإجراءات والتدابير الهادفة إلى تعزيز أمن الألماسة. حاول الاتصال بالفتاة الكورية، ولكن أيّاً من أرقام هواتفها لم يردّ. أرسل إليها رسالة إلكترونية وألحقها برسالة نصيّة ثمّ نزل نحو صالة العرض.

كان هناك زحامٌ شديد في غاردن كورت. كانت عملية بيع الألماسة قد تصدّرت قبل بضعة أيام العناوين الرئيسية لنشرات الأخبار والصفحات الأولى للجرائد، كما تكفّلت وسائل الإعلام بتحويل عرضِها إلى نزهة سياحية لا مفرّ منها خلال عطلة أعياد

الميلاد. أقلق هذا النوع من الازدحام مارتن، إذ جعل مهمّته أكثر تعقيداً بكثير.

اختلط بالحشود وأغمض عينيه لبرهةٍ قصيرةٍ، كما لو أنّه أراد التركيز على نحوٍ أفضل. كان يجب أن ينجح في اختراق ذهن اللصّ والتفكير مثله.

كيف كنتُ سأسرق الألماسة لو كنتُ أرشيبالد؟

بعد ظهيرة ذلك اليوم، عمل عقله دون توقّفٍ، معالجاً كميّة هائلة من المعطيات، على طريقةِ الحاسوب. وفي بداية تلك السهرة، بدا وكأن كلّ شيء يختلط في ذهنه، قبل أن يأخذ مكانه الصحيح تدريجياً، مثل قطع البازل.

كيف كنتُ سأسرق الألماسة لو كنتُ أرشيبالد؟

ومضت صورٌ في ذهنه: العلبة الزجاجية، عدد المخارج، الكم الهائل من الزوّار، النشاط المنتظم لحرّاس الأمن...

كيف كنتُ سأسرق الألماسة لو كنتُ أرشيبالد؟

وفجأةً، ظهر له الجواب بوضوح: لو كان أرشيبالد، لم يكن ليحاول أن يسرق مفتاح الجنّة أبداً!

لأنّ الأمر كان سهلاً جدّاً.

إنّها مسرحية! إنّه طعمٌ!

أدرك مارتن فجأةً أنّه لم يكن سوى بيدقٍ على رقعة شطرنج، يقوم بدورٍ في لعبةٍ لا يفهمها.

لم يرغب لا لويدز براذرز ولا الآنسة هُوْ في حماية الألماسة قطّ.

بل على العكس من ذلك، ما أراداه هو جذب أرشيبالد وإيقاعه في فخٍّ.

هذا البيع المفاجئ والضجة الإعلامية التي أثارتها لم يكونا سوى طعمٍ لإرغام أرشيبالد على أن يُلقي بنفسه في فم الذئب.

لا يمكن أن تكون الألماسة المعروضة هي الألماسة الحقيقية...

20

عاشقان

منحني أبي قلباً، لكن أنت من
جعلته ينبض.

أونوريه دو بلزاك

حين وصل مارتن إلى ساوساليتو، كانت الشمس تُلقي بآخر أشعتها على المحيط الهادئ، ملوّنة السماء والمحيط بلونٍ أرجوانيٍّ عابرٍ.

وجد مكاناً شاغراً في موقف السيارات الخاصّ بالقرية العائمة حيث تعيش غابرييل. يُعتَبَرُ هذا المكان الذي يضمُّ خليطاً متنوّعاً وملوّناً من منازلٍ فوق الماء وسفنٍ، أحد الأمكنة الأكثر غرابةً في كاليفورنيا، إذ أصبحت «مدينة المنازل العائمة» هذه أحد رموز الثقافة المضادة لستينيات القرن العشرين، حين استولى زمرة من الهيبيين والمهمّشين على هذه البقعة من الأرض لكي يبنوا فيها مجمّعاً سكنياً على شاكلتهم، من خلال إصلاح السفن القديمة، وترميم القوارب، وبناء المنازل على سطح الماء.

أما اليوم، فأصبحت المدينة أكثر برجوازيةً: فبعد تجديدها

وتجميلها من قبل مهندسين مشهورين، غدت أسعار المساكن باهظة، فحلّت سياراتُ الدفع الرباعي الصديقة للبيئة وسياراتُ البورش المكشوفة محلّ سيارات الجيب المهترئة وحافلات فولكسفاكن العائدة للهيبيين.

عَبَرَ مارتن الأرصفة التي اصطفت على طولها مشاتل الزهور والشجيرات والمقاعد الخشبية المصبوغة. كانت للكثير من المنازل العائمة واجهات زجاجية تسمح بالتطفل على حياة الناس الخاصّة: زوجان عجوزان يتناولان مشروباً على شرفتهما ويتحدّثان عن أحوال العالم، صبيٌّ يعمل على واجباته المدرسية منكبّاً على دفاتره، مراهقٌ يرقصُ وحيداً في غرفته على إيقاع أغنية لبريتني سبيرز، زوجان شابّان يتشاجران: «كنت عند عاهرتك مرّة أخرى، أليس كذلك؟»، «أوّلاً، ريتا ليست عاهرة»، «كنت عندها، إذاً»...

الناس، الزمن، الحياة...

تعرّف مارتن على البيت بفضل طائرة سيسنا المائية الراسية بالقرب من الجسر العائم الصغير المشترك بين مسكنين متجاورين. سلك رصيف القوارب إلى أن وصل إلى الشرفة و...

- ادخل، الباب مفتوح! صاحت له غابرييل عبر النافذة.

دفع الباب ووجد نفسه مباشرةً في غرفة المعيشة. كان للمكان سحرٌ خاص ويشيع منه جوّ من الدفء المريح. كانت باقة ضخمة من زهور الأوركيد الملوّنة تبثّ البهجة في الغرفة الملبّسة بألواحٍ من خشب السنديان، وكانت واجهة زجاجية مقوسة تتيح دخول الضوء الخافت للمساء.

- هل جئت لتعقد صلحاً؟ سألت وهي تستقبله.

- على نحوٍ ما.

- أهلاً وسهلاً بك في بيتي، إذاً.

مدّ لها قارورة نبيذٍ.

- حاولت أن أحضر لك هديّة مميّزة. . .

خفضت عينيها، وصاحت غير مصدِّقة:

- قارورة نبيذ شاتو-مارغو تعود إلى عام 1961! أأنت مجنونٌ؟!

- عثرتُ عليها في مخزن الخمر «السرّي» لفندق بالاس هوتيل.

- ماذا تعني بـ «عثرت عليها»؟

- سرقتها، قال موضحاً.

- لستَ أفضل منه، على ما يبدو لي!

آثر مارتن أن يتجاهل الملاحظة، مكتفياً بأن أضاف:

- يقال إنّها سنة استثنائية.

ولكن لم تقبل غابرييل أن تنجرّ إلى هذا الميدان.

- سوف أضعها في المطبخ وأُعيدها إلى الفندق في أقرب فرصة.

غابت بضع ثوانٍ، وتظاهر بأنّه شعر بالإهانة:

- طالما أنّ الأمر هكذا، لن أهديكِ أيّ شيء بعد الآن!

- كيف أمكنك الدخول إلى مخزنهم؟ سألت وهي تعود إلى الغرفة.

- لديّ خرائط الفندق.

- آمل ألّا تكون قد تركت وراءك آثاراً مثيرة للشبهات.

- لا، هذه ميزة الشخص المطَّلِع. . .

دعته إلى الجلوس، ولكنّه آثر البقاء واقفاً.

- هلا تساعدني في الاختيار؟ سألته وهي تشير إلى الرفّ المخصّص للموسيقى.

تجاهلت الآيبود الوردي المبهرج الموضوع على مكبّر الصور خاصّتها وحثّته على أن يختار من بين مجموعة الأسطوانات القديمة لوالدتها.

انخرط مارتن في اللعبة واستعادا انسجامهما القديم لبضع دقائق، وهما يتحدثان عن الموسيقى ويعلّقان على أسطوانات الفنانين الأسطوريين التي كانت فالنتين قد اشترتها في ذلك الوقت: جانيس جوبلين، فرقة البيتلز، فرقة بينك فلويد، ديفيد بوي، جوني ميتشل...

انتهى بهما المطاف إلى الاتفاق على أسطوانة بوب ديلان بعنوان لي ليدي لي.

وبينما كان مارتن يضع الأسطوانة على الإلكتروفون، علّقت غابرييل:

- إنه من حسن حظّك أنني هنا. فأنا أكون في العمل عادةً، في مثل هذا الوقت.

- لماذا عدتِ باكراً؟

- كان لديّ شيء لأفعله...

- ما هو؟ سأل وهو ينهض.

- هذا، قالت وهي تقبّله.

*

امتزجت أنفاسهما، وتلامست شفاههما، وتلاقى لساناهما بحثاً عن الإثارة.

لامست وجهه؛ وداعب رقبتها.

نزعت عنه سترته؛ وفكّ أزرار بنطالها الجينز.

نزعت عنه قميصه، الذي سقط على الأرضية؛ ورفع كنزتها، ولعق كتفيها، وتذوق بشرتها.

لاحظت وشمه الذي لم يكن موجوداً من قبل؛ تعرّف على رائحتها واستحضر الذكريات.

فخرج الزمن عن مساره، إذ لوّث الماضي الحاضرَ.

وطفى الخوف إلى السطح من جديد.

الخوف.

الموغل في الجسد، والقابع في ظلّ الروح.

الخوف الذي يتنامى.

الخوف الذي لا حدود له.

والذي وحده الحب يستطيع أن يقهره.

في البداية، الخوف يلطّخ كل شيء.

في البداية، الخوف يُخيف ويمنح الرغبة في الهروب.

ورغم ذلك، تتشابك أياديهما ويلتصق جسداهما الواحد بالآخر.

تتشبّث به كما تتشبّث بقارب نجاة.

يجد القوّة لكي يرسو في داخلها.

تتمكّن من أن تربط نفسها به.

تبحث نظرته عن نظرتها. يسحبها إليه ويتوقّف لكي يتأمّلها على ضوء أنوار الميناء: يلمع جسدها وسط الظلام وينير وجهه. تبتسم له، وترغب في أن تتألّق في عينيه. تمرّر يدها في شعره.

يمكن طبعاً اختزال قبلاتهما في تبادل لعابٍ وفي بضعة غرامات من مينا الأسنان تصطدم ببعضها.

بيد أنّه. . .

بيد أنّه، في طرفة عين.

ارتعش جسداهما وانحسر الخوف.

*

خرج مارتن إلى الشرفة أوّلاً، ملفوفاً بالشراشف والأغطية. كان الليل قد هبط، ولكن كان الطقس لا يزال جميلاً في هذه المدينة التي لا تشبه المدن الأخرى، المحمية من رياح المحيط الهادئ والمتمتّعة بمناخٍ مدهشٍ حوّل تلك الأمسية الشتوية إلى سهرة ربيعية.

نظر مارتن من حوله بصمت. أتاحت الشرفة إطلالة رائعة على المحيط. استقرّ رجلٌ مسن من الحي على رصيفٍ آخر، مع صنّارة صيد ومذياع. كان يستمع إلى افتتاحية أوبرا **لا ترافياتا**، ويلعب مع النوارس الضاحكة التي اندمجت صيحاتها الحادّة مع الأوبرا.

انتزعه رنينُ زجاجٍ من تأمّله.

جاءت غابرييل لتنضمّ إليه، ملتفّةً ببطانيةٍ ذات مربّعات، وفي يدها كأسان فارغان. قبّلته ووضعت رأسها على كتفه. ثمّ قالت مع ابتسامةٍ شقية:

– وماذا لو فتحنا قارورة النبيذ؟

– سأذهب لإحضارها! قال على الفور.

بقيت لوحدها على الشرفة وشعرت بقشعريرة بردٍ تسري في جسدها في حين سالت دمعةٌ على خدّها.

كانت هذه الدمعة قطرةً من الامتنان.

امتنانٌ للحياة، وللصدفة، وللقدر، وللكارما، وللعناية الإلهية، وللخالق العظيم الذي يتولّى أقدارنا، للرب نفسه. . . لقد عاد مارتن إلى حياتها، وكانت تعلم أنّ عودته أبدية هذه المرّة. وبكيمياءٍ غريبة،

أفضى التوافق بين جسديهما إلى انسجامٍ بين روحيهما. بات كلاهما جاهزين الآن، لا للبدء من الصفر، بل لمواصلة حبٍّ بقي في حالة سباتٍ خلال ما يقرب من خمس عشرة سنة. كان مارتن محقّاً حين قال إنّه لا يمكننا النظر بثقة إلى المستقبل ما لم نفهم الماضي ونرضى به.

لم يعودا مسافرَين بلا أمتعة. لم يعودا شخصين في العشرين من عمرهما. لقد عاشا، وعانى كلّ منهما من دون الآخر. تاه كلٌّ منهما من دون الآخر.

لقد حاولا، كلٌّ من جانبه، أن يحبّا أشخاصاً آخرين...

لكن كلّ ذلك انتهى الآن.

فبدءاً من هذه اللحظة، سوف تُخبره بكلّ شيء، وتشرح له كلّ شيء، بدءاً من السبب الحقيقي لتغيّبها عن موعدهما في نيويورك.

سوف تحدّثه عن عشّاقها أيضاً، عن ذلك الشعور الذي لطالما راودها منذ مراهقتها، بأنّها نوعٌ من الطعم، فريسة منخرطة في لعبة لم تكن ترغب في المشاركة فيها ولم تفُز فيها أبداً. لزمنٍ طويلٍ، كثيراً ما قالت «لا» للرجال، ثمّ كثيراً ما قالت لهم «نعم». لأنّه حين تفتقر إلى الثقة في نفسك، قد يعني قولك «نعم» لأحدهم أكثر من «لا» بكثير. كانت تعلم أنّ مارتن سوف يفهم ذلك...

أثناء عناقهما، سقطت دفاعاته، كما سقطت دفاعاتها.

لم يعودا بحاجة إليها، لأنّ كان لديهما الحب.

لم يعد بإمكان أي شيء أن يعكّر صفو سعادتهما.

ما عدا ربما...

– مساء الخير، يا غابرييل.

*

جفلت من تأثير المفاجأة.

ظهر وجه أرشيبالد في ضوء قنديلٍ صغير على شكل شعلةٍ.

- ماذا تفعل هنا؟

- جئتُ لنستأنف محادثتنا.

- ليس هذا المساء.

- يجب أن نفعل ذلك هذا المساء أو لن نفعله أبداً.

- لماذا؟

- سوف أشرح لكِ.

- لا، انصرف! مارتن هنا! قالت وهي تدفعه.

- رأيت ذلك، قال وهو يجلس على الأريكة.

استبدّ بها الهلع، فتوسّلت إليه:

- لا تفسد عليّ هذه السهرة، أرجوك.

- الأوراق بين يديكِ أنتِ الآن، يا غابرييل. إن أراد أن يعتقلني، فلن أقاوم هذه المرّة. اختاري ما تريدين: أن تتحدثي إلى والدكِ للمرّة الأخيرة أو ترسليه ليقضي ما تبقّى من أيامه في السجن.

- ولكن أين تريدنا أن نتحدّث؟

- لديّ فكرة، قال وهو يشير إلى الطائرة المائية الصغيرة.

- لماذا تطلب منّي ذلك؟ لماذا تطلب مني أن أختار بينك وبين مارتن؟

- لأنّ الحياة عبارة عن اتّخاذ الخيارات، يا غابرييل. ولكن أعتقد أنّكِ تعرفين ذلك...

ظلّت جامدة بلا حراك لثانيتين، مذعورةً مما طلبه منها أرشيبالد. ثمّ هرعت إلى داخل المنزل ونزلت راكضةً إلى الطابق السفلي.

- لقد وجدتُ القارورة! صرخ مارتن حين سمعها تقترب.

كان يهمّ بإغلاق الثلّاجة حين مرّرت غابرييل رأسها في فتحة الباب الموارب.

- اعذرني، يا حبيبي...

- ماذا؟

وقبل أن يستطيع فهم أيّ شيءٍ، أدارت المفتاح وحبسته في الغرفة.

- اعذرني، ردّدت بصوتٍ مكسورٍ وهي تبتعد لتلحق بأرشيبالد.

21

لقد أحبَّ أحدنا الآخر كثيراً

أن تحبّ شخصاً هو أن تسلبه روحه، وأن تعلّمه - في هذا الاختطاف - كم روحه عظيمة، وصافية، ولا تنضب. نحن جميعاً نعاني من ذلك: من أننا لا نُسلب بما يكفي. نعاني من القوى التي في داخلنا والتي لا أحد يجيد سلبها لكي يجعلنا نكتشفها.

كريستيان بوبان

ببطنها المكوّر وعوّاماتها الضخمة، بدت الطائرة المائية مثل بجعةٍ.

وضع أرشيبالد نظّارات رؤية ناعمة وجلس خلف أجهزة التحكّم في طائرة سيسنا في حين أجرت غابرييل الفحوصات الأخيرة بصمت. أدار المحرّك، وجعله يدور على نظام خفيف كي يعتاد على الآلة ويحمي المروحة من موجات الرياح المتقطعة التي كانت تجرف سطح المياه.

كانت السماء الليلية صافية، لكنّ النسيم الحادّ والأمواج جعلت كلّ مناورة حسّاسة، كما جعلت الطائرة تدور مثل دوّارة هواءٍ لتعيدها

إلى سرير الريح. ابتعد أرشيبالد بحذرٍ عن الجسر العائم إلى أن وجد منطقةَ إقلاعٍ المياهُ فيها أقلّ هياجاً. ضيّق عينيه ليركّز أكثر، حريصاً على تجنّب قطع الخشب وسواها من الحطام الطائفة على سطح الماء والتي قد تلحق الضرر بالعوّامات.

بينما كانت الطائرة المائية تكتسب القوّة، أدخل أرشيبالد الجنيحات ودفّة القيادة قبل أن يحرّر تدريجياً قوس العوّامات التي كانت تضرب الأمواج.

حين ضغط على مزوّد الوقود، تحوّلت الطائرة إلى حوّامة تداعب سطح مياه المحيط، ثم تركت المياه، منتقلة من عنصرٍ إلى آخر برشاقة.

ثمّ ارتفعت، وحلّقت فوق وسط المدينة وصفّها من ناطحات السحاب، وجسر خليج أوكلاند، وجزيرة الملاك، قبل أن تتّجه جنوباً.

*

كان مارتن يستشيط غضباً، حافي القدمين وبالسروال الداخلي. لم تكن في الغرفة السفلى أيّ نوافذ، وكانت الفتحة الوحيدة هي الباب المعدني الذي أغلقته عليه غابرييل. ضرب البابَ بكتفه بقوة عدة مرات، لكنّه لم ينجح سوى في إلحاق الأذى بنفسه.

كانت غابرييل قد أهانته، مرّة أخرى. لقد جرّدته من دفاعاته، وجعلته يخفّف من حذره ثم خذلته، بضع دقائق فقط بعد أن سلّمته نفسها.

لم يفهم ما جرى، لن يفهم أبداً.

إلى ألمه وخوفه، انضاف الآن حقدٌ شديد.

وإذ أُحبِط إحباطاً عميقاً، أمسك بقارورة النبيذ وألقى بها على اللوح الفولاذي.

*

بلغت طائرة السيسنا سرعتها الانسيابية. كانت قد تجاوزت بلدة كارميل وتوجّهت نحو جنوب خليج مونتيري، محلّقةً فوق طريق المناظر الخلّابة المحصور بين غابة لوس بادريس ومنحدرات بيغ سور الصخرية، التي تسقط في المحيط مباشرةً.

طوال مدّة الطيران، لم توجّه غابرييل الكلام إلى والدها ولا مرّة واحدة، مكتفيةً بمساعدة أرشيبالد في القيادة. شعر اللصّ بمشاعر الألفة مع هذا الطريق الذي تعرّج بمنعطفاتٍ حادّة على طول شاطئٍ صخري، مهجور ومقطّع، على انخفاض بضع عشرات من الأمتار. ومن حينٍ إلى آخر، تاهت نظرته في المنبسط البحري وتخيّل دون أن يراها الحيتان الرمادية التي تهاجر بصمتٍ من آلاسكا إلى المكسيك لكي تذهب وتتكاثر في فضاءاتٍ أكثر لطفاً. أمّا غابرييل، فلم تكن تفكّر سوى بمارتن...

قبل أن يصل إلى سان سيمون بقليلٍ، خفّف أرشيبالد من سرعة الطائرة وبدأ بالهبوط. كانت غابرييل تعلم أنّ المناورة حسّاسة، لأنّ اتّجاه الرياح كان يتغيّر باستمرار.

رفع أرشيبالد الجزء الأمامي من الطائرة قليلاً لكي يحاول الهبوط في مدخل خليجٍ صغير. كانت السماء مليئة بالنجوم والقمر منيراً جدّاً بحيث انعكست صورة الطائرة المائية على سطح الماء كما لو أنّها تنعكس في مرآةٍ، الأمر الذي جعل تقدير ارتفاعها صعباً. ورغم هذا التأثير المخادع، نجح في أن يهبط بهدوء.

كان أرشيبالد لصّاً بارعاً، إلا أنّه كان طيّاراً رائعاً أيضاً...

*

كان الخليج الصغير يسبح في مياهٍ هادئة تلمع ببريقٍ خلّابٍ. لم يكن من الممكن الوصول إلى الشاطئ إلا عبر البحر، الأمر الذي أتاح للمكان أن يحتفظ بطابعه البري.

- كان هذا الخليج أحد الأماكن المفضّلة لدى أمّكِ، أوضح لها أرشيبالد وهو يرسو على الضفّة.

- كيف تعرّفتَ على أمي؟ سألته غابرييل وقد شعرت بنفسها ممزقةً بين الغضب والفضول.

- كنتُ طيّاراً آنذاك وعملتُ لديها خلال أحد فصول الصيف، أقصدُ لدى المنظّمة الإنسانية التي كانت قد أسّستها: **أجنحة الأمل**. التقيتُ بها هناك، خلال مهمّة في أفريقيا.

تلاطمت موجةٌ خفيفة على سطح المحيط وداعبت نسمةٌ فاترة وجهيهما.

- هل كان حبّاً من النظرة الأولى؟

- لقد أحببتها من النظرة الأولى، أكّد لها. أمّا هي... فقد استغرق الأمر معها أكثر من خمس سنوات.

- خمس سنوات!

- قبل أن نلتقي، كانت والدتكِ مغرَمةً بمغنٍ معروفٍ في إحدى فرق الروك: رجلٌ حقيرٌ أذاقها المرّ على مدى سنوات...

زاغ بصرُ أرشيبالد لبضع ثوانٍ، وشرد ذهنه في سبعينيات القرن العشرين، في متاهاتِ ماضٍ لا يزال أليماً.

- رجلٌ أخذ منها الكثير دون أن يعطيها شيئاً يُذكَر، أردف، خاصّةً وأنّه...

- خاصّةً وأنّه ماذا؟ سألت غابرييل لكي تحثه على أن يُكمل جملته.

- أرغمها على الإجهاض مرّتين.

عمّ الصمت من جديد، أكثر ثقلاً ممّا قبل. ثمّ، ودون تنسيقٍ مسبق، قفزا معاً في الماء وتوجها نحو الشاطئ.

وبينما كانا يربطان الطائرة المائية لمنعها من الانجراف، واصلت غابرييل:

- وهل ظلّت مع هذا المغنّي لفترةٍ طويلة؟

- ست سنوات على ما أظن. على فتراتٍ متقطّعة.

- ست سنوات!

ولأنّ الأسئلة ارتسمت في نظرتها، تابع أرشيبالد:

- كلّما عذّبها هذا الرجل أكثر، ازداد حبّها له. الحياة غريبة، أليس كذلك؟ يجري كلّ شيء أحياناً كما لو أنّ المرء يعاقِب نفسَه على خطأً يصعب عليه التعرف عليه هو بنفسه.

سارا بضع خطواتٍ على الشاطئ. كان جمال المكان يقطع الأنفاس: شاطئ طبيعي على شكل هلالٍ، محميٌّ من الريح بجرفٍ صخريٍّ كبيرٍ.

- وأنت، ماذا كنت تفعل في تلك الأثناء؟

- كنتُ أنتظرها. كنتُ أنتظرها وأعاني من رفضها.

- وحافظتَ على الأمل رغم ذلك؟

- في البداية، نعم. أما في النهاية، فلم أعد أتأمّل الشيء الكثير.

أعجبها صدق أجوبته.

- أتألّمتَ إذاً؟

- نعم، أقرّ لها. بل كان ذلك... أكثر من ألمٍ. كان ذلك نوعاً من التمزّق، من الوجع، من العذاب.

- لكن كيف استطعت أن تحبّ، من أوّل نظرة، امرأةً لم تكن تعرفها؟

- أعرف أنه أمرٌ يصعبُ فهمه، اعترف لها أرشيبالد. بدا لي أنني أرى فيها أشياءَ لا يراها الآخرون، خصالاً لم تكن هي نفسها تعيها. بدا لي أنني رأيت فيها المرأة التي أصبحتْها لاحقاً.

- هذا لا يحدث سوى في الروايات والأفلام، يا أبي...

- بل قد يحدث في الواقع أحياناً، أكّد لها.

- وكيف تفسّر أنّها استغرقت خمس سنوات حتى تُدرك أنّك أنت رجل حياتها؟

نظر في عينيها مباشرةً.

- لأنّ المرء يخشى أن يحَبّ. لأنّ الحياة معقّدة وتتسلى بنا بحيث ترسل لنا الشخص المناسب في اللحظة غير المناسبة.

- وماذا عنك أنت، هل أحببتَ قبل أن تحبّها؟

- قبل أمّكِ، كنتُ متزوّجاً من ممرّضة في الصليب الأحمر لبضع سنوات.

- وقد تركتَها من أجل أمّي؟

- لا، لقد تركتها لأنني كنتُ أفكّر بأمّكِ طوال الوقت، حتى وإن لم تكن تُريدني حينذاك. تركتها لأنّ الخيانة تبدأ في العقل أوّلاً.

- وفي النهاية، وبعد خمس سنوات، قالت لك أمّي نعم.

- هي لم تقل لي نعم، بل قالت إني شفيتُها فحسب.

- شفيتَها؟

- نعم، وصدّقيني أن هذه كلمة تساوي كّل الـ «أحبّك» في العالم.

*

أشار إلى شلالٍ يسقط في المحيط مباشرةً في نهاية الخليج الصغير. كان الشاطئ محاطاً بأشجار السيكويا العملاقة، وأشجار الصفصاف، والكينا، والدلب.

- هنا، في هذا الخليج الصغير، تعانقنا للمرّة الأولى ومارسنا الحبّ للمرّة الأولى. وقد تكونين خُلِقتِ هنا.

- لا بأس، اعفني من التفاصيل!

سحب سيجاراً من جيب قميصه.

- استمتعي بالمنظر لأنّك لن ترينه مجدداً كما هو الآن: إنّهم في صدد بناء طريقٍ للمشاة لكي يربطوا الخليج بموقف سيارات منتجع ني ديغل.

- هذا محزن، قالت غابرييل بأسف.

- إنّها الحياة، قال بنبرة استسلامٍ وهو يُداعب الغلاف المرن والرطب لسيجاره الهابانو.

- لا شيء يدوم، أهذا ما تحاول أن تقوله لي؟

- نعم، كلّ شيء زائل، كلّ شيء يمرّ وكلّ شيء ينكسر. وحدها اللحظة الراهنة مهمّة.

قطع أرشيبالد طرف سيجاره.

- لا، هناك أشياءٌ تصمد، هناك أشياء تدوم، قالت غابرييل، مخالفة إياه الرأي.

- مثل ماذا؟

- الحبّ؟ قالت بعفوية.

- الحبّ! ليس هناك ما هو أكثر هشاشةً وأكثر عرضة للزوال منه. الحبّ مثل نارٍ في يومٍ ماطر: عليكِ دائماً أن تحميه، وأن تغذّيه، وأن تعتني به، وإلّا فهو ينطفئ...

- هناك قصص حبٍّ تدوم.

- لا، ما يدوم هو الألم الذي يبقى بعد الحبّ.

- لا يعجبني ما تقوله.

- إذا كنتِ تخافين من سماع بعض الأجوبة، فمن الأفضل ألا تطرحي بعض الأسئلة.

عابسَ الوجه، أشعل أرشيبالد عود ثقاب، ثمّ عود ثقابٍ آخر ليُشعل طرف سيجاره بالكامل.

- ولكنّك لا تزال تحبّ أمّي!

- نعم، قال موافقاً.

- إذاً، طالما أنّك تتذكّر شخصاً أحبَّك ولا تزال تحبّه، فأنت تمنح الديمومة للحبّ.

- هذا ما يريد الناس سماعه، ولكنني لا أؤمن به حقاً.

امتنعت غابرييل عن مواصلة هذا النقاش، شاردةَ الذهن. اكتفت بالنظر إلى طرف سيجار والدها الذي كان يشع في العتمة. كانت الرياح لا تزال دافئة وغناء الأمواج على الرمل عذباً جدّاً.

- هناك شيءٌ أُريدُ أن أعطيكِ إياه: رسالة، قال وهو ينبش في الحقيبة الجلدية التي كان يحملها على كتفه.

- رسالة؟

- نعم، ذلك الشيء الذي كان الناس يستخدمونه ليكتبوا إلى بعضهم قبل اختراع الرسائل الإلكترونية...

- أعرف ما هي الرسالة! أنا أيضاً، تلقّيتُ رسائل، ماذا تظنّ!
- آه نعم، من صديقكِ مارتن...
- هلا توقّفت عن ذلك!
- باختصار، أردتُ أن أعطيكِ هذه الرسالة لكي تحتفظي بشيءٍ من تلك الفترة. أمّكِ هي من أرسلتها إليّ في بداية علاقتنا، كوسيلة لكي تخبرني بأنّها تريد طفلاً منّي. هذه الرسالة لم تفارقني أبداً وأفضّل أن تقرئيها حين تكونين وحدكِ.

لكنّ غابرييل تصرّفت كما لو أنّها لم تسمع هذا الجزء الأخير، فجلست على الرمل وفتحت المغلّف.

*

كان أرشيبالد مستلقياً على الشاطئ، مستنداً على كوعيه، يمعن النظر إلى خطّ الأفق.

كانت غابرييل جالسةً إلى جانبه، وقد أنهت لتوّها قراءة الرسالة. كانت قد تخفّفت من عبءٍ ثقيل، وبدأت تبكي. ذرفت نفسَ دموع الأمس. دموعٌ من الامتنان. الامتنان لكونها حظيت بالفرصة لكي تعرف والديها وتتمكّن من أن تحبّهما أخيراً.

سحب أرشيبالد ببطء أنفاساً قصيرة من سيجاره، مستمتعاً بنكهته الحلوة التي علقت بحليماته الذوقية. لطالما أراد أن يعيش اللحظة الراهنة... وحاول الآن تمديد القليل من الوقت المتبقّي له...

- لديّ ورمٌ في البنكرياس، يا غابرييل.

خرجت الكلمات تلقائياً، بعدما ظلّت حبيسة لزمنٍ طويلٍ.

- ماذا؟

تأمّل بحنانٍ رقّة وجهها التي غطته الدموع.

- أنا مصاب بالسرطان في طوره الأخير. سوف أموت.

نظرت إليه غير مصدّقة.

- سوف تموت؟

- بعد بضعة أسابيع. ثلاثة أشهر على أبعد تقدير.

- هل أنت متأكّدٌ من ذلك؟ هل أجريت كل الفحوصات الطبيّة الممكنة؟

- نعم، ليس هناك ما يُمكن فعله، يا حبيبتي.

دسّت رأسها بين يديها مذهولة لسماع الخبر، ثمّ سألت بصوتٍ مخنوق:

- منذ متى تعرف ذلك؟

شعر بغصّة في حلقه.

- بيقينٍ؟ منذ يومين...

مسحت عينيها وصرخت وقد انتابها الغضب:

- ولكن... لماذا عدتَ إذاً؟ لقد عثرتُ على أبي منذ بضع ساعات بالكاد وعليّ أن أفارقه الآن! لماذا تفعل ذلك بي؟

- لأنّه كان عليك أن تعلمي أنني لم أتخلّ عنكِ. لقد كنتُ حاضراً طيلة هذه السنوات، في الظلّ.

- ماذا تعني بـ «في الظلّ»؟

وضع يده على ذراعها كي يهدّئ من روعها، ثمّ روى لها كيف أنّه، منذ ما يقرب من عشرين سنة، حاول أن يتواصل معها لكي يُخبرها بالحقيقة. أخبرها عن خجله وشعوره بالذنب وحزنه أمام عجزه، كما حدّثها عن الخطط التي كان يضعها كل عام لكي يقضي بضع دقائق معها يوم 23 ديسمبر.

اضطربت غابرييل واستحضرت بعض الذكريات التي كانت لا

تزال واضحة في ذهنها. لقاءاتٌ أثّرت فيها دون أن تعي ذلك تماماً، والتي أخذت الآن معنى مختلفاً تماماً.

مندوب المبيعات ذاك الذي كان ينتقل من منزلٍ إلى منزلٍ والذي باعها حاسوباً محمولاً بجودة عالية. ومن أحدث طرازٍ مقابل مبلغٍ زهيدٍ، في الأسبوع الذي تعطّل فيه حاسبوها.

كان هو!

ذاك المهرّج في الشارع، الفيلسوف، والذي أثّر فيها عرضُه وأبهرها لكثرة ما شعرت أنّ جملَه كانت موجّهة إليها.

هو كذلك...

ذاك البستاني الذي كان يقلّم شجيرات الورود في حديقة الشاي اليابانية والذي جعلها تقهقه ضحكاً، كما لو أنّه استشعر حزنها في يومٍ صعب.

هو أيضاً...

الكثير من اللقاءات العابرة التي لم تترك لها اليوم سوى الحسرات. آه لو أنّها عرفت ذلك على نحوٍ أبكر...

لكن امتزجت الحسرات بالغضب حين ذكر أرشيبالد المحقّق الخاص الذي لجأ إليهِ والذي تعقّب أثرها منذ سنوات.

- كيف تجرّأت على أن تتدخّل في حياتي دون إذنٍ منّي؟ سألته غاضبةً.

- أردتُ أن أساعدكِ فحسب، قال أرشيبالد مدافعاً عن نفسه.

- تساعدني؟

- أنتِ لستِ سعيدةً، يا غابرييل.

- ماذا تعرف عن ذلك؟

فتح الحقيبة الجلدية الموضوعة بجانبه وأخرج منها عدداً من

«الأدلّة»: نسخة عن دفاتر اليوميات الخاصّة بابنته، صور لها وهي عائدة من سهرات لم تكن فيها مع نفس الرجل أبداً. كان قد استعلم عن بعضهم: رجالٌ مضرّون، أنانيون، عنيفون أحياناً، قساة أحياناً، بحيث أنّه اضطرّ لأن «يتكفّل» بأمرِ أحدهم بنفسه.

- لماذا تفعلين ذلك، يا حبيبتي؟

رفعت نحوه عينين كادتا تفيضان دمعاً. شعرت بالحرج من حاجتها لأن تبرّر لوالدها أمراً هي نفسها لم تفهمه.

- أرأيت، هذا ما كنت تقوله لي للتوّ: يحاول المرء أحياناً معاقبة نفسه على شيءٍ ما، دون حتى أن يعرف ما هو...

*

كانت غابرييل غارقةً في الصمت، وأرشيبالد في ذكرياته.

كان يفكر في ليلة الربيع الأولى التي أمضاها هنا مع فالنتين، وحيدين في العالم، بين أزهار السوسن والخشخاش.

وهو على أعتاب غسق حياته، أصبح بوسعه أن يؤكّد أنّه لم يعرف قطّ ما هو أقوى من الشعور بأنه واحد مع الآخر. هذا الشعور النادر جدّاً بأنه لم يعد لوحده.

نظر إلى ابنته، وقال دون لفٍّ أو دوران:

- مارتن هذا، هل تحبّينه حقاً؟

تردّدت للحظة في الردّ على سؤاله، ثمّ قالت:

- نعم، إني أحبّه منذ زمنٍ طويلٍ. إنّه مختلفٌ تماماً عن الآخرين.

- وهو، هل يحبّكِ؟

- أعتقد ذلك، ولكن بعد ما فعلتَه به الآن، سيكون من الصعب أن أستعيده...

- أنا لم أفعل شيئاً، قال أرشيبالد بابتسامةٍ خفيفة. أنتِ من حبستِه في القبو عارياً! نعم، أؤكّد لكِ أنّ هذا لن يعجبه وأنك ستعانين الأمرّين في سبيل استعادته!

- يبدو وكأنّ هذا يُسعدكَ!

هزّ كتفيه وسحب نفساً جديداً من سيجاره.

- إذا كان يحبّكِ حقاً، فسوف يعود. بل من الجيد أن يرى أنه ما من شيء مسلم به في هذه الحياة. فأنا كافحتُ على مدى خمس سنوات قبل أن تقول لك أمّكِ «نعم»!

- لكن هو ينتظرني منذ ثلاثة عشر عاماً. . .

- الانتظار ليس مثل الكفاح! قال أرشيبالد بنبرة جازمة.

هزّت رأسها؛ فحاول أن يفهم:

- لماذا جعلتِه ينتظر كلّ هذه السنوات، إذا كنتِ تحبّينه؟

- لأنني كنتُ خائفةً، أجابت وكأنه أمر بديهي.

- مما كنت خائفةً؟

- خائفة من كلّ شيء.

- من كلّ شيء؟

- خائفة من ألّا أكون على المستوى المطلوب، خائفة من ألا أجيد حبّه، خائفة من أن أستيقظ ذات يوم ولا أعود أحبّه، خائفة من ألا أنجب له الأطفال الذين يرغب فيهم. . .

استاء أرشيبالد، لكن دون أن يظر ذلك. ذكّرته كلمات ابنته بكلمات فالنتين. كلماتٌ لم يكن يرغب في سماعها لأنّها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة إليه.

- وأنت، ما رأيك بمارتن؟ تجرّأت أن تسأله غابرييل.

- بغض النظر عن أنّه حاول أن يضع رصاصتين في بطني؟

- نعم، قالت مبتسمة.

عبس أرشيبالد وقال:

- لا أدري إن كان قادراً على ذلك.

- قادراً على ماذا؟

- قادراً على أن يحميكِ.

- ولكنني لستُ طفلةً! قالت غابرييل بانزعاجٍ. أنا لست بحاجة إلى رجلٍ ليحميني.

- هذا هراء! المرأة بحاجة إلى...

- كفّ عن خطابك هذا الذي يعود إلى عصرٍ ولّى! قاطعته. ثمّ إنّ مارتن أقوى ممّا تعتقد.

- لا أصدّق ذلك! فهو لم يستطع أن يحميكِ منّي. وحتى أنتِ، استطعتِ أن تحبسيه في القبو عارياً!

- هل تعتقد أنني فخورةٌ بذلك؟

لم يكن أرشيبالد قد انتهى من عتابه:

- أجده ليّناً جدّاً، وحساساً جدّاً، وعاطفيّاً جدّاً...

- أنتَ أيضاً كنتَ عاطفيّاً حين كنتَ في نفس سنّه، لاحظت غابرييل.

- تماماً، وقد تسببت العواطف في أن أفقد أعصابي، ومنعتني من التصرف بحكمة. وبذلك منعتني من أن أحمي أمّكِ...

- ماذا تعني؟

- ما كان عليّ أبداً أن أنقلها إلى ذلك المستشفى، ما كان عليّ أبداً أن أُطلق النار على ذلك الطبيب، ما كان عليّ أبداً أن أُفسِدَ حياتي وحياتكِ، ما كان عليّ أبداً أن...

ارتعش صوته قبل أن يتحوّل إلى بكاءٍ.

أصبحت الرياح أبرد فجأةً واندفعت بين الأشجار مصدرةً حفيفاً خافتاً.

وللمرّة الأولى في ثلاثة وثلاثين عاماً، استطاع أبٌ وابنته أن يحضنا أحدهما الآخر أخيراً.

22

رسالة فالنتين

إنّ حياة كلّ واحدٍ منّا ليست محاولة
للحب. إنّها المحاولة الوحيدة.

باسكال كينيار

سان فرانسيسكو، 13 أبريل 1973

أرشي، حبيبي،

أوّلاً، الليل.
أوّلاً، الأسوأ.
كلّ ما يؤلمنا.
كلّ ما يقتلنا.
مخاوفنا، أشباح ماضينا.

إنّهم هنا جميعاً وننظر إليهم وجهاً لوجه: حبّك الأوّل، حبّي الأوّل، دوّار الفراغ، المغنّي «ذو الوجه الوسيم» الذي حطّم قلبي وجسدي والذي كنتُ لأتبعه حتى الجحيم رغم ذلك، زوجتك الأولى: تلك الملاك الشقراء التي أثّرت فيكَ كثيراً بإيثارها.

من المهمّ أن نجيد النظر إليهم وجهاً لوجه مع كلّ إغوائهم، ومن المهمّ أيضاً أن نعرف أنّهم لن يهجرونا بسهولة، وأنّه سيأتي يومٌ يتّصل بي فيه المغني لكي يخبرني بأنني دائماً في باله وأنّه متاحٌ، وأنّه كتب لي أغنيةً ليقول لي «أحبّكِ» وأنّه إذا كان قد نعتني بالعاهرة آخر مرّة رآني فيها وصفعني على وجهي، لم يكن ذلك هو حقاً وأنه فعل ذلك لأنّه يحبّني...

وقد أصدّقه لبضع ثوانٍ...

وسيأتي يومٌ تلتقي فيه بالممرّضة الشقراء من جديد وستتذكّر أنّه كانت هناك أحياناً صباحاتٌ رائعة، ولبضع ثوانٍ سوف ترغب في أن تحميها من جديد، هي التي أحبّتكَ كثيراً لأنّها اعتقدت أنك «مختلف عن الآخرين»...

من المهمّ أيضاً أن نعرف أنّ الإغواء سيأخذ أشكالاً أخرى: أنّه سيكون هناك رجالٌ آخرون يسعون إلى الحصول على نظرةٍ منّي، وأنّه ستكون هناك نساءٌ أخريات ستؤثّر فيك هشاشتُهنّ.

نعم، إنّها كلّها هنا، أمامنا: التهديدات السابقة والآتية أيضاً، لكن الأشباح والشموس الخادعة والإغراءات السهلة سينتهي بها الأمر إلى التلاشي. ومع ذلك فإنّها تقاوم وتتجمّع حول بعضها لتشكّل سحابةً كثيفة. تهتزّ الأرض، يرعد برقٌ عاصفٌ فيرجّ الأبوابَ والنوافذَ، تاركاً الرياح تندفع إلى الغرفة. هبوبه القويّ ليس دعابة، ولكنّه يطرد الضباب المهدِّد بعنفٍ.

ثمّ تهدأ الرياح، ونجد نفسينا وحدنا، في شقّتنا الصغيرة

العائمة فوق الماء. تغمر أشعةُ الشمس أرضيةَ الغرفة. أمسك بيدكَ، وتمسك بيدي. تبتسم لي وأبتسم لك. لقد عَبَرَنا الخوفُ دون أن يُصيبنا.

تنعكس صورتنا في المرآة: صورة زوجين لا يزالان شابّين والحياة أمامهما.

كما أن الأجمل ما زال آتياً. الأجمل هو السنوات الآتية، عشرات السنوات التي تنفتح أمامنا.

نحن لا نزال شابّين، ولكننا عشنا ما يكفي من الأشياء لكي نعرف ثمن السعادة.

نحن لا نزال شابّين، ولكننا نعلم أنّ في لعبة الحياة الكبرى، الأكثر تعاسةً هم الذين لم يجازفوا بأن يكونوا سعداء.

وأنا لا أريد أن أكون واحدة منهم.

فيما مضى، لكي يحافظن على رجالهنّ، كانت النساء يقبلن بتحالفاتهم وينجبن لهم الأطفال.

أما اليوم، فلم يعد هذا يجدي نفعاً.

فما الوسيلة التي تبقّت لنا لكي نحافظ على من نحبّ؟

لا أعلم.

كلّ ما يمكنني أن أعدكَ به هو أنني سأكون إلى جانبك دائماً، مهما حدث.

في السرّاء والضرّاء

في الغنى والفقر

طالما تريدني إلى جانبك

مكتبة
t.me/soramnqraa

سأكون هنا.

أبتسم لك وتبتسم لي. النور يعمّ المكان. نورٌ جميل جدّاً...

في منزلنا، هناك نافذة سحرية أيضاً. نافذة تسمح لنا أحياناً بأن نلمح صوراً من المستقبل.

نتردد في البداية. نحن بخير، نحن معاً، هنا والآن. نشعر بدفء شديد، قلبانا وجسدانا يمتزجان، وشفتاك تلتصق بشفتيّ.

لماذا نجازف بالرغبة في معرفة الغد؟

- هيّا، تعال يا أرشي! هيّا بنا!

نقترب من النافذة يداً بيد وننظر عبرها:

هذان الاثنان هما نحن، في غرفة مستشفى.

هذا مستشفى، ولكننا لسنا مريضين. يملأ الغرفة دفء جميل، ونور لطيف، وباقات من الزهور. ثمة مهدٌ في الغرفة، وثمة وليدٌ جديد في المهد.

تنظر إليّ وأنظر إليك. عيوننا تلمع. هذا الطفل هو طفلنا.

إنّها بنتٌ. تفتح عينيها. هي أيضاً تنظر إلينا، وفجأةً، نصبح نحن الثلاثة واحداً موحداً.

فجأةً، نصبح عائلة.

أرشي، حبيبي، حين تكون معي، لا أخاف من شيء.

أرشي، حبيبي،

أحبّك.

فالنتين

23

في منتصف الطريق إلى الجحيم[1]

القدر ينتظر دائماً في زاوية الشارع. مثل بلطجيٍّ أو مومس أو بائع بطاقات اليانصيب: وهي تجسيداته الثلاث المفضّلة. ولكنه لا يلحق بك إلى المنزل. يجب الذهاب للقائه.

كارلوس رويث زافون

24 ديسمبر

الساعة الخامسة صباحاً

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد حين عادت غابرييل إلى منزلها في قلب القرية العائمة في ساوساليتو. تمنّت بكلّ جوارحها أن يكون مارتن قد انتظرها وأنهما سيتمكنان من إجراء محادثة هادئة. لم تعد لديها الرغبة في الشجار، ولم تكن تطمح سوى إلى الثقة والتفهم المتبادلين. أرادت أن تشرح له تصرفها بأيّ ثمن، وأن تنفتح عليه وتبوح له بما كشفه لها أرشيبالد.

كان باب القبو مكسوراً، وكانت شظايا زجاج منثورةً على

(1) Halfway to hell - بالإنجليزية في النص الأصلي.

الأرض، وبقع النبيذ تلطّخ الجدران، والثلاجة مقلوبة على الأرض. خمّنت غابرييل أنّ مارتن استخدمها لخلع القفل.

لقد نجح في تحرير نفسه وغادر قبل عودتها.

دون أن تعقد الكثير من الآمال، اتّصلت بفندقه وتركت رسائل على هاتفه المحمول، ثمّ استقلّت سيارتها وذهبت في جولةٍ على أماكن شبابهما.

ولكن لم يكن مارتن في أيٍّ من هذه الأماكن هذه المرّة.

لطالما نعتقد أنّ بعض العلاقات قويّة جدّاً بحيث تستطيع مقاومة كلّ شيء، ولكن هذا ليس صحيحاً. الثقة التي تتلاشى، والتعب، والخيارات الخاطئة، والشموس الخادعة للإغواء، والأصوات الساخنة للأنذال القذرين، والسيقان الطويلة للعاهرات القذرات، ومظالم القدر: كلّ هذه تساهم في قتل الحب. في هذا النوع من المعارك غير المتكافئة، فرص الانتصار ضئيلة وتمثل الاستثناء أكثر من كونها القاعدة.

لدى وصولها إلى الشاطئ الصغير بالقرب من الميناء، جلست غابرييل على الرمل ونظرت إلى الأفق. كانت متعبة، وتشعر بوخزٍ وحرقةٍ في عينيها الجافّتين. نفس الألم، نفس الوحدة، نفس المعطف على كتفيها دائماً.

يقول البعض إنّ المرء يتعرف على الحب العظيم حين يدرك أنّ الشخص الوحيد في العالم الذي يمكنه أن يواسيه هو نفسه الشخص الذي آلمه. كان مارتن حبّها العظيم.

وقد خسرته.

*

الساعة السادسة صباحاً

كانت الشمس بالكاد قد أشرقت على ساحة آلامو سكوير، الحديقة العامّة الصغيرة للحيّ السكني في منطقة ويسترن أديشن، التي تطلّ على المدينة وتمنح إطلالة بانورامية على جسر باي بريدج وقبّة مبنى البلدية.

كان يحيط بالحديقة صفٌّ من المنازل الأنيقة ذات العمارة الفيكتورية: منازل **السيّدات المصبوغات**، وقد سُمّيت بهذا الاسم بسبب ألوانها الباستيل: الليلكي، والأخضر الفاتح، والأصفر الفاتح...

كان أرشيبالد يعرف، مثل الجميع، هذه المنازل النموذجية في سان فرانسيسكو، ولكنّه لم يكن ليخطر له أبداً أنّه سيتسلّل إلى أحدها ذات يوم.

كان المنزل ملكاً لستيفن براونينغ، وهو أكبر المساهمين في مجموعة كورتلاين التي طرحت الألماسة للبيع. وما أن أصبح داخل المنزل، حتى عطّل اللص بسهولة نظام الإنذار ونظام المراقبة بالكاميرات قبل أن يتوجّه نحو سلّم مخفي. كان يفكّر في سرقة مفتاح الجنّة منذ سنوات عديدة، ولكنّه لطالما قاوم هذه الرغبة. وأن يقوم بذلك اليوم، بطريقة حرفية وهادئة، في الوقت الذي كان العشرات من المغفّلين ينتظرونه على قدم وساق حول فخٍّ غير متقنٍ، منحه شعوراً رائعاً. وصل إلى ممرٍّ طويلٍ فيه منحنى يؤدّي إلى مدخل غرفةٍ محصّنة. **غرفة آمنة!** كانت هذه آخر الصيحات لدى الأثرياء: تهيئة خزنة عملاقة يمكنهم اللجوء إليها في حال تعرّضهم لعدوانٍ خارجي.

بمفاصله القويّة وبابه المصفّح، كان للمخبأ الفولاذي هيئة ملجأ

مضادٍ للهجمات الذرية. كانت مكاتبُ الهندسة المعمارية قد استغلت الموجةَ الأمنية لعهد بوش، ووعدت المالكينَ الأثرياء ببناء قلعة منيعة لهم. لكن كان أرشيبالد يعلم أنّ الرمز السري لن يصمد سوى بضع ثوانٍ أمام صندوقه الإلكتروني، ولكنّه أراد اليومَ أن يأخذ وقته، وأن يُطيل متعة ما سيكون بلا شكّ سرقته الأخيرة، وذلك من خلال القيام بالعمل على الطريقة القديمة. وضع صندوق العدّة على الأرض، وأخرج منها ترسانة كاملة من الأدوات وكذلك جهاز راديو من الطراز القديم، وعلى أنغام **سوناتا تشيلو** لباخ، باشر العمل كما كان يفعل في الأيام الخوالي.

*

فُتحَ الباب مع صريرٍ معدني.

اشتعل عدد من مصابيح النيون في نفس الوقت، باعثةً ضوءاً مبهراً في الحجرة.

قطب أرشيبالد حاجبيه. في وسط الغرفة، كان رجلٌ وامرأة يجلسان ظهراً لظهر وقد تمّ تقييدهما وتكميمهما. كان العجوز ستيفان براونينغ ملفوفاً في روبٍ منزلي مفتوحٍ على بطنٍ متدلية، يدير ظهره لعشيقته، الآنسة الحسناء هُوْ، المثيرة مثل بطلة قصة مانغا يابانية في لباس نوم من الساتان الفيروزي.

- أهذا ما تبحث عنه؟

جفل أرشيبالد قبل أن يلتفت فجأةً.

كان مارتن مستنداً إلى جدار الممرّ، يدير الألماسة بين أصابعه. لمع مفتاح الجنّة بالصفاء البرّاق لحجر القمر.

حلّ التقبّلُ تدريجيّاً محل الإنكار والغضب على وجه أرشيبالد.

على مدى ثلاثين عاماً من السرقة والسطو، كانت هذه المرّة

الأولى التي يسبقه فيها أحدٌ. ومع ذلك، لم يكن متفاجئاً. ألم يسبّب هو نفسه هذه المبارزة؟ ألم يختار هو نفسه خصماً جديراً به، مع المخاطر التي ينطوي عليها ذلك؟

- إنّها جميلة، أليس كذلك؟ قال مارتن وهو يترصّد ردّ فعل أرشيبالد من خلال موشور الألماسة.

ضحك أرشيبالد ضحكة خفيفة:

- يُقال إنّها تجلب النحس لمن يستولي عليها بطريقة غير شريفة. ألا يُخيفكَ ذلك؟

- كلا. على أيّة حال، لم يعد لديّ ما أخسره، أكّد مارتن.

هزّ أرشيبالد رأسه. لم يكن يعجبه هذا النوع من الآراء القاطعة.

فتح مارتن جانبَي سترته ليُريه أنّه لا يحمل سلاحاً وليست لديه النية في إلقاء القبض عليه. كانت عيناه محتقنتين بالدم، ومحمرتين بسبب قلّة النوم، والغضب من الإهانة، والرغبة في الانتقام.

في الغرفة الآمنة، كانت الآنسة هُوْ وعشيقها العجوز يطلقان صرخات مخنوقة بسبب الشريط اللاصق على فميهما، ولكن لم يعرهما أيّ من «المتبارزين» أيّ انتباه.

- وماذا نفعل الآن؟ سأل أرشيبالد.

وكما لو أنّه يلعب لعبة طرّة أو نقش، ألقى مارتن الألماسة في الهواء بيدٍ والتقطها باليد الأخرى، ساخراً من اللصّ قبل أن يخضعه للتحدّي:

- إذا كنتَ تُريدها، تعال وخذها...

وانطلق دون أن يلتفت إلى الوراء، صاعداً بسرعة السلّم الضيّق وشديد الانحدار المؤدي إلى الطابق الأرضي.

تنهّد أرشيبالد. لم يفهم ما الذي أراده مارتن من تصرّفه بهذه الطريقة. تساءل إن كان تحت تأثير المخدّرات أو الكحول، إذ بدا له قبل قليل أنّه فاحت من ثيابه رائحةُ كحول. ماذا فعل يا ترى في الوقت الذي كان فيه محبوساً في القبو؟ كان شيءٌ واحدٌ مؤكّداً على أية حال: لقد فقد الفتى صوابه. كان هو بنفسه منهكاً - ظهره مرضوضٌ، ويشعر بالغثيان، ومفاصله هشّة - ولكنّه لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً سوى أن يخوض التحدّي ويقوم بمطاردته. كان عليه أن يفعل ذلك من أجل غابرييل، وأن يحاول قدر المستطاع تقليل الأضرار، والتي كان هو مسؤولاً عن وقوعها إلى حدٍّ كبير. وعلى أيّة حال، كان عليه ألّا يبقى في هذا المنزل.

*

لفّ الضباب مدينة سان فرانسيسكو منذ الصباح: حامت كتلةٌ كثيفةٌ وكالحة فوق المدينة وأغرقتها في أجواء أفلام الجريمة.

كان مارتن قد «استعار» سيارة الآنسة هُوْ من طراز لكزس الحمراء الكرزية وسار على طول شارع ديفيساديرو باتجاه المحيط، وشقّت في أعقابه درّاجة أرشيبالد النارية سُحب الدخان التي بدت وكأنها تغوص في الغيوم.

للمرّة الأولى، أدرك أرشيبالد أنّه ذهب بعيداً جدّاً، بحيث مواجهته مع مارتن بلغت ذروةً خطيرة، إذ لم يعد هو نفسه يعلم من هو الصياد ومن هو الفريسة. أراد أن يتحكّم بالأمور في الظلّ، أن يحمي غابرييل ويفرض سعادتها. ثمّ أراد أن يختبر مارتن، حبّها العظيم الأوّل والحقيقي. ولكن لا يمكننا اللعب بمشاعر الناس وإسعادهم رغماً عنهم. فبسببه، ترك مارتن الخدمة في الشرطة

وتجاوز الخطّ الأصفر مرّات عديدة. كان عليه الآن أن يعترف له بالحقيقة وينقذ ما يمكن إنقاذه، لمصلحة غابرييل.

في شارع لومبارد، حاول أن يستعيد زمام المبادرة، فبضربةٍ على دوّاسة الوقود، أصبح على مستواه، فسارت المركبتان جنباً إلى جنب لمسافة بضع عشرات الأمتار، في تماسٍ لا يترك شبراً من الأرض بينهما.

كان هناك على الأرجح شيءٌ بيولوجي في تطرفهما: هذا التستوستيرون اللعين الذي يحوّل الرجال إلى وحوشٍ مفترسة، ويمنحهم الرغبة في السيطرة. ولكن كان كلٌّ من مارتن وأرشيبالد يخوض أيضاً معركة فريدة من نوعها، مواجهة شخصية مع ذاته، مع عزلته، مع خوفه، مع حدوده، ومع حافزه نحو الموت.

يبحث أحدهما عن أبٍ ليقتله، كوسيلة لغسل عار حبٍّ فاشل.

ويلاحق الآخرَ المرضُ والموتُ ولا يعلم كيف يخفّف من وطأة شعورٍ بالذنب ينهشه منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

كان كلاهما في مأزقٍ.

اندفعت السيارة الرياضية بأقصى سرعتها على الطريق 101 العابر للمساحات المشجرة لحديقة بريسيديو.

لم تستحقّ المدينة أبداً لقب **مدينة الضباب** كما استحقته في ذلك الصباح، إذ رأى أرشيبالد، على ضوء المصابيح الأمامية لسيارته، ضباباً أبيض يتراقص ويغرق المركبات ويُخفي الأرصفة والإشارات الطرقية.

أبطأ من سرعته ليحكم سيطرته على السيارة من جديد. لم تكن لديه أدنى فكرة عن اللعبة التي يلعبها مارتن ولا عن المكان الذي يسعى إلى استدراجه إليه.

كان مدى الرؤية لا يتعدى الثلاثة أمتار. حين غادرت الليكزس الحديقة لتسلك جسر البوابة الذهبية، كان الضباب كثيفاً جدّاً بحيث بدا وكأنّه ابتلع الجسر. حتى أنّ رمز سان فرانسيسكو وفخرها فقد لونه الأحمر الزاهي الجميل. ظلّ الضباب متواصلاً، مسدلاً تموّجاته الشاحبة التي تلوّت مثل العرائش حول البناء المعدني والآلاف من حباله.

أبطأ مارتن من سرعته عند منتصف الجسر وانتهى بالتوقّف في الصف الأيمن.

تردّد أرشيبالد للحظةٍ، ثمّ توقّف بدوره خلف السيارة، وهو مدركٌ تماماً بأنّه يعرّض نفسه لخطرٍ جسيم. انهالت عليهما جوقة من الأبواق احتجاجاً وتوبيخاً، إذ كان ممنوعاً منعاً باتّاً التوقّف هناك، وفي غضون بضع دقائق، كان رجال الشرطة سيحضرون للتدقيق في هويتهما وتحرير ضبط مخالفة بحقّهما.

رغم أن الوقت كان صباحاً، كان الجسر مزدحماً جدّاً بحركة السير عشية عيد الميلاد تلك، وكانت السيارات تتلاقى وتتقارب وتتجاوز بعضها على المسارات الستّة لحركة المرور، وسط جلبة من أصوات المنبّهات الصوتية، والإساءات اللفظية، وصرير العجلات.

صفق مارتن الباب وقفز فوق الإشارات الفاصلة للمسار الخاصّ بالدرّاجات الهوائية. ومثلما فعل أرشيبالد قبل ستّة أشهر مع لوحة الصورة الذاتية لفان غوخ، لوّح مارتن بالألماسة بيدٍ مهدّدة، كما لو أنّه سيلقي بها في المحيط.

– هل أنت مستعدٌّ لأن تذهب وتحضرها من الجحيم؟ صرخ بصوتٍ حماسي.

ولكنّ جسر البوابة الذهبية لم يكن جسر بون نوف...

كان بحجمه العملاق يجعل المرء يبدو صغيراً مثل طيفٍ يكاد يكون غير مرئي، وارتفعت أبراجه أكثر من مئتي مترٍ فوق بحرٍ مهدّدٍ وهائج.

التحق أرشيبالد بدوره بالمسار الخاصّ بالدرّاجات الهوائية.

- هيّا، عد أيّها الفتى الصغير، لا ترتكب حماقةً! صاح بأعلى صوته لكي يغطّي على صخب الرياح.

كان حاجز الأمان عالياً، ولكن ليس بما يكفي لمنع عشرات الأشخاص امن الانتحار كلّ سنة بالقفز من الجسر.

- هل ستأتي أم لا؟ سأل الشابّ بنفاد صبر.

لمعت ألماسة مفتاح الجنّة بين أصابعه ببريقٍ قويٍّ شكّل هالةً في غاية الروعة، رغم الضوء الرمادي.

ثمّ دسّ مارتن الألماسة في جيبه وبدأ يتسلّق الدرابزين.

- لا تهمني هذه الألماسة! صاح أرشيبالد.

انحنى تلقائياً لكي ينظر إلى الأسفل. كان المشهد ذا جمالٍ مرعبٍ ويسبّب الدوّار. ودون النظر إليها، كان بإمكانه تخيّل الأمواج التي تتكسّر على الأعمدة الهائلة المتجذّرة في مياه المحيط.

كان أرشيبالد يعلم أنّ الوقت يداهمهما، فالجسرُ مزوّدٌ بالكاميرات، وفي غضون ثوانٍ قليلة، قد يسمعان صوت صفارة الإنذار لسيارةٍ شرطة أو دوريةٍ من دوريات مديرية مراقبة الطرق.

- هيا، لا تفسد كلّ شيء، يا بني! انزل من هناك! يجب أن نتكلّم!

اقترب أكثر وحاول أن يسحب مارتن من طرف سترته، ولكنّ الفتى الفرنسي تمكّن من دفعه. وفي اللحظة التي عاود فيها أرشيبالد المحاولة، سدّد إليه مارتن لكمةً قويّة. وفي محاولة لتفادي ضربته،

تشبّث أرشيبالد بخصمه وتعارك الرجلان ملتحمين جسداً لجسد وتبادلا اللكمات إلى أن انقلب مارتن فجأةً إلى الوراء. حاول اللصّ أن يُمسكَ بخصمه الأصغر سنّاً منه، ولكن هذا الأخير تخبّط وجرّ أرشيبالد، دون أن يريد ذلك فعلاً، إلى التيارات الباردة جدّاً للمحيط الهادئ.

*

قفزةٌ في الفراغ من ارتفاع سبعين متراً.

سقوطٌ استغرق أكثر من أربع ثوانٍ.

أربع ثوانٍ هو وقتٌ طويل، خاصّة إذا كنت تعلم أنّ هذه هي اللحظات الأخيرة من حياتك.

في نهاية الأربع ثوانٍ هذه، يرتطم جسدك بالماء بسرعة تفوق المئة كيلومترٍ في الساعة، فتكون الصدمة عنيفةً كما لو أنّك تسقط على الإسمنت.

خلال الأربع ثوانٍ هذه، لا ترى حياتك كما لو أنها فيلمٌ يدور بالعرض السريع.

خلال الأربع ثوانٍ هذه، تشعر بالخوف.

خلال الأربع ثوانٍ هذه، لا تشعر سوى بالندم والحسرة.

وحتى إذا كنتَ ألقيت بنفسكَ عمداً، هناك دائماً لحظة، في خضم السقوط، تكون فيها مستعدّاً لأن تُعطي أيّ شيءٍ لكي تعود إلى الوراء.

هكذا هي الحال.

دائماً.

أثناء سقوطه، قال أرشيبالد في نفسه إنّه بذل قصارى جهده، ولكنّه أخفق في كلّ شيء. وإنّه لم يُجِد سوى تدمير حيوات مَن حوله

وإنّه إذ أراد أن يُصحّح أخطاءه، ارتكب أخطاءً أكثر فداحةً وفظاعةً. ولذلك، وفي محاولةٍ أخيرة كي لا يموت بمرارة وتحسّر، ضمّ الفتى الصغير بقوّة بين ذراعيه.

أمّا مارتن، فهو فكّر في غابرييل. كانت لغزه وحبّه وجرحه. دائماً وإلى الأبد. لأنّ هناك آلامٌ في الحياة لا يمكننا أن نُشفى منها.

في لحظة الرحيل، فكّر في الرسالة التي كان قد كتبها لها بسذاجةِ ومثاليةِ شابٍ في العشرين من عمره:

حين أغمض عينيّ وأتخيّلُ حالنا بعد عشر سنوات، تراود ذهني صورُ سعادةٍ: شمس، وضحكات أطفال، ونظرات متواطئة لزوجين لا يزالان عاشقين...

يا للسذاجة! لم تكن هناك شمسٌ قطّ، وإنّما بالكاد بعض الومضات، قد تكون قويةً ولكنها عابرةٌ دائماً.

لم يكن هناك سوى الألم، والسواد، والخوف، و...

الجزء الثالث

رفقة الملائكة

2

الهروب الكبير

ليطير بشكلٍ أفضل، أخفّ قليلاً
حدقتاه الفضيتان، شعرُنا المتطاير في الريح
قبل الطوفان، قبل أن تغادر
الزلّاجة الطريق وثمّ . . .
. . . لا شيء، انتهى الأمر.

كلاريكا، ممرّ الهروب

حي نوب هيل
24 ديسمبر
الساعة الثامنة صباحاً

دوّت جميع صفّارات الإنذار ودخلت سيارة الإسعاف مسرعةً إلى موقف قسم الطوارئ في مستشفى لينوكس.

انقسم الفريق الطبّي الذي استقبل الجريحَين إلى مجموعتين للاعتناء بهما.

- ماذا لدينا؟
- رجلٌ في الرابعة والثلاثين من عمره في غيبوبة، لديه عدّة إصابات.

- ماذا لدينا؟
- رجلٌ في الستين من عمره في غيبوبة، لديه عدّة إصابات.

بدت نقالتا الجرحى الموضوعتان على عربَتين وكأنّهما في سباقٍ في ممرّات المستشفى لمَنْ سيصل أوّلاً إلى غرفة العمليات، ومنْ سيُنقَلُ أوّلاً لإجراء التصوير الإشعاعي، ومن سيخضع لعملية جراحية على يد أمهر جرّاح... كما لو أنّ المبارزة بين مارتن وأرشيبالد استمرت حتى أبواب الموت.

- لقد ألقى بنفسه من فوق جسر البوابة الذهبية قبل ثلاثين دقيقة...

- تمّ انتشاله من قبل الشرطة البحرية...

- كسور عديدة...

- ... سقط من ارتفاع 70 متراً من فوق الجسر.

- ... بعد الصدمة بأقلّ من ثلاث دقائق...

- ... العديد من الجروح الداخلية.

كانت طواقم الإنقاذ قد وضعت أنابيب التنفّس للرجلين في مكان الحادث. وإذ تمّ حقنهما بالمسكّنات وتأمين تهوية جيّدة لهما، وُضِعَ لكلّ منهما طوقٌ رقبيٌّ لتثبيت الفقرات وكذلك قسطرةٌ تتدلّى منها خمس قنواتٍ لحقن السوائل والمصلّ.

خيوطٌ رفيعة كانت لا تزال تربطهما بالحياة، ولكن إلى متى؟

*

شاءت الصُدَف، في ذلك الصباح، أن يعبر إليوت كوبر، أحد أقدم الجراحين في المستشفى، سيراً على الأقدام موقف سيارات قسم الطوارئ في نهاية ليلة طويلة من المناوبة، في نفس اللحظة التي كانت سيارة الإسعاف تنقل فيها الرجلين المنتشلين من المحيط بعد سقوطهما من أعلى برج البوابة الذهبية.

قبل اثنين وثلاثين عاماً، كانت إيلينا، المرأة التي أحبّها، قد

ألقت بنفسها من نفس الجسر اللعين لكي تضع حدّاً لحياتها. ومنذ ذلك الوقت، كان هذا الرمز لمدينة سان فرانسيسكو يُمارس عليه سحراً مؤلماً قاده إلى النضال بنشاطٍ من أجل إقامة حاجز وقاية فوق الدرابزين، منعاً لحالات الانتحار. وهو إجراءٌ لم يتمّ تفعيله بعد.

استمع إليوت تلقائياً إلى حديث الفريقين الطبيين اللذين كانا ينشطان حول الجريحين ولاحقهما بنظره: شابٌّ فرنسي اسمه مارتن بومون، ورجلٌ في نفس سنّه هو، مجهول الهوية.

قاده نوعٌ من الحاسة السادسة إلى العودة لكي يقدّم يد المساعدة لزملائه. وكمديرٍ للمستشفى، كان يعلم أنّ في ليلة عيد الميلاد لا يكون عدد الطاقم كبيراً. ولكن كان عليه التأكّد من مسألةٍ أيضاً. هل هذا الطيف الذي لمحه، الممدّد على النقّالة... هذا الوجه ذو الأنف المعقوف وهذا الشعر الأشيب... هذا الرجل ذو الهوية الغامضة... هل يمكن أن يكون...

حين انحنى الطبيب الجرّاح على العربة الثانية، تعرّف على صديقه القديم، أرشي بلاكويل، فقرّر إليوت مباشرةً أن يدوّن اسمه على لائحة الأطباء المناوبين. ارتدى لباس العمل، وقبل أن يُطفئ هاتفه المحمول، اتّصل برقم غابرييل.

*

دائماً ما تكون المجازر من نصيبي أنا...

لاحظت كلير جولياني، إحدى الطبيبات المتدربات المناوبات، بفزعٍ عمقَ جِراح مريضها، وهو شابٌّ فرنسي بالكاد يكبرها سنّاً: كانت فقرات عموده الفقري وأضلاعه مكسورة، وكذلك ساقاه وإحدى قدميه، وكان عظم الترقوة مهشّماً، وقفصه الصدري غائراً، ووركه وكتفه الأيمنان مخلوعين. هذا ناهيك عن الإصابات الداخلية

التي كان ينبغي معالجتها على نحوٍ عاجل: تمزّق الطحال وانقطاع الأمعاء. . .

*

أُصيب إليوت بالذعر: كان عنف الارتطام شديداً بحيث كاد أن يقتل أرشيبالد. كان هذا الأخير قد سقط على ظهره، كما لو أنّه أراد أن يحمي مارتن وأن يتحمّل هو الشدّة الأكبر للصدمة.

انكسرَ حوضه وعموده الفقري، وتحطّمت كليتاه، وتمزّق كبده ومثانته، وتورّم دماغه، بالإضافة إلى الكثير من الإصابات الداخلية. ولا داعي لأن يكون المرء طبيباً حتى يُدرك أنّه في هكذا حالة، تكون فرص النجاة شبه منعدمة، وأنّه حتى في حال حدوث معجزة، فإنّ الإصابات في العمود الفقري وفي النخاع الشوكي لن تسمح أبداً لصديقه بأن يمشي على قدميه من جديد.

*

في منتصف الظهيرة

في ممرّ خدمة غرف العمليات حيث سُمِحَ لها بالانتظار، حاولت غابرييل أن تلمح حركات الجرّاحين الذين كانوا يحاولون إنقاذ رجلَي حياتها خلف الأبواب الزجاجية الكبيرة.

حتى وإن لم تكن تعلم كيف قام مارتن وأرشيبالد بالإقدام على «قفزة الموت» هذه من فوق الجسر، إلّا أنّها كانت مقتنعةً بأنّ هذه النهاية المأساوية تندرج في منطق مواجهتهما التي لا رحمة فيها.

لقد رفضت أن تختار بينهما، وأرادت أن تحتفظ بكليهما، وأن تقرّبهما أحدهما إلى الآخر، وأن تحبّهما معاً، ولكن ربما هناك مبارزات لا يمكن لنهايتها المحتومة أن تكون غير الموت.

*

الساعة الثامنة مساءً

كان الليل قد حلّ منذ عدّة ساعات حين خرجت كلير جولياني من غرفة العمليات، متعبةَ الوجه وغائرةَ العينين. ألقت قفازتيها وصدريتها في الحاوية قبل أن تنزع طاقية الجراحين التي حرّرت شعرها المبلّل بالعرق. بدت متعبةً. نزلت فوق عينيها خصلةُ شعرٍ بنفسجية اللون، ولكنّها لم تفعل شيئاً لترفعها. أخذت فنجان قهوة من موزّع المشروبات الآلي وخرجت إلى موقف السيارات. كان الجو قد أصبح أكثر برودة في ذلك المساء، الأمر الذي لم يكن ليضايقها. لم تكن قد وصلت إلى سان فرانسيسكو إلّا منذ بضعة أسابيع، وكانت قد اشتاقت إلى مانهاتن. كانت قد سئمت عذوبة الحياة المزعومة هذه، وهؤلاء الناس اللطفاء والجذابين، وهذه الروح الإيجابية التي تشوب كلَّ شيء. هي لم تكن أياً من كلّ ذلك: لم تكن لا لطيفة ولا جذابة ولا إيجابية. كانت تعاني من إحباطٍ مستمرٍّ وتفضّل قسوة شتاء نيويورك على فتور كاليفورنيا. تثاءبت، وأحسّت بحرقةٍ في عينيها: إنّه التعب الناجم عن إجراء العمليات الجراحية طيلة النهار والإحباط الناجم عن أنّ كلّ ذلك لم يسفر عن الشيء الكثير. كان «السيّد ذو الوجه الوسيم» قد أُصيب بأضرارٍ بالغة وكانت حالته مزرية: إصابة في الوجه، كدمة رئوية، استرواحٌ صدري. . . ونظراً لنتائج التصوير الإشعاعي، كانت على استعدادٍ لأن تراهن بأنّه سوف يتعرّض لنزيفٍ دماغيٍّ في الليل. وفي هذه الحالة، سينبغي إجراء عملية جراحية جديدة لن ينجو منها على الأرجح، نظراً لحالته. وحتى إذا خرج من غيبوبته، كيف لها أن تصدق أنّ سقوطاً عنيفاً كهذا لم يُحدِث إصابات في عموده الفقري ستجعله مشلولاً شللاً تامّاً؟

نزعت لاصقة النيكوتين الملصقة على ذراعها من شدّة غضبها، ثمّ نبشت في درج سيارتها بحثاً عن علبة سجائر قديمة.

استندت إلى غطاء كومة الخردة خاصّتها - سيارة فولكس فاغن «خنفساء» قديمة مطلية عمداً بلونٍ بنفسجي قبيحٍ - وأشعلت سيجارتها الأولى منذ شهرين، بمزيجٍ من الاستسلام والتحدّي.

تعالَ أيّها النيكوتين القذر، تعال واقتلني ببطءٍ...

سيجارةٌ في يدها اليمنى، وهاتفها في يدها اليسرى: كل ما هي مدمنة عليه. كانت كلير قد ألقت نظرات قلقة على هاتفها البلاكبيري طوال النهار، على أمل رؤية الضوء الأحمر الصغير وهو يومض في إشارةٍ إلى استلام رسالة إلكترونية أو رسالة نصّية. كانت تنتظر مكالمةً أو إشارةً من رجلٍ. رجلٌ كانت قد هربت منه بمغادرتها مدينة نيويورك. رجلٌ أحبّها، ولكنّها لم تقل له «أُحبّكَ» أبداً. رجلٌ أساءت التصرّف إليه. رجلٌ خانته وخيّبت أمله وجرحته. فقط لكي ترى إن كان سيستمرّ في حبّها رغم ذلك. فقط لكي ترى إن كان قادراً على تحمّل الأسوأ. لأنّها لم تكن تعرف كيف تحبّ بغير هذه الطريقة. ربّما سيأتي يومٌ، إذا ظلّ هذا الرجل، وإذا تحلّى بالصبر والإصرار على انتظارها، ستتمكّن فيه من أن تفتح له قلبها وأن تقول له الكلمات التي قد تغيّر كلّ شيء.

أمسكت بهاتفها وتفحّصت سجلّاته. لم يكن الرجل قد اتّصل بها منذ أسبوعٍ. ربّما يكون هو الآخر قد تخلّى عنها، مثل الآخرين. حاولت أن تطرده من ذهنها واتّصلت تلقائياً بخدمة الإنترنت في المستشفى. نقرت الرابط تلو الآخر، فوقعت على أطروحةٍ أشرف عليها إليوت كوبر موضوعها الحوادث على جسر البوابة الذهبية، علمت من خلالها أنّ ألف ومئتين وتسعة عشر شخصاً قد انتحروا

بإلقاء أنفسهم في المحيط منذ افتتاح الجسر عام 1937: أي ما يقرب من عشرين شخصاً كلّ عام. ومن بين هؤلاء الألف ومئتين وتسعة عشر شخصاً، نجا سبعة وعشرون شخصاً فقط!

اثنان في المئة فقط...، فكّرت بحزنٍ.

لأنّها كانت تعلم من خلال الخبرة أنّه من الصعب تكذيب هذا النوع من الإحصائيات. مكتبة

*

الساعة الثامنة والربع مساءً

الصفير المتكرّر لسونار غوّاصة.

غرفة باردة بإنارةٍ زرقاء: وحدة الإنعاش في مستشفى لينوكس.

عربتان فولاذيتان تفصلهما مسافةٌ بضعة أمتار.

بين العربتين، جلست امرأة على كرسيٍّ، منحنية الظهر، ممسكة بوجهها بين يديها، منهكة من كثرة البكاء.

حارسة، حارسة ليلية.

على العربتين، رجلان، بعيونٍ مغمضة، في حالة غيبوبة.

رجلان تعاركا بدل أن يحاولا التفاهم.

رجلان أحبّ كلٌّ منهما، بطريقته الخاصّة، نفسَ المرأة.

أو بالأحرى لم يعرفا كيف يحبّانها.

*

الساعة الثامنة والنصف مساءً

سحقت كلير جولياني سيجارتها الأخيرة وزرّرت معطفها العسكري ذا الياقة المرصّعة بدبابيس ضخمة فضيّة اللون. من الناحية النظرية، كانت مناوبتها قد انتهت. إنّه مساء الرابع والعشرين من ديسمبر، وستبلغ الثلاثين من عمرها. لو أنّها فتاة طبيعية، لاحتفلت

مع عائلتها أو مع حبيبٍ، أو حتى في صالة المناوبة التي زيّنها الأطباء المتدرّبون بهذه المناسبة. لكن لم تكن كلير تحب النشاطات الاجتماعية. لم تكن تحبّ سوى الحصرية المؤلمة للعلاقات بين شخصين، وقد تعلّمت، إن تعذّر ذلك، أن تكتفي بالعزلة التي تساهم مهنتها في الحفاظ عليها. مهنةٌ كانت بحكم قربها من الموت تدمّرها شيئاً فشيئاً كلّ يوم، وتتيح لها رغم ذلك أن تنسج علاقات غير مرئية مع بعض مرضاها. علاقاتٌ تُبقيها واقفةً على قدميها، وتبدو لها، في أمسياتٍ كهذه، أنّها صلةٌ وصلِها مع الإنسانية.

ظاهرياً، كانت قد نجحت في الحياة. فقد كانت طبيبة جرّاحة، وبتخصيص بعض الوقت والاهتمام، كان بوسعها أن تكون جميلة وأن تلعب دور البطلة في الحياة اليومية على طريقة مسلسل **تشريح غراي**، بجسدٍ جذاب وعقلٍ مثير. ولكنّها لم تكن كذلك...

نظرت إلى شاشة هاتفها من جديد. لا ضوء أحمر يومض.

وماذا لو اتّصلت، هي، به؟

ماذا لو خاطرت بإظهار ضعفها أمام رجلٍ؟ لقد فعلت ذلك ذات مرّة، منذ زمنٍ بعيدٍ، وخرجت من التجربة ممزّقةً ومحطّمةً ومدمّرةً مثل أرضٍ محروقة، وكانت قد وعدت نفسها بألّا تعيش هكذا تجربة من جديد، ولكن مع التقدّم في العمر، أدركت أنّه إذا كان المرء يستطيع أن يتأقلم مع شعوره بالذنب، فمن الأصعب بكثير أن يتأقلم مع شعوره بالندم.

استعرضت على الشاشة الصغيرة قائمة جهات الاتصال لتتوقّف عند الرقم الخاصّ بالاسم السرّي Him[1].

---

(1) «هو» بالإنجليزية، وقد أتت بالإنجليزية في النص الأصلي.

وضعت إصبعاً مرتعشة على زرّ الاتّصال وأعطت نفسها بضع ثوانٍ إضافية للتفكير، ثمّ بدفعٍ من قلبها، قرّرت أن تخطو الخطوة حين. . .

وصلت سيارة إسعاف مسرعةً وتوقّفت أمام الأبواب الأوتوماتيكية لتنزل نقّالة عليْها شابّة صغيرة في السنّ، غائبة عن الوعي، ووجها ملوّثٌ بسيلان كحل الرموش.

اقتربت كلير. لماذا لم يكن هناك أحدٌ لاستقبال الجريحة؟

انحنت على النقّالة تلقائياً. كانت الصبيّة ترتدي بنطال جينز منخفض الخصر (منخفض جدّاً)، وقميص رياضي زهري اللون ضيّق (ضيّق جدّاً).

- ماذا لدينا؟ سألت أحد المسعفين.

- فتاةٌ مراهقة في الرابعة عشرة حاولت أن تنتحر بابتلاع مواد سامّة: كلورات الصوديوم، والغليفوسات، وخماسي كلور الفينول.

سأل صوتٌ هامسٌ من بعيد: «كلير، هل أنتِ بخير؟». خفضت عينيها نحو هاتفها المحمول. كان صوته، صوته هو. تردّدت لنصف ثانيةٍ ثمّ اختارت أن تُطفئ الجهاز لكي تهتمّ بأمر الجريحة «خاصّتها».

محاولة انتحار حقيقية في سنّ الرابعة عشرة. . .

لقد عاد الماضي ليطاردها من جديد بطريقة غريبة جدّاً هذا المساء.

25

منطقة المغادرة

لا تفكّر بالأشياء التي لا تملكها؛ بل قم بتعداد أثمن النعم التي تمتلكها، وفكّر كم كنت ستسعى إليها لو لم تكن ملكك.

ماركوس أوريليوس

سوادٌ.

سوادٌ.

سوادٌ.

همسٌ:

... حبيبي ...

سوادٌ.

طنينٌ.

صفير منتظم لغوّاصةٍ.

نَفَسٌ قويّ وإيقاعي مثل تنفّسٍ آلي.

ضوءٌ يُلمَح ثمّ...

فتح مارتن عينيه بصعوبة. كان غارقاً في العرق، وكان رأسه ثقيلاً وتنفّسه بطيئاً، وكان جفناه غائرين ومليئين بسائلٍ لزجٍ ودبقٍ،

وكان وجهه ساخناً جدّاً. مسح عينيه بكمّه ونظر من حوله. كان في مطارٍ، مسترخياً في أريكةٍ معدنية في صالة مغادرة. استقام في جلسته وفزّ واقفاً على قدميه.

ألقى نظرةً على ساعة يده: كانت الساعة تشير إلى الثامنة وعشر دقائق صباحاً، يوم 25 ديسمبر.

في مقعدٍ إلى جانبه، استيقظت فتاةٌ مراهقةٌ بشعرٍ أشقر خفيف بنفس الطريقة المؤلمة. لاحظ ملامحها الفزعة، وكحل رموشها الذي سال على وجهها وقميصها الرياضي الزهري.

أين كان؟

تقدّم نحو الواجهة الزجاجية. كانت المحطّة الجوية عبارة عن ضوءٍ وفضاءٍ: كاتدرائية مستقبلية من الزجاج والفولاذ، قبّة شفّافة بيضاوية الشكل يتقدّم أحد أطرافها في البحر مثل سفينة ضخمة. انتظرت طائراتٌ فضيّة مصطفة على مدارج الإقلاع أن تنطلق في رحلة طيرانها. كان المبنى الغارق في ضوءٍ حارّ وذهبيّ يشبه فقاعةً من الكريستال موضوعة بالقرب من الماء، حيث لا ينبعث أيّ ضجيج خارجي.

الجنّة؟ الجحيم؟ المطهَر؟ لا، حتى حين كان طفلاً يذهب إلى مدرسة يوم الأحد للتعليم الديني، لم يكن مارتن يؤمن بعقائد الكنيسة ولا بعرضها التبسيطي.

ماذا إذاً؟ حلمٌ؟

لا، كان كلّ شيء دقيقاً جدّاً وواضحاً جدّاً، بحيث لم يكن سوى الحقيقة.

قام بتدليك صدغيه ورقبته بإبهاميه. كان يذكر كلّ ما فعله خلال الساعات الأخيرة: خيانة غابرييل، سرقة الألماسة، عراكه فوق

الجسر مع أرشيبالد، سقوطهما من علوّ سبعين متراً. لم يحلم بكل هذه الأحداث، لذا لا بدّ أن يكون... ميّتاً.

حاول أن يبلع القليل من ريقه، لكنّ حلقه كان جافّاً. مسح العرق من على وجهه.

في نهاية صفّ بوّابات الصعود إلى الطائرات، لاحظ حانة مشروبات تطلّ طاولاتها على مدارج الطائرات: **مقهى البوابة الذهبية**.

اسمٌ مقدّر، قال لنفسه وهو يتقدّم نحو المنضدة التي وقفت خلفها فتاةٌ سمراء رائعة ذات عينين فاتحتين، ترتدي سروالاً قصيراً وقميصاً بلا كمّين مقوّراً.

- ماذا يمكنني أن أقدّم للسيّد؟

- أوه... القليل من الماء، هل هذا ممكن؟

- مياه غازية أم معدنية؟

- هل لديكِ ماء إيفيان؟

مرّرت يدها في شعرها اللامع ونظرت إليه بازدراء:

- بالطبع.

- وكوكا كولا أيضاً؟

- من أين أنت قادم؟!

دفع - 10 دولارات! - ثمن قارورة الماء وعبوة المشروب الغازي وعاد إلى صفّ الكراسي المعدنية. كانت الفتاة المراهقة ذات القميص الرياضي الزهري لا تزال هناك، ترتجف وتصطكّ أسنانها. ناولها مارتن قارورته من الماء، معتقداً أنّها تموت عطشاً.

- ما اسمكِ؟

- ليزي، أجابت بعد أن تجرّعت نصف القارورة دفعةً واحدة.

- هل أنتِ بخير؟

- أين نحن؟ سألت، باكيةً.

تجاهل مارتن السؤال. كانت تصطب عرقاً، وجسمها يرتعش. بضعفها وهشاشتها، ذكّرته بكاميل، الفتاة الصغيرة التي اعتنى بها على مدى عدّة سنوات. ترك لها علبة المشروب الغازي وانصرف لبعض الوقت ليشتري شيئاً من متجرٍ للتذكارات.

لدى عودته إليها، قدّم لها قميصاً مع قلنسوة عليه شعار جامعة بيركلي.

- البسي هذا، وإلّا ستصابين بالبرد.

ارتدت القميص بعد إشارة خجولة من رأسها، أرادت على الأرجح من خلالها أن تشكره بلغة المراهقين التائهين.

- كم عمركِ؟ سألها وهو يجلس إلى جانبها.

- أربع عشرة سنة.

- أين تُقيمين؟

- هنا، في سان فرانسيسكو، بالقرب من باسيفيك هايتس.

- هل تذكرين آخر شيء قمتِ به قبل أن تجدي نفسكِ هنا؟

مسحت ليزي الدموع المنهمرة على وجهها.

- لم أعد أعرف. كنتُ في بيتي... بكيتُ كثيراً ثمّ ابتلعتُ أشياءَ... أشياء لكي أموت.

- أيّ أشياء؟ أدوية؟

- لا، لقد أغلقت أمّي خزانة الأدوية بالقفل.

- ماذا إذاً؟

- ذهبتُ إلى مخزن الحديقة وابتلعتُ ما عثرتُ عليه: سمّ للفئران ومبيدات الأعشاب.

أُصيب مارتن بالفزع:

- لماذا فعلتِ ذلك؟

- بسبب كاميرون.

- من يكون؟ صديقكِ؟

أومأت برأسها.

- لم يعد يحبّني. كانت علاقتنا قويةً جداً...

نظر إليها بأسى. سواء كان المرء في الخامسة عشرة أو في العشرين أو في الأربعين أو في الستين من عمره، كانت القصّة هي نفسها دائماً: داء الحبّ اللعين هذا الذي يدمّر كلّ شيء في طريقه، لحظات السعادة سريعة الزوال هذه التي تكلّف ثمناً باهظاً...

حاول مارتن أن يمازحها رغم ذلك:

- إذا بدأتِ وأنتِ في الرابعة عشرة من عمركِ ترغبين في الانتحار بسبب الرجال، لن تنتهِ من هذه المسألة، يا صغيرتي!

لكن ليزي رأت أنّ ثمة خطباً ما.

- أين نحن؟ سألت من جديد، وقد بدا الذعر في عينيها.

- لا أعلم شيئاً عن ذلك، اعترف وهو ينهض، ولكن أعدكِ بأننا سنفر من هنا بسرعة.

*

ركضَ.

ركض مارتن وركضت في إثره الفتاة الصغيرة.

بغض النظر عن حقيقة هذا المكان، كان متيقناً بأنّه ينبغي الخروج منه وبأسرع ما يمكن.

لم يكن ذلك حلماً، لم يكن جنّةً ولا جحيماً - لا تُباع في

السماء علب الكوكا كولا الخالية من السكّر بخمسة دولارات - كان هذا شيئاً آخر.

وهذا «الشيء الآخر» هو الذي ينبغي الهروب منه.

قرّر أن يثق باللوحات الإرشادية وأن يتّبع بشكلٍ منهجي التعليمات الواردة فيها «خروج - سيارات أجرة - حافلات».

قادته هذه اللوحات إلى منطقة السوق الحرّة في ممرٍّ طويلٍ جدّاً حيث يوجد متجرٌ خاصّ لكلّ الماركات الفاخرة، من هيرميس إلى غوتشي. ثمّ عبرا مجمع المطاعم الذي كانت لافتاته الموزّعة حول بهو مركزي تعرض تشكيلةً واسعة من الأطعمة: الهامبرغر، والسلطات، والسوشي، والبيتزا، والكُسكس، والكباب، وثمار البحر...

كان مارتن يلتفت نحو ليزي بانتظام لكي يشجّعها على حثّ الخطى.

سلكا سُلّماً متحركاً، ثمّ بساطاً متحركاً، سريعاً وطويلاً جداً، مثل الموجود في محطّة مونبارناس في باريس، إلا أنّ هذا البساط لم يكن معطَّلاً.

كان المبنى طويلاً جداً، مطمْئناً، نظيفاً ومضاءً. انهمكت عدة فرق تنظيف في تلميع الواجهات الزجاجية التي تماوجت أسطحها مثل سطح الماء على إيقاع تقلبات الضوء الذهبي.

كانت حشود الناس كثيفةً وتستعجل في جوٍّ من الذهاب لقضاء العطل. طاقيات، وأوشحة، وأنوف تسيل، وطرود هدايا: تهيّأت بعض المجموعات للاحتفال بعيد الميلاد، فيما حملت مجموعاتٌ أخرى ألوان الصيف، مرتديةً سراويل قصيرة ملوّنة ومبديةً سمرة المتزلّجين على الأمواج.

أمسك مارتن بيد ليزي واستعجلها، دافعاً بعض المارّة في طريقه: موظّفون إداريون رِثاث الهيئة يتظاهرون بأنهم رجال أعمال، وصبية مراهقون نائمون تحت السماعات الرأسية لأجهزة الآيبود خاصّتهم...

في كلّ مكانٍ، ذكّرت ساعاتٌ جدارية بالوقت الذي يمضي.

ركض مارتن، رافعاً رأسه ومثبّتاً نظره على اللوحات الإرشادية، منقاداً بشعورٍ ملحّ. كان المخرج قريباً الآن. شدّ على ذراع ليزي لتستعجل أكثر.

ها قد وصلا إلى صالة المغادرة الشاسعة. للمرّة الأولى، سمع مارتن نشاط الخارج: ضجيج حركة السير، الجوّ الأقلّ تعقيماً، الخشونة، الحياة...

وفي اللحظة التي عبرا فيها أخيراً الأبواب الجرّارة المطلّة على الرصيف الإسفلتي، كان هناك ما يشبه شهيقاً عنيفاً مزّق طبلة أذنهما وشوّش رؤيتهما.

حين فتح مارتن عينيه من جديد، وجد نفسه أمام نفس صفّ الكراسي المعدنية التي رآها حين استيقظ. كان خلفه نفس متجر التذكارات، ونفس **مقهى البوابة الذهبية** ونادلته السمراء ذات الشعر اللامع...

نظر إلى ليزي نظرة أسف: كانا قد عادا إلى نقطة البداية!

*

- من العبث البحث عن المخرج، أيّها الفتى الصغير، نحن عالقون هنا.

أدار مارتن رأسه.

لفظ أرشيبالد نفخةَ دخانٍ من سيجاره الهابانو، جامدَ الملامح،

وثاقبَ النظرة. كان واضحاً أنّ المطار لم يكن منطقة منزوعة التبغ. قد تكون الإصابة بالسرطان حين يكون المرء ميّتاً أقلّ خطراً من الإصابة به عندما يكون حيّاً...

- كلّ هذا هو خطؤك أنت، قال مارتن مشيراً إليه بإصبع الاتّهام.

- هو خطؤكَ بقدر ما هو خطئي، رد أرشي. لو لم تحاول أن تتحذلق، لما وصلنا إلى هنا.

شعر أرشيبالد بأنّه في حالة جيّدة، إذ اختفى التعب والآلام والغثيان المرتبطة بالمرض كما لو بفعل السحر.

- لقد قتلتنا، نحن الاثنين، بسبب غرورك اللامتناهي! قال مارتن بحنق.

- بخصوص الغرور، أعتقد أنّك خبير فيه أيضاً، أيّها الفتى الصغير.

- كفّ عن مناداتي بـ **الفتى الصغير!**

- أنت محقّ. اعذرني، أيّها الفتى الصغير. وفي المقابل، أنت مخطأ بتصريحك أننا ميتان.

- فكّر لثانيتين: لقد سقطنا من علوٍّ سبعين متراً في مياهٍ باردة جدّاً، فتخيّل المجزرة.

- هذا صحيح، ولكننا لم نمت مع ذلك. على الأقلّ، ليس بعد، قال أرشيبالد، متجهّماً.

- حسناً، ممتاز، أين نحن إذاً؟

- نعم، أين نحن؟ تدخّلت ليزي.

ابتسم أرشيبالد للفتاة المراهقة ثمّ دعا محدّثيه إلى أن يتبعاه، بحركةٍ من يده.

- يجب أن تلتقيا شخصاً ما.

- لا! ليس قبل أن نعرف أين نحن، رفض مارتن.

هزّ أرشي كتفيه، ثمّ قال بما يشبه البداهة:

- في غيبوبة.

*

دفع مارتن وأرشيبالد وليزي باب «فضاء الصلاة» في المحطّة الجويّة. يتكوّن المكان من مكتب استقبالٍ وعدّة قاعات صغيرة مخصّصة للديانات الرئيسية: كنيسة مسيحية، كنيسٌ يهودي، مسجدٌ إسلامي، معبدٌ بوذي وشنتوي.

كان المكان تحت مسؤولية الأب شيك بويل، قسيس المطار: رجلٌ أسود طويل القامة وضخمٌ مثل مصارعٍ، ينتعل حذاءً رياضياً من طراز نايكي إير، ويرتدي بنطالاً فضفاضاً وسترة رياضية مع قلنسوة وقميصاً رياضياً عليه عبارة **نعم نستطيع** وهو شعار حملة أوباما الانتخابية.

استقبل شيك بويل زوّاره في مكتبه، وهو عبارة عن غرفة مريحة ولكنّها خالية من الأثاث، والتي تطلّ على المدارج. رغم أنّه مشغولٌ جدّاً، إلّا أنّ القسيس أبدى استعداداً للردّ على أسئلة القادمين الجدد. عرض عليهم فنجان قهوة، ودون أن ينتظر أسئلتهم، سرد لهم قصته.

كان بويل، وهو بالأصل من نيويورك، في زيارةٍ إلى منزل شقيقه في سان فرانسيسكو حين تلقى طعنة سكينٍ في ظهره قبل عشرة أشهر، فيما كان يحاول الفصل في مشاجرةٍ بين شخصين مشرّدين. لدى وصوله إلى **منطقة المغادرة**، تمّ تدريبه وتأهيله من قبل القسيس السابق للمطار قبل أن يغادر هذا الأخير إلى سماوات أخرى.

كان مولعاً بمهمّته، وزعم أنّ الرب، هنا، موجودٌ في كلّ مكان: في العمارة، وفي الضوء، وفي اللوحات الزجاجية المفتوحة على السماء. كان يحدث له أحياناً أن يُشرف على عقد قرانٍ أو تعميدٍ.

كانت **منطقة المغادرة** حدوداً، مكاناً مؤاتياً للصلاة والتأمّل. في هذا «المكان الآخر»، يرى الناسُ مخاوفَهم الأكثر عمقاً تنبعث من جديد. في لحظة المغادرة، يشعرون بالحاجة إلى أن يعترفوا. لم يسعَ الأب بويل إلى إطلاق الأحكام عليهم، بل إلى فهمهم. بالنسبة إلى البعض، كانوا بحاجة إلى التعامل مع الخوف من المجهول، والشعور بالذنب، والندم. وبالنسبة إلى آخرين، كان هذا النوع من الخلوة هي فرصة ثمينة وغير منتَظَرة، تتيح لهم ان يصبحوا أشخاصاً أفضل أو أن يتصالحوا مع أنفسهم.

- في **منطقة المغادرة**، رأيتُ عن كثب كلّ أبعاد النفس البشرية: عظمتها كما بؤسها، أوضح القسيس وهو يُنهي فنجانه من القهوة.

ترك مارتن الأب شيك بويل يشرح منطقه حتى النهاية، واستنتج أنّ كلّ مسافري هذا المطار الغامض أناسٌ وقعوا في غيبوبة جراء حادث سيرٍ أو محاولة انتحار، ولكنّ ظلّ سؤالٌ معلقاً.

- أنت لا تنفك تتحدّث عن **منطقة المغادرة**. . .

- صحيح.

- ولكن منطقة المغادرة **إلى أين**؟

تأمّل بويل في مارتن وليزي بالتناوب وهزّ رأسه.

- انظروا إلى الطائرات، طلب منهم وهو يلتفت نحو النافذة.

ألقى مارتن نظرةً على مدرج المطار. ظهر بوضوح مدرجان

متوازيان وصفّان من الطائرات الضخمة الرمادية اللامعة تحت أشعّة الشمس، والتي تنتظر إشارةً من برج المراقبة للإقلاع في اتجاهات مختلفة.

- هناك وجهتان اثنتان لا ثالثة لهما، قال شيك بويل وهو يُغلق سترته الرياضية فوق كتلة عضلية مثيرة للإعجاب.

- العودة إلى الحياة أو المغادرة نحو الموت... أكمل مارتن بأسى.

- لقد فهمتَ كلّ شيء، أيّها الفتى الصغير، وافقه أرشيبالد الرأي.

*

نظرت ليزي مستغرقةً في التفكير إلى اليدين الضخمتين للقسيس الذي وشم سلاميات أصابعهما بكلمة **حياة** بأحرف منفصلة ح. ي. ا. ة، وكلمة **موت** بنفس الطريقة م. و. ت.

قرّرت، مرتجفةً، أن تبادر إلى السؤال:

- ولكن كيف يمكننا أن نعرف وجهتنا؟

- إنّها مكتوبة على تذاكركم.

- أيّ تذكرة؟ سأل مارتن.

- التذكرة التي يتلقّاها كل مسافر في **منطقة المغادرة**، شرح بويل.

- تذكرة مثل هذه، أكّد أرشيبالد وهو يضع على الطاولة بطاقة الصعود إلى الطائرة خاصّته:

المغادرة	الوجهة	التاريخ	التوقيت	المقعد
منطقة المغادرة	**الحياة**	26 ديسمبر 2008	7:05	32F

قطب مارتن حاجبيه. كان يرتدي نفس الملابس التي كان يرتديها في لحظة وقوع الحادث: البدلة المصمّمة خصيصاً له والمقدّمة من قِبل الآنسة هُوْ وقميص مجعّد خارج بنطاله. نبش في جيوب سترته فوجد محفظته وهاتفه المحمول وورقة كرتونية وضعها بدوره على الطاولة:

المغادرة	**الوجهة**	**التاريخ**	**التوقيت**	**المقعد**
منطقة المغادرة	**الموت**	26 ديسمبر 2008	9:00	6A

- حظّك سيّء، أيها الفتى الصغير، قال أرشيبالد بعبوسٍ.

ثمّ التفت الرجلان نحو ليزي وقد ارتسمت على وجههما علامة استفهام.

كانت الفتاة المراهقة، الغارقة في قميصها، مذعورةً. قلبت برعونة جيوب بنطالها الجينز وانتهت بأن وضعت يدها على بطاقة الصعود إلى الطائرة مطوية ففتحتها، مرتعشة اليدين. كانت البطاقة تحمل خبراً مشؤوماً.

المغادرة	**الوجهة**	**التاريخ**	**التوقيت**	**المقعد**
منطقة المغادرة	**الموت**	26 ديسمبر 2008	9:00	6B

26

الأشياء الجميلة التي تحملها السماء[1]

إذاً، للمرّة الأخيرة رأيت الأرض: كرة ثابتة بأزرقٍ مشعّ، تُبحرُ في الأثير الشاسع. وأنا، حفنة هشّة من التراب مُنِحَت روحاً، كنتُ أحوم بصمتٍ في الفراغ منطلقاً من تلك الزرقة البعيدة لأرتمي في المجهول.

وليام هوب هودسون

منطقة المغادرة

الساعة الحادية عشرة وست وأربعون دقيقة ليلاً

كان مطعم القبّة السماوية أفخم مطعمٍ في منطقة المغادرة.

كان ما يقرب من ثلاثين طاولة دائرية مغطاة بأغطية نسيجية لونها كريمي مرتّبةً بتنسيقٍ وانسجامٍ في صالة جميلة ذات تصميمٍ معاصرٍ وأنيقٍ. غلّفت ستارةٌ متلألئة تتدلّى من الجدار ومنسوجة من مئات الألياف البصرية القاعةَ بنورٍ خافتٍ، وخلقت بذلك جوّاً دافئاً وراقياً.

---

(1) عنوان روايةٍ لديناو منغستو، مستوحاة من أحد أشعار دانتي.

في وسط الصالة، أضافت مدفأة معاصرة إلى مجموع الديكور لمسةً من الراحة العذبة.

حتى في هذا المكان، على أبواب السماء، كان الزبائن يشبهون زبائن كلّ المنشآت الفاخرة: أثرياء جدد روس وصينيون، أباطرة نفط شرق أوسطيون، نخبة معولمة من مستهلكي منتجات لوي فيتون الفاخرة...

في وسط هذا المجمّع، جلس مارتن وأرشيبالد إلى طاولةٍ بالقرب من الواجهات الزجاجية الكبيرة، التي انعكس عليها ضوء مدارج المطار حيث واصلت الطائرات الإقلاع باستمرار، رغم الوقت المتأخّر.

- لا تبدو على ما يرام، أيّها الفتى الصغير، قال أرشيبالد وهو يلتهم بنهمٍ طبقاً من بنكرياس العجل المقلي مع المعكرونة بالفطر البري.

أمّا مارتن، فلم يتناول سوى بضع لقيمات من طبقه من لحم الخروف المعدّ على طريقة أفيرون.

- من السهل على المرء أن يملأ بطنه وهو يعلم أنّه سيخرج من هنا حيّاً! أمّا أنا، فأذكّرك بأنني سأموت.

- كلّنا سنموت ذات يومٍ، قال أرشيبالد معترضاً.

- نعم، لكن أنا سأموت غداً صباحاً!

- أنت على حقّ، هذا إجحافٌ، أقرّ اللصّ، عمري ضعف عمرك وأعترف بأنني أنا منْ اجررتُكَ إلى هذه الورطة...

سكب لنفسه كأساً آخر من النبيذ ووضع القارورة على طاولة الخدمة الصغيرة الموضوعة بجانب الطاولة. موتون-روتشيلد 1945،

رامونيه-كونتي 1985: أرقى أنواع النبيذ لسهرة ليست ككلّ السهرات.

- هل أنت متأكّدٌ من أنّك لا تريد تذوّق هذا النبيذ؟ ألحّ عليه أرشيبالد. سيكون من المؤسف أن تموت دون أن تجرّب هذه الروعة.

- اذهب أنت ونبيذك إلى الجحيم! أجاب مارتن بحدّةٍ وبصوتٍ متعَب.

كانت ليزي قد نامت على المقعد، مسندةً رأسها عليه، وأمامها ما تبقّى من وجبتها من البرغر الملكي المضاف إليه لحم الماعز واللحم المقدّد.

أخرج أرشيبالد من جيبه علبة ثقاب وصنع من أحد أعوادها نكّاشة أسنانٍ بسكّينه، وهي عادة قديمة لم تكن مناسبة في هذا المكان الهادئ والراقي.

- أتساءل إن كنتُ سأجرّب طبقَ فرخ الحمام المجرّد من العظم مع كبد الإوزّ، قبل تناول الحلويات. ما رأيكَ؟ قال وهو يتصفّح قائمة الطعام.

آثر مارتن ألّا يردّ على الاستفزاز هذه المرّة.

نظر إلى السماء ونجومها من خلال النافذة. كان منبهراً على نحوٍ خاصّ بالنجمة المشعّة التي اعتقد في البداية أنّها القمر، ولكن ربّما كانت كوكب الأرض: الكوكب الأزرق الذي يعوم، بعيداً، مع سكّانه الذين يحبّون بعضهم، ويقتلون بعضهم، ويدمّرونه بطريقة منهجية.

هذا الكوكب الذي لطالما شعر عليه بالوحدة، ولكنّه لم يكن قادراً على مغادرته.

- يجب أن نتكلّم، أيّها الفتى الصغير. . .

رفع مارتن عينيه. لمعت نظرة أرشيبالد من فوق الكؤوس الكريستالية مثل اللهب. أصبحت ملامح وجهه النحيف قاسية، وبدا على وجهه النحيل أنّ الوقت لم يعد وقت المزاح.

- وعماذا تريدنا أن نتكلّم؟

- عن غابرييل.

تنهّد مارتن.

- ما الذي تُريدُ أن تعرفه؟ طبيعة نواياي؟

- بالضبط.

- كانت نواياي نبيلةً جداً، ولكن على أية حال، لقد انتهى الأمر بالنسبة إليّ. . .

قرّر أن يسكب لنفسه كأساً من النبيذ قبل أن يواصل حديثه:

- وعلاوة على ذلك، ابنتكَ خطيرة. خطيرة مثلك! إنّها فتاةٌ غريبة الأطوار تُسارع إلى تدمير السعادة كلّما ظهرت بوادرها.

جاء نادلٌ ليرفع الأطباق الفارغة عن طاولتهم. تغاضى أرشيبالد عن الحلوى وطلب فنجانين من القهوة.

- هذا المساء، عندي لك خبرٌ سارّ وآخر سيء، يا بني.

تنهّد مارتن:

- نظراً للوضع الذي أنا فيه، ابدأ بالخبر السارّ.

- الخبر السارّ هو أنّك الرجل الوحيد الذي أحبّته.

- وما أدراك بذلك؟ أنت لم تهتمّ بابنتكَ قطّ على مدى ثلاثين عاماً! أنت لا تعرفها.

- هذا ما تعتقده أنت. ولكنني سأخبركَ بأمرٍ.

- تفضّل. . .

- حتى إذا لعبت المظاهر ضدّي، إلّا أنني أعرف غابرييل أفضل من أيّ شخص آخر.

- تعرفها أفضل منّي؟

- نعم، هذا مؤكّد، وهو ليس بالأمر الصعب جداً.

وإذ رأى الغضب في عيني مارتن، رفع أرشي يده إشارةً للتهدئة:

- غابرييل امرأة استثنائية. ويبدو أنّك لاحظت ذلك منذ سنٍّ مبكّرة وهذا يُسجّل لك...

وإذ علم أنّ مجاملات هذا الرجل الذي يكبره سنّاً كانت نادرةً، تقبّلها مارتن بطيبة خاطر.

- غابرييل صادقة، ومخلصة، وكريمة. يصعُب فهمُها أحياناً، مثل كلّ النساء...

وافقه مارتن الرأي بإيماءة من رأسه، إذ دائماً ما يتفق الرجال حول هذا الموضوع.

واصل أرشي:

- غابرييل امرأة للدهر والحياة، إنّها حجرة كريمة فريدة من نوعها، أكثر ندرة حتى من تلك الألماسة التي أردت أن أسرقها.

قدّم لهما النادل فناجين قهوة إسبريسو مرفقةً بطبقٍ صغيرٍ من الحلوى. تناول أرشي قطعة من حلوى الفاكهة بالتين.

- تتمتع غابرييل بشخصية قويّة، ولكن إذا صرفنا النظر عن المظاهر، نرى أن الحياة تسببت لها بجروحٍ مؤلمة. وأعرف أنّك أدركت هذا الأمر على الفور أيضاً.

- حسناً، ما الذي تريد الوصول إليه؟ قال مارتن بانزعاجٍ قبل أن يعبّ قهوته الحارقة دفعةً واحدة.

- ما الذي أريدُ الوصول إليه، أيّها الفتى الصغير؟ لا يمكن القول إنك حاد الذهن، هه؟ غابرييل لا تحتاج إلى فتى غير ناضج بقي عالقاً في الماضي. هي لا تحتاج إلى رجلٍ يؤلمها أكثر من الآخرين. إنّها تحتاج إلى رجلٍ يمثّل كلّ شيء بالنسبة إليها: صديقها، وعشيقها، وكاتم أسرارها، وحبيبها وحتى عدوّها أحياناً... هل تعرف ماذا يعني ذلك؟

- هذا الرجل كان أنا، أيها الأحمق، وكنت سأظلّ كذلك حتى يومنا هذا ما لم تأتِ وتحشر أنفك في شؤوننا.

نهض مارتن عن الطاولة غاضباً و...

مكتبة
t.me/soramnqraa

*

مستشفى لينوكس

الساعة الواحدة وتسع دقائق فجراً

- استيقظي، يا دكتورة جولياني!

أضاءت الممرّضة مصابيح النيون في غرفة الاستراحة الصغيرة المخصّصة للأطباء المناوبين. فتحت كلير عينيها. لم تكن نائمةً. في الحقيقة، هي لم تعد تنام منذ سنوات عديدة. تسترق فتراتٍ قصيرة ومتقطّعة من النوم هنا وهناك فحسب. فترات لم تعد قادرة على إصلاح حالها وتترك لديها هذا الشعور الدائم بالاهتراء المترافق بترهلات مبكّرة تحت عينيها.

- ها هي نتائج التصوير الإشعاعي للمصاب مارتن بومون. إنّه يعاني من ارتفاعٍ في ضغط الدم!

وضعت كلير نظاراتها الطبّية ونظرت إلى الصورة الإشعاعية على ضوء مصباح النيون. بدت الصورة الثانية للجمجمة منذرة بالخطر: تجمّع بعض الدم بين الأم الجافية والدماغ، مشكّلاً ورماً دموياً

مقلقاً. لا بدّ أن تكون عدة شعيرات لأحد الشرايين قد انقطعت داخل السحايا، لتسبّب هكذا نزيفٍ. كان الورم الدموي يضغط على الدماغ داخل تجويف الجمجمة، وما لم يتصرفوا فوراً، سوف تنحصر الأوعية الدموية بدورها وتحرم بذلك الخلايا من الأوكسجين وتتسبّب بأضرار لا رجعة فيها.

كان من الضروري إجراء عملية جراحية عاجلة للحصول على فرصة لإزالة الورم، ولكن كان جسم مارتن ضعيفاً جداً بحيث باتت كلير تشكّ في إمكانية إنقاذه.

- أخبري طبيب التخدير، سوف ننقله إلى غرفة العمليات!

*

منطقة المغادرة

الساعة الواحدة واثنتا عشرة دقيقة فجراً

دفع أرشيبالد باب **هاريس بار**.

ذكّره الجوّ الدافئ والمريح للحانة بالنوادي اللندنية، مع أثاثها من خشب الماهوغاني، وأرائكها من طراز تشيسترفيلد من الجلد القديم، ومقاعدها الملبّسة بالمخمل النبيذي اللون.

عَبَرَ غرفة التدخين وانضمّ إلى مارتن الذي كان جالساً إلى المنضدة، يشرب كوباً من كوكتيل الموخيتو.

حدّق في كوكتيل الشرطيّ الشابّ، ولم يستطع أن يكتم عبوساً متشككاً:

- هذا مشروبٌ للفتيات، أليس كذلك؟

آثر مارتن أن يتجاهله.

تفحّص أرشيبالد بعين الخبير التشكيلةَ الواسعة من أصناف الويسكي المصفوفة خلف البار مثل كتبٍ قديمة في مكتبة. أضاءت

نظرته فجأةً وهو يرى كنزاً: جلينفيديتش مجموعة نادرة 1937، وهي أقدم زجاجة ويسكي في العالم.

طلب كأساً منه وتأمّل بعين الرضا اللون العنبري للسائل النفيس.

- دع الزجاجة على الطاولة، يا بني! طلب من ساقي الحانة.

راقبه مارتن من طرف عينه. كان أرشيبالد الآن يشمّ روائح كأسه بمتعةٍ واضحة، متلذّذاً بروائح الكراميل، والشوكولاتة، والدرّاق، والقرفة. ثمّ شرب جرعةً من السكوتش واستمتع مطوّلاً بالنكهات الخفيّة.

صبّ كأساً عرضه على مارتن:

- تذوّق هذا، أيّها الفتى الصغير! سترى، إنه يختلف عن شرابك الرديء.

تنهّد مارتن، ولكن كان أرشيبالد قد أثار فضوله، فشرب بدوره جرعةً من الويسكي، ودون أن يكون خبيراً في الأمر، استسلم لإغواء الروائح المركّبة للشراب القويّ.

- هه؟ ما رأيك؟

- إنّه رائع جدّاً حقاً! أقرّ مارتن وهو يشرب جرعة أخرى من السكوتش.

- أتعلم، بدأت تُثير إعجابي! هيّا، تعال، سنجلس في مكان هادئ، اقترح وهو يأخذ معه زجاجة الجلينفيديتش.

تردّد مارتن في اللحاق به. كان غاضباً جداً من أرشيبالد، ولكن لم تكن لديه الشجاعة في أن يقضي ساعاته الأخيرة وحيداً. ثمّ أنّ رفقة عدوّه الأزلي كانت تسعده بقدر ما كانت تضايقه.

جلس الرجلان على أريكتين جلديتين حول طاولةٍ منخفضة من خشب السنط وخشب شجرة المانجو الملمّع بالورنيش.

كانت للمكان، بأثاثه الفخم، روح «نادٍ للنبلاء»، روح «العصر القديم» حيث يلتقي الرجال ليدخّنوا سيجاراً وليشربوا كأساً من الكونياك قبل أن يشرعوا في لعب البريدج وهم يستمعون إلى سيناترا.

- هل أقدّم لك سيجاراً؟

رفض مارتن عرضه.

- هل تعلم أنّ هناك متع أخرى في الحياة غير الشرب والتدخين وسرقة اللوحات الفنية؟

- أوه، لا تعطني دروساً وأنت تتعاطى الحشيش وتشرب الكوكا كولا الخالية من السكّر. فهي ليست أفضل للصحّة!

قطب مارتن حاجبيه. أفرج أرشي عن ابتسامةٍ خفيفة:

- نعم، أنا أيضاً أعرفك قليلاً، يا مارتن بومون...

- وماذا تعرف بالضبط؟

- أعرفُ أنّك شخصٌ شجاع وصادق. أعرف أنّك مثالي وأنّه يمكن للمرء أن يثق بك، وأنّك طيّب القلب، بطريقتك الخاصة.

- ولكن...

- ولكن ماذا؟

- حين يبدأ المرء بسيلٍ من المجاملات، فعادةً ما يكون ذلك مقدمة لتوجيه طوفانٍ من المعاتبات، أليس كذلك؟

اتّسعت عينا أرشي.

- المعاتبات؟ نعم، يمكنني أن أوجّهها لك إن شئتَ.

- هيّا، لا تتردّد، تحدّاه مارتن.

- أوّلاً، أنت لا تفهم النساء.

- أنا، لا أفهم النساء!

- كلا. أقصد، أنت ترى فيهنّ أشياءَ لم يرها آخرون، ولكنّك لا تفهمهنّ حين يتحدّثن إليك. أنت لا تجيد فكّ شيفرتهنّ.

- حقاً؟ اشرح لي قليلاً

ضيّق أرشيبالد عينيه وهو يبحث عن مثالٍ.

- حين تقول لك امرأةٌ **لا**، فغالباً ما يعني هذا **نعم**، **ولكنني خائفة**.

- حسناً، تابع.

- حين تقولُ لك **ربّما**، فغالباً ما يعني هذا **لا**.

- وحين تقول **نعم**؟

- حين تقول نعم، فهذا يعني **نعم**، **ربّما**.

- ولكي تقول **نعم** فحسب؟

هزّ أرشي كتفيه.

- لا وجود لـ **نعم** فحسب في لغة الأنثى.

بدا مارتن مشكّكاً.

- برأيي، أنت كلصّ أفضل منك كعالم نفس...

- قد أفتقر إلى الخبرة الحديثة، أقرّ أرشيبالد.

- وماذا لو تحدّثنا عن غابرييل؟

- كنّا نتحدّث عنها، أيها الفتى الصغير، اعتقدتُ أنّك فهمت ذلك...

- لماذا حاولت أن تفرّق بيننا؟

رفع أرشي عينيه نحو السماء.

- بل على العكس تماماً، أيّها الأحمق! أنا مَن جئتُ لأبحث عنك، أنا من فعلتُ كلّ شيء لكي تطاردني، أنا من استدرجتكَ حتى

سان فرانسيسكو لكي تلتقي بها، لأنني كنتُ أعلم أنّها لم تنسكَ!

صعدت نبرة النقاش.

سأل مارتن:

- وماذا بعد ذلك؟

- بعد ذلك، صحيحٌ أنني شعرتُ بالخوف وأردتُ أن أختبركَ، أقرّ أرشيبالد.

- لقد أفسدتَ كلّ شيء!

- كلا، لأنّك لولاي لما امتلكتَ الشجاعة أبداً لكي تأتي وتلتقي بها! لأنّ هذه هي مشكلتك، يا مارتن بومون: أنت تخاف!

لم يكن مارتن متأكّداً من أنّه فهم ما قصده. ألحّ أرشي:

- أنت تعرف جملة مانديلا: **إنّ نورنا، وليس ظلنا، ما يُخيفنا أكثر**. ما يُخيفكَ، أيّها الفتى الصغير، ليست نقاط ضعفك، وإنّما مزاياك. أليس من المرعب أن يقول المرء لنفسه إنّه يمتلك الكثير من المزايا في جعبته؟ أن يسبح المرء في وضاعته وهو يلعن الأرض بأكملها هو أمرٌ باعث للطمأنينة أكثر...

- ما الذي تحاول قوله؟

- أحاول أن أقدم لك نصيحةً: ضع مخاوفك بين قوسين وجازف بأن تكون سعيداً.

نظر مارتن إلى أرشيبالد. لم يكن هناك أيُّ أثر تهديدٍ أو عداءٍ على وجهه. لمح تفهّماً فحسب. وللمرّة الثانية، شعر مارتن بأنّه مرتبط به بعلاقةِ أخوةٍ غريبة.

- لقد أخبرتني قبل قليل بأنّ لديكَ خبرين، أحدهما سارّ والآخر سيّء.

- هذا بالضبط ما أردتُ الوصول إليه.

- ما هو الخبر السيّء؟

داري أرشيبالد تأثّره ثم قال:

- الخبر السيء هو أنّك أنت من ستعود إلى هناك، أيّها الفتى الصغير!

قال ذلك وهو يضع أمامه بطاقة الصعود إلى الطائرة خاصته كما لو أنّه يضع ورقةً رابحة.

المغادرة	الوجهة	التاريخ	التوقيت	المقعد
منطقة المغادرة	**الحياة**	26 ديسمبر 2008	7:05	32F

- لم أفهم.

- هل اعتقدتَ أنّك قد تخلّصتَ من الحبّ والمشاكل؟ لا، الأمر ليس بهذه البساطة: سوف تعود بدلاً عنّي.

- مقايضة؟

- نعم. بطاقات الصعود لا تحمل اسماً معيناً. لا شيء يمنعنا من تبادلها.

- لماذا تفعل هذا؟

- أوه، لا تتخيّل أنني أضحّي بنفسي. أنا لم تعد لديّ لا القوّة ولا الإمكانية لتحقيق أحلامي، على أيّة حال.

- هل أنت مريض؟

- محكوم عليّ هو مصطلح أكثر دقة: سرطانٌ قذر.

أومأ مارتن برأسه بينما مرّت غمامةٌ من الحزن أمام عينيه.

- و. . . لماذا أنا؟

كانت الحانة قد فرغت من الزبائن الآن. وحده ساقي الحانة واصل مسح كؤوسه خلف المنضدة.

- لأنك أنت الوحيد الذي استطعتَ أن تحلّ المعادلة، أيّها الفتى الصغير. الذي امتلكت الشجاعة في أن تلحق بي إلى هنا. لأنّك كنتَ أكثر دهاءً من مكتب التحقيقات الفيدرالي، ورجال المافيا الروسية، وكلّ أجهزة الشرطة في العالم مجتمعةً. لأنّك تفكّر بعقلك، ولكن بقلبك أيضاً. لأنّك تلقيت اللكمات، ولكنك وقفت صامداً دائماً. لأنّك أنا، بطريقةٍ ما، إلا أنّك ستنجح حيث أنا فشلتُ: ستُجيدُ الحبّ...

سكب لهما أرشيبالد آخر كأسين، مفرغاً قارورة الويسكي تماماً. رفعا كأسيهما، وشربا نخب بعضهما وهما يتبادلان بطاقيتهما.

ثمّ نظر أرشي إلى ساعة يده ونهض عن كرسيّه.

- اعذرني، ولكن لم يعد أمامي الكثير من الوقت، وثمّة أمرٌ أخير ينبغي أن أُقوم به قبل صباح الغد.

ارتدى معطفه، ثمّ قال بعد تردّد قصير:

- أتعلم، بالنسبة إلى غابرييل... قد تبدو معقّدة، ولكنّها واضحة في الحقيقة. لا تؤلمها، ولا لدقيقةٍ واحدة.

- أعدكَ بذلك، قال مارتن.

- حسناً، لستُ موهوباً في طقوس الوداع...

- حظّاً سعيداً.

- حظّاً سعيداً أتمنّاه لكَ أنت، أيّها الفتى الصغير.

أيّ مكانٍ خارج العالم[1]

ماذا بقي لي من حبّي لك؟
بقي صوتي فقط، الذي فجأةً بات بلا صدى
بقيت أصابعي فقط، التي لا تمسك بشيء
بقي جلدي فقط، الذي يبحث عن يديك
وخاصّة الخوف، من أن أظلّ أحبّك
غداً وأنا على شفا الموت.

شارل أزنافور

مستشفى لينوكس
الساعة الثالثة وثمانٍ وخمسون دقيقة فجراً

للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويلٍ، أضاءت ابتسامةٌ حقيقية وجهَ كلير جيوفاني. لقد نجحت العملية نجاحاً بارعاً. لقد فتحت جمجمة مارتن وأزالت الورم الدموي عن دماغه.

انتهت العملية، فنظرت إلى شاشة المراقبة: كانت المعدّلات الحيوية جيّدة. كانت بنية الشابّ الفرنسي متينةً حقاً!

---

(1) عنوان قصيدة للشاعر شارل بودلير.

كانت كلير فرحة للغاية. استمعت على جهازها الآيبود الموصول بمكبرات الصوت إلى أغنية لبوب مارلي.

*

منطقة المغادرة

الساعة الثالثة وتسع وخمسون دقيقة فجراً

كانت أغنية No Woman No Cry لبوب مارلي تتصاعد من مكبرات الصوت في المحطّة الجوية.

جال مارتن أمام الجدار الزجاجي المطلّ على المدارج التي اصطفّت على طولها منارات مضيئة. امتدت مساحات الوقوف على مدى البصر، مستقبلةً عشرات الطائرات المتماثلة: طائرات المسافات الطويلة ذات طابقين وبأربع محرّكات نفّاثة، والتي كان تحرّكها المنتظم منسقاً من قِبل برجٍ ضخمٍ للمراقبة بجدرانٍ مزرقة.

استحضر مارتن في ذهنه شريطَ الأشهر الستّة الأخيرة، مسكوناً بجوعٍ إلى الحياة وبثقةٍ مستعادة. منذ مواجهته الأولى مع أرشيبالد على جسرٍ في باريس وحتى هذا الحديث الغريب الذي جرى بينهما هذه الليلة في تلك الحانة الواقعة **خارج العالم**. ستّة أشهر شهد خلالها، دون أن يُدرك ذلك، تغيّراً عنيفاً جعله رجلاً. لقد حرّرته هذه المحادثة الأخيرة من مخاوفه. شعر بأنه تمّ الاعتراف به وبأنه كُلِّف بمهمةٍ.

في هذا الممرّ الطويل المغلّف بالضوء، حمل في يده بطاقته الجديدة التي منحه إياها أرشي: مفتاحه، قسيمته للعوة إلى الحياة والحبّ.

في هذا الممرّ الطويل المغلّف بالضوء، راودته الرغبة في أن يركض وأن يصرخ تعبيراً عن ارتياحه.

في هذا الممرّ الطويل المغلّف بالضوء، كان يحيا من جديد.

*

منطقة المغادرة

الساعة الرابعة وإحدى وعشرون دقيقة فجراً

كان المطعمُ خالياً من الزبائن، وجميعُ الثريات في الصالة الكبيرة مطفأةً. انبعث ضوءٌ خافتٌ من الألواح في أسفل الجدران وخلق جوّاً أشبه بجوّ ملهى ليلي صامت ومهجور من راقصيه.

كانت ليزي نائمةً نوماً مضطرباً، مكوّمةً على نفسها فوق مقعدها، وخصلاتٌ من شعرها ملتصقة بوجهها المُرهَق.

غطّاها مارتن بسترته قبل أن يجلس في الأريكة المقابلة لها.

كانت في الرابعة عشرة من عمرها؛ وكان سيبلغ الخامسة والثلاثين من عمره قريباً.

كان ممكناً أن تكون ابنته.

كان يعرفها منذ بضع ساعات فقط، ولكنّه شعر بشيء من الواجب حيالها.

أشعل سيجارةً دخّنها في صمتٍ، مغمض العينين.

الطفولة. . .

طفولته هو. . .

طفت الذكريات على السطح، لا جميلة ولا حزينة. صدى أراده بعيداً، ولكنّه لا يزال يتردّد بقوةٍ.

ضاحية إيفري. . .

جوّ ساحة المدرسة الشبيه بجوّ السجن أحياناً.

لكي يكون على وفاقٍ مع نفسه، كان دائماً ما يدافع عن

الضعفاء، مجازفاً بدفع الثمن غالياً: التجاهل، الإقصاء، الانتقام، وإنكار الجميل من قبل الذين ساعدهم.

ولكنّه لم يكن يستحق الثناء لقيامه بذلك.

فأن يحمي مَن هو أكثر قوّة الضعيفَ بدلاً من أن يقمعه أو يتجاهله: كان هذا أمراً طبيعياً بالنسبة إليه، كمثالٍ للأخوّة.

مثال لطالما وجّهه وأتاح له أن ينظر إلى نفسه في المرآة بثباتٍ، حتى في الأوقات الأكثر ظلمةً في حياته المهنية.

*

منطقة المغادرة

الساعة الرابعة وخمس وثلاثون دقيقة فجراً

أسرع أرشيبالد الخطى على الأرضية المصقولة والفضيّة مثل المرآة.

كان قد قطع عدّة كيلومترات، ولكن أينما ذهب، بدت له المحطّة الجوّية وكأنها تكرّر نفسها إلى ما لا نهاية. كان قد عَبَرَ سلسلةً من القاعات، وسلك ما يقرب من عشرة سلالم كهربائية، وعبر العديد من المراكز التجارية، ولكن لم ينفع ذلك بشيء: كان من المستحيل الابتعاد على نحوٍ مستدام من هذه الواجهات الزجاجية الواسعة والشفّافة التي ألغت الحواجز بين المبنى والسماء والبحر.

بدا المطار وكأنّه ينبثق من جزيرةٍ اصطناعية، على غرار مطار هونغ كونغ. كان كلُّ شيء فيه نظيفاً وحديثاً وجديداً جدّاً، مثل منشأةٍ تنتظر افتتاحها.

نظر أرشيبالد إلى الساعة على شاشات الإعلان عن حركة الطائرات وأحكم القبض على بطاقة الركوب خاصّته. لم يتبقّ له سوى بضع ساعات قبل الإقلاع، ولكنّه منذ أن استيقظ في هذا

المكان الخارج عن العالم، فرضت حقيقةٌ واضحة نفسها عليه. قد يكون ساذجاً، وقد يكون قد سلك الطريق الخطأ، ولكن كان عليه أن يذهب حتى نهاية فكرته. فكلما التقى بـ «موظّف دائمٍ» في المطار - حارس، نادل، تاجر، عامل نظافة - استوقفه لكي يطرح عليه نفس السؤال. في البداية، فشل في الحصول على جواب، ولكنّ بائعة حلوى الماكرون في متجر لادوريه وجّهته نحو أحد المدارج، فأعادت إليه الأمل.

شعر بأنّه يقترب من ساعة الحقيقة، من تلك اللحظة التي قد تعوّض كلَّ اللحظات الأخرى.

ففي النهاية، وسط نصيبها من المآسي، كانت الحياة تقدم أحياناً لحظاتٍ حقيقية من النعمة. فلماذا قد يكون الموت مختلفاً؟

*

منطقة المغادرة

الساعة السادسة وستّ دقائق صباحاً

استيقظت ليزي على رائحة الكاكاو.

حين فتحت عينيها، كان الصبح قد طلع على مدارج المطار. لن تتوانى الشمس عن إلقاء أولى أشعّتها في سماءٍ لا تزال زهرية ومائلة للأرجواني.

ورغم أنّها نامت طيلة الليل، إلّا أنّها لم تكن يقظةً تماماً، كما كانت ثيابها مجعّدةً وشعرها متشابكاً وأظافرها مقضومةً إلى حدّ الإدماء.

فركت جفنيها، واستغرقت بعض الوقت لتُدرك أين تتواجد، فنظرت بفزعٍ إلى الساعة الجدارية ثمّ إلى الشاشة الزجاجية التي تُعلن عن برنامج رحلات المغادرة.

نبشت في جيبها لتُخرِج منه بطاقة الصعود إلى الطائرة.

المغادرة	الوجهة	التاريخ	التوقيت	المقعد
منطقة المغادرة	**الموت**	26 ديسمبر 2008	9:00	6B

لم يتبقَّ سوى ثلاث ساعات. لم يتبقَّ سوى ثلاث ساعات قبل الـ. . .

- لبنة، وتوت بري طازج، وليتشي، وخبز محمّص، وشوكولاتة ساخنة لذيذة، قال مارتن مرحاً وهو يضع صينية الإفطار على الطاولة.

ابتسم لها، وجلس إلى جانبها على المقعد الطويل ودهن لها قطعة خبز باللبنة.

شربت رشفةً من الكاكاو قبل أن تقضم شريحة الخبز المحمّص بشهيّةٍ. لا يمكن للمرء أن يعيش على الحبّ والماء العذب فقط، حتى في منطقة المغادرة. . .

- تفضّلي، لقد مرّ ساعي البريد، قال ممازحاً وهو يناولها مغلّفاً.

ظلّت ساكنة بلا حراك، متردّدة النظرة، ممسكةً الرسالة بين يديها.

- حسناً، افتحيها!

فتحت المغلّف لتجد فيه بطاقة صعود جديدة.

المغادرة	الوجهة	التاريخ	التوقيت	المقعد
منطقة المغادرة	**الحياة**	26 ديسمبر 2008	7:05	32F

- لقد تمّ تقريب موعد المغادرة، ولكن الوجهة ليست نفسها! أوضح مارتن.

- هل يعني ذلك أنني لن أموت؟ سألت وملؤها الأمل.
- كلا يا ليزي، لن تموتي.
ارتعشت شفتها وانقبض حلقها.
- ولكن كيف ذلك...
- إنّه أرشيبالد، شرح مارتن، الرجل الذي كان معنا هنا البارحة مساءً. لقد ترك لكِ بطاقته.
- ولماذا فعل ذلك؟
- لأنّه مريضٌ جدّاً ولم يعد لديه الكثير من الوقت ليعيش.
- أنا لم أشكره حتى!
- لقد فعلتُ ذلك نيابةً عنكِ، طمأنها.
اغرورقت عينَي الفتاة المراهقة بالدموع.
- وماذا عنك؟
- لا تقلقي بشأني، أجاب مارتن وهو يُرغم نفسه على الابتسام. لكن أريدكِ أن تسدي لي خدمةً.
- خدمة؟ سألته وهي تمسح عينيها بكمّها.
- لقد أخبرتِني بأنّكِ تعيشين في باسيفيك هايتس...
- نعم، أكّدت له، خلف حديقة لافاييت مباشرةً.
- إذاً، إذا كنّا حقاً في حالة غيبوبة، سوف تستفيقين في مستشفى لينوكس.
- لقد نقلوني إلى هناك حين جُرِح ذقني وأنا ألعب كرة السلّة!
أشارت إلى ندبةٍ رفيعةٍ جدّاً عند مفرق شفتيها.
- واو، قال مارتن. هل تألّمتي كثيراً؟
- كلا، أنا فتاةٌ قويّة! قالت بشيءٍ من التفاخر.
غمزها وشرح لها ما ينتظره منها:

- حينما تصبحين قادرةً على الكلام، اطلبي رؤية امرأة تُدعى غابرييل.

- أهي طبيبة؟

- كلا، إنّها المرأة... إنّها المرأة التي أحبّها.

لم تستطع كبح فضولها:

- وهي، هل تحبّكَ؟

- نعم، قال بشيءٍ من التردّد. أقصد، إنه أمرٌ معقّد بعض الشيء... تعرفين كيف هي هذه الأشياء، أليس كذلك؟

- نعم. تبقى قصص الحبّ معقّدة، حتى بالنسبة إلى البالغين، أليس كذلك؟

أومأ برأسه بالإيجاب.

- نعم، إنّها نفس الورطة ونفس المشقّة دائماً. إلا أنه يأتي يومٌ يحضر فيه الشخص المناسب في اللحظة المناسبة، فيبدو كلُّ شيء بسيطاً وواضحاً.

أومأت برأسها.

- وغابرييل، هل هي الشخص المناسب؟

ابتسم مارتن.

- نعم. وهي اللحظة المناسبة أيضاً.

- ما الذي يجب أن أخبرها به؟

*

مستشفى لينوكس

الساعة السادسة وخمس عشرة دقيقة صباحاً

- دكتور، لدينا مشكلة مع مريضنا المجهول!

أخذ إليوت نتائج تصوير الكبد بالأشعّة التي مدّتها له الممرّضة.

تبيّن أن أرشيبالد يعاني من نزيفٍ في الكبد.

وضع نظّاراته: كان الجرح عميقاً، مسبّباً نزيفاً غزيراً خلف الفصّ الأيمن.

كيف حدث ذلك؟ لم يلاحظ أي إشارات لإمكانية حدوث هذا النزيف أثناء العملية الجراحية الأولى قبل بضع ساعات.

كان لا بدّ من إعادة فتحه، حتى وإن مثّلت هذه العملية الجديدة خطراً كبيراً على حياته.

سُحقاً!

*

منطقة المغادرة

الساعة السادسة وستّ وخمسون دقيقة صباحاً

- هيه ليزي!

أمام الباب رقم 6، كان صف المسافرين يقصَر شيئاً فشيئاً كلّما تقدّمت عملية صعود الركاب الذين حالفهم الحظّ في «العودة».

التفتت الفتاة، وكان مارتن قد ألحق بها ليقول لها شيئاً أخيراً:

- لا حماقات بعد الآن، اتّفقنا؟

طأطأت رأسها. واصل مارتن:

- سمّ الفئران، ومبيدات الأعشاب، وقطع الشرايين، والأدوية، يجب أن تنسي كلّ هذه الأشياء، اتّفقنا؟

- اتّفقنا، قالت وهي تُفرِجُ عن ابتسامةٍ.

ابتسامتها الأولى منذ وقتٍ طويل.

- ولا تقلقي: فالحبّ رائع، ولكنّه ليس الشيء الوحيد في الحياة.

- حقّاً؟ سألت بنبرة جادّة.

بل هو الشيء المهم الوحيد في الحياة. هو أهمّ شيء بالفعل... فكّر في نفسه، ولكنّه اختار أن يكون مطمْئِناً:

- العائلة، الأصدقاء، السفر، الكتب، الموسيقى، الأفلام، كلّ هذه لا بأس بها، أليس كذلك؟

- نعم، أقرّت ليزي دون حماسةٍ.

كانت الفتاة المراهقة الآن المسافرة الوحيدة التي لم تصعد إلى الطائرة بعد.

- هيّا، رحلة سعيدة! قال لها مارتن وهو يربّت على كتفها بحركةٍ خفيفة.

- إلى اللقاء؟ سألت وهي تمدّ بطاقتها للمضيفة.

ابتسم ولوّح لها بيده للمرّة الأخيرة.

ثمّ اختفت.

*

الساعة السابعة وستّ دقائق صباحاً

انحنت كلير جيوفاني فوق نافذة سيارتها.

- هيّا، يا جدّي، تقدّم! صرخت باتجاه سائق السيارة الضخمة التي كانت تسير أمامها.

كانت سيارتها «الخنفسة» البنفسجية اللون قد علقت وسط الازدحام المروري.

- يا إلهي! إنها الساعة السابعة صباحاً، في يوم عيد الميلاد، وقد بدأ الازدحام بالفعل! قالت غاضبةً.

وعلاوة على ذلك، كان المطر ينهمر مدراراً وسيارتها البالية لا تحبّ الماء.

ضجّت قمرة السيارة المليئة بالدخان بألحان أوتار جيتار فرقة ذا

دورز وبالصوت الجهوري المشوب بالكحول ولكن الرائع لجيم موريسون في نسخة مقرصَنة من إل. إي. وومان.

في منتصف الأغنية، راودت أحد الموسيقيين الفكرة السخيفة بأن يعزف أحد ألحان موزارت على البيانو القيثاري.

سحقت كلير عقب سيجارتها وهي تقطّب جبينها.

لا، هذا اللحن لم يكن في الأغنية، إنّه هاتفها المحمول الذي يرنّ.

على الطرف الآخر من الخطّ، جاء صوت ممرّضتها المفضّلة التي كانت قد تركت لها التعليمات لكي تبلغها بتطوّرات صحّة المريضين «خاصّتها».

بدا أنّ حالة مارتن بومون قد تدهورت على نحوٍ مفاجئ، فقد أظهرت نتائج التصوير بالأشعة حدوث نزيفٍ في البنكرياس. أمرٌ غريب. في الصورة الشعاعية التي أُجريت هذه الليلة، لم تبدُ لها الإصابات خطيرة إلى هذه الدرجة...

كان لا بدّ من إعادة فتحه، ولكن لكم من الوقت سوف يقاوم جسم هذا الرجل هكذا علاج؟

*

مستشفى لينوكس

وحدة الإنعاش

الساعة السابعة وإحدى عشرة دقيقة صباحاً

خلايا الدم الحمراء، خلايا الدم البيضاء، صفيحات الدم، البلازما...

الدم.

الدم الملوّث والمسموم لصبيّةٍ في الرابعة عشر من عمرها.

منذ عدة ساعات، كان السائل الأحمر يُسحب من قبل جهاز غسيل الكلى ليُخلَّص من مواده السامّة قبل أن يُعاد حقنه، بعد تنقيته، في شرايين ليزي.

علاجٌ قوي، يُنجز في وقتٍ قياسي ما تقوم به الكليتان في يومين.

خضعت الفتاة المراهقة لعملية تطهير معوي وغسل معدة، وهي الآن ممدّدة على السرير، مغمضة العينين. أُعطي لها كربون نشط وجرعات قويّة من فيتامين ك1 من أجل تنظيف دمها الذي منع سمُّ الفئران تخثّره.

الآن، على جهاز المراقبة، كانت المؤشرات الحيوية جيّدة.

الآن، لم يعد هناك شيء يمنع ليزي عن فتح عينيها.

وهذا ما فعلته.

*

مستشفى لينوكس

غرفة انتظار قسم الطوارئ

الساعة السابعة واثنتين وثلاثون دقيقة

أدخلت غابرييل قطعتين نقديتين في آلة القهوة.

لم تكن قد نامت منذ ثماني وأربعين ساعة.

طنينٌ في أذنيها، وضعفٌ شديدٌ في ساقيها، وقشعريرةٌ في جسدها... لم تعد تعرف حتى إن كان الوقت نهاراً أم ليلاً، ظهراً أم منتصف الليل.

كانت قد تحدّثت إلى إليوت الذي تعرفه منذ زمنٍ طويل وإلى تلك الطبيبة الجرّاحة التي أشرفت على علاج مارتن. ولم يترك لها الطبيبان أيّ أمل.

- هل أنتِ غابرييل؟

التفتت بعينيها المغشيّتين لتجد نفسها أمام رجلٍ في نفس سنّها تقريباً، ثيابه مجعّدة مثل ثيابها، ووجهه شاحبٌ مثل وجهها، وعيناه متعبتان مثل عينيها، إلا أنّ وميضاً من الارتياح أضاء نظرتَه.

- لقد استفاقت ابنتي ليزي من الغيبوبة للتوّ بعد تسمّمٍ، شرح لها. وأوّل شيءٍ طالبتْ به هو حضوركِ.

- عفواً؟

- زعمت أنّه لديها رسالة لكِ.

- لا بدّ أنّ هناك خطأً ما، فأنا لا أعرف أي ليزي، أجابت باختصار وهي لا تزال حبيسة ألمها.

حاول أن يقنعها بالاستجابة إلى طلب ابنته، بل كاد يتوسّل إليها.

- خلال السنوات الثلاث الأخيرة، ومنذ أن انفصلتُ عن زوجتي، أعتقدُ أنني لم أرَ ابنتي تكبر. على أيّة حال، أنا متأكّدٌ من أنني لم أتكلّم معها بما يكفي، أو بالأحرى لم أُصغِ إليها بما يكفي. أعتقدُ أننا مستعدّان الآن، أنا وهي، لأن نحاول أن نتحاور وأن نثق ببعضنا أكثر. لقد جعلتني أعِدُها بأن أفعل كلّ ما بوسعي لكي أقودكِ إليها، ولذا أسمح لنفسي بأن أُلحّ عليكِ: امنحيها بضع دقائق من وقتكِ، أرجوكِ.

بذلت غابرييل جهداً جباراً لكي تخرج من خمولها.

- هل تقول إنّ لديها رسالةً لي؟

- نعم، رسالة من شخصٍ يُدعى مارتن.

*

مستشفى لينوكس
غرفتا العمليات رقم 1 ورقم 2
الساعة السابعة وست وثلاثون دقيقة صباحاً

فتح إليوت بطن أرشيبالد بشقٍّ واسعٍ يمتد من عظم العانة إلى عظم القصّ.

شقّت كلير جدار بطن مارتن.
دعني أرى ما يوجد في بطنك حقاً،
أيّها الوسيم.

ضغط إليوت على الكبد بكلتا يديه، متفحّصاً كلّ إصابة ومحاولاً إيقاف النزيف.

ينزف الدم بغزارة من كلّ مكان هنا في الداخل!
سدادات قطنية، محاولات وقف النزيف بالتخثّر،
تصريف السوائل: بذلت كلير كلّ ما بوسعها
في سبيل استقرار حالة مريضها.

كان الجرح عميقاً وينزف بغزارة. وسّع إليوت حواف الجرح لكي يستأصل ما يمكن استئصاله من الأنسجة المتضرّرة، ثمّ أعدّ قطبة ثلاثية، على أمل أن يتمكّن من خياطة الجرح بخيطٍ قابلٍ للامتصاص.

من خلال نظّاراتها الخاصّة بالجراحين، حاولت
كلير تقييم الجرح فأقلقها ما رأته. اشتبهت بتمزّقٍ في قناة
ويرسونغ للبنكرياس بالتزامن مع إصابة الاثني عشر.

أنت لستَ محظوظاً، أليس كذلك؟

لم يكن بإمكانها فعل الكثير في الوقت الحالي.
فما أن تصبح حالته مستقرّة تماماً، سينبغي
فتح بطنه للمرّة الثالثة، ومحاولة
إجراء جراحة كبيرة للجهاز الهضمي.
ولكن هل سيبقى على قيد الحياة إلى ذلك الحين؟

نَشَطَ إليوت، ولكنه شعر بأنّ أرشيبالد لن يكسب معركته الأخيرة. فقد نُقِلَ إليه الكثير من الدم، وقد عانى أكثر بكثير مما يمكن لجسدٍ بشري أن يتحمّله عادةً. العمر، المرض، الجراح العديدة، الأعضاء التي فشلت من جميع الجهات...

حين يبلغ الجسد حدوده، حين تنصرف الحياة، هل يمكن أن نفعل شيئاً سوى تركها تُغادر؟

*

مستشفى لينوكس

وحدة الإنعاش

الساعة السابعة وأربعون دقيقة صباحاً

- أخبرني والدكِ بأنّكِ تريدين التحدّث إليّ؟

- نعم.

كان حلق ليزي منقبضاً وبشرتها شاحبة جدّاً. نظرت إلى غابرييل بمزيجٍ من الانبهار والتعاطف.

- كنتُ هناك، معهما، بدأت بالقول.

- أين تقصدين بـ «هناك»؟ ومنْ تقصدين بـ «هما»؟ سألت غابرييل ببرود.

- كنتُ مع مارتن وأرشيبالد، في غيبوبة.

- كنتِ في غيبوبة **في نفس الوقت الذي كانا فيه في غيبوبة**، صحّحت لها غابرييل.

- لا، أصرّت ليزي على قولها بقوّة رغم أن صوتها كان لا يزال ضعيفاً. كنتُ **معهما**. تحدّثتُ إليهما وطلب منّي مارتن أن أنقل إليكِ رسالةً.

رفعت غابرييل يدها لتمنعها من قول المزيد.

- اسمعي، أنا آسفة. لا بدّ أنّكِ متعبة جدّاً ومضطربة بعض الشيء بسبب ما أصابكِ، ولكنني لا أؤمن بهذه الأمور.

- أعرف ذلك. لقد حذرني مارتن من أنّكِ لن تصدّقيني.

- فإذاً؟

- إذاً، لقد حفّظني جملةً عن ظهر قلب: **عزيزتي غابرييل، أردتُ فقط أن أخبركِ بأنني سأعود غداً إلى فرنسا. أردتُ فقط أن أخبركِ بأنّه لم يهمّني شيء خلال إقامتي في كاليفورنيا أكثر من تلك اللحظات التي أمضيناها معاً.**

أغمضت غابرييل عينيها في حين سرت رعشةٌ في عمودها الفقري. الجملة الأولى من الرسالة الأولى، تلك التي بدأ بها كلّ شيء...

- لقد كلّفني مارتن بأن أخبركِ بأنّه تغيّر، تابعت ليزي. وبأنّه أدرك بعض الأمور وبأنّ والدكِ رجلٌ طيّب.

رغم ألمها، لم تكن غابرييل مستعدّةً لتصديق كلّ شيء، ولكن كان عليها أن ترضخ للحقائق: لم تكن أقوال هذه الفتاة الصغيرة محض هذيان.

- هل أخبركِ بشيءٍ آخر؟ سألت وهي تجلس إلى جانبها، على حافة السرير.

كانت ليزي ترتجف الآن تحت منامتها الرقيقة الخاصّة بالمستشفى. أخفضتِ جفنيها لتركّز على نحوٍ أفضل.

- لا يريدكِ أن تقلقي بشأنه...

رفعت غابرييل الغطاء على ليزي في حركةٍ أمومية، وأزاحت خصلةً من الشعر الملتصق على وجهها.

- ادّعى مارتن أنّه سيجد وسيلةً للعودة...

أصبحت ليزي تجد صعوبةً متزايدة في التكلّم:

- حين يغمض عينيه ويتخيّلكما معاً فيما بعد، ظلّ يحتفظ في ذهنه بنفس الصور: شمس وضحكات أطفال...

اكتفت غابرييل بما سمعته. داعبت جبين الفتاة المراهقة لكي تُفهمها بأنّه يمكنها أن ترتاح الآن.

ثمّ نهضت، وخرجت من الغرفة مثل سائرة أثناء النوم، وعبرت عدّة ممرّات قبل أن تنهار على كرسيٍّ، ممسكةً برأسها بين يديها.

شقّ صوتٌ طريقه بصعوبةٍ وسط ذهنها الضبابي. صوتٌ قريبٌ وبعيدٌ، قادمٌ من الماضي، يقرأ جُمل رسالةٍ قديمة تعود لما يقرب من خمسة عشر عاماً.

أنا هنا، يا غابرييل، على الضفة الأخرى من النهر.
أنتظركِ.
الجسر الذي يفصل بيننا قد يبدو في حالٍ رديئة،
ولكنّه جسرٌ متين، مبنيٌّ من أخشاب الأشجار
التي قاومت الكثير من العواصف.

أنا أفهم أن تخافي من السير عليه.
وأعلم أنّك قد لا تعبرينه أبداً.
ولكن اتْرُكِي لي أملاً.

نهضت فجأةً، وقد حلّت العزيمةُ محلّ الخوف على وجهها. لو أنّ ما روته لها ليزي صحيحٌ، فربّما يكون هناك شخصٌ يستطيع أن يساعد مارتن وأرشيبالد.

طلبت المصعد لكي تنزل إلى موقف السيارات في الطابق السفلي حيث كانت سيارتها مركونة. انتظرت بضع ثوانٍ ثمّ، بنفاد صبر، سلكت السلالم راكضةً وقلبها ينبض بقوّة.

سترى، يا مارتن بومون، إذا كنتُ أخاف من عبور هذا الجسر.

سترى إن كنتُ أخاف من أن آتي لأعيدك . . .

*

منطقة المغادرة

الساعة السابعة وخمس وأربعون دقيقة صباحاً

واصل أرشيبالد التقدّم في منطقة المغادرة.

دائماً أسرع، دائماً أبعد.

كلّما تقدّم أكثر، أصبحت المنطقة أكثر تجرّداً: أصبحت الأرضية أكثر لمعاناً، والزجاج أرقّ وأكثر وشفافيةً، والممرّات أكثر طولاً، مغمورةً بضوءٍ يسبب الدوار.

بات يعرف الآن أنّ هذه الأرض لم تعد خطِرة، لأنّه كان قد تجاوز فيها الاختبارات وتغلب على الفخاخ.

لم تكن المنطقةُ المكانَ حيث ينتهي كلّ شيء، وإنّما المكان حيث يبدأ كلّ شيء.

لم تكن المنطقةُ مكاناً للصدف، وإنّما مكاناً للمواعيد.

كانت المنطقةُ المكانَ الذي يلتقي فيه الماضي والحاضر والمستقبل.

مكانٌ يحلّ فيه الإيمان محلّ العقلانية.

مكانٌ ينتقل فيه المرءُ من الخوف إلى الحبّ.

*

الساعة الثامنة ودقيقة واحدة صباحاً

كان مطرٌ غزيرٌ، ممزوجٌ بالبرق والرعد، ينهمر على المدينة منذ عدّة ساعات.

كانت غابرييل قد رفعت غطاء سيارتها المكشوفة، لكنّ عنف العاصفة أغرق الزجاج الأمامي تحت طوفانٍ من المياه عانت لإزالتها ماسحتا الزجاج لسيارة فورد موستانغ القديمة.

رغم أنّ المرأة الشابّة كانت تعرف الطريق عن ظهر قلب، إلّا أنّها اضطرّت لأن تركّز كي لا تُفوّت المخرج رقم 33 الذي يؤدي إلى حيٍّ رتيبٍ في الضاحية الجنوبية، حيث تجمّعت بعض المباني الإدارية.

ركنت سيارتها في موقفٍ في الهواء الطلق أمام مبنى رمادي اللون مكوّنٍ من قرابة عشرة طوابق: مركز جبل سينيري للعناية الطبية.

في البهو، استقبلتها المضيفة باسمها وأعطتها بطاقة زائرة. شكرتها غابرييل وأخذت المصعد إلى الطابق الأخير: طابق المرضى الذين يرقدون في المستشفى على المدى الطويل. منذ ما يقرب من

خمسة عشر عاماً، أصبحت هذه الحركاتُ، المتكرّرة مرّة في الأسبوع، آليةً بالنسبة إليها.

كانت الغرفة الأخيرة في الممرّ الأخير تحمل الرقم 966.

دخلت غابرييل إلى الغرفة وتقدّمت نحو النافذة لترفع الستارة وتفسح المجال لدخول الضوء الرمادي من الخارج.

ثمّ التفتت نحو السرير:

- صباح الخير، يا أمّي.

28

سوف أظلّ أحبّك...

حين تتوقّف الأوركسترا، سوف أظلّ أرقص...
حين تكفّ الطائرات عن الطيران، سوف أظلّ أطير وحدي...
حين يتوقّف الزمن، سوف أظلّ أحبّك...
لا أعرف أين، لا أعرف كيف...
ولكنني سوف أظلّ أحبّك...

الزمن المتبقي، أغنية كتبها جان-لو دابادي
وأدّاها سيرج ريجياني

منطقة المغادرة

الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة صباحاً

- صباح الخير، فالنتين.

كانت فالنتين تستعد لفتح متجرها، ممسكةً بمقصٍّ في إحدى يديها، وبمرشٍّ معدنيٍّ في الأخرى. بدت واجهةُ متجرها مميزةً وسط الواجهات الزجاجية والجدران البيضاء الناصعة للمطار. تمتّع المتجر بسحرٍ خاص وبالطابع القديم، وكان يشبه أكشاك بائعي الزهور في الشوارع الباريسية.

التفتت فالنتين. كانت قد شاخت، طبعاً. حمل وجهها نُدَب الزمن، ولكنّ شعرها القصير وقوامها الرياضي وحدة نظرتها ذكّرته بالمرأة الشابّة المتألّقة التي كانت في الماضي. كما أنها حافظت على هذا الشيء الساحر الذي جعلها، في نظر أرشيبالد، أكثر رقّةً من منحوتةٍ لمايكل أنجلو، وأكثر تناسقاً من لوحةٍ لدافنشي، وأكثر جاذبيةً من بورتريه لموديلياني.

انقبضت حنجرتاهما، وتلاقت نظرتاهما، وتغشّت عيونهما.

- كنتُ أعرفُ أنّك ستأتي في النهاية، قالت قبل أن ترتمي في حضنه.

*

ضاحية سان فرانسيسكو
مركز جبل سينيري للعلاج الطبيعي وإعادة التأهيل
الساعة التاسعة ودقيقة واحدة صباحاً

تقدّمت غابرييل نحو السرير وأمسكت بيد أمّها. بدا وجه فالنتين هادئاً، وتنفّسها منتظماً، ولكنّ عينيها المفتوحتين واسعاً كانتا تنظران إلى الفراغ بيأس.

- لستُ على ما يُرام، يا أمّي، إنّي أنجرف...

كانت فالنتين قد وقعت في غيبوبة في ديسمبر 1975، جرّاء الجلطة الدماغية التي تلت ولادة ابنتها. ومنذ ثلاثة وثلاثين عاماً، وحدُها مجموعة متشابكة من الحقن وأنبوب تغذية أبقتها على قيد الحياة على نحوٍ اصطناعي، بمساعدة ممرّضةٍ وأخصّائيةٍ في العلاج الطبيعي والتي مسّدت جسمها كلّ يوم لتجنّب تشكّل قروح السرير.

داعبت غابرييل جبين والدتها برقة، ومررت أصابعها في شعرها كما لو أنّها أرادت أن تمشّطها.

- ماما، أعلم أنّ هذا ليس خطأكِ، ولكنني افتقدتكِ كثيراً طوال كلّ هذه السنوات. . .

في الأشهر الأولى التي أعقبت النوبة، شخّص الأطباء حالتها بأنّها حالة سبات دائمة. فبالنسبة إليهم، لم يكن هناك أي شكّ: كانت فالنتين غائبة عن الوعي ولم تكن هناك أيّ إمكانية في أن تتعافى ذات يوم.

- أشعرُ بأنني وحيدة ومهجورة منذ زمنٍ طويلٍ، أسرّت لها غابرييل.

حتى وإن كانت الصحافة تعلن أحياناً عن بعض الحالات الخارقة التي خرج فيها أناسٌ من الغيبوبة، كان من المسلّم به لدى الأطباء أنّه إذا لم يُظهر المريض أيّ إشارة على الوعي بعد عامٍ من الغيبوبة، فإنّ فرص استعادته لنشاطه الدماغي تكون شبه معدومة.

ومع ذلك. . .

ومع ذلك، كان من المغري الاحتفاظ بالأمل.

كانت لدى فالنتين دورات صحوة تليها فترات نوم. كانت تتنفّس دون مساعدة، وتئنّ، وتتحرّك، وترجف، حتى وإن كان يُزعَم بأنّها ردود أفعال انعكاسية وليست حركات إرادية.

- دون أحدٍ إلى جانبي، لم تعد لديّ القوّة على الاستمرار. دون أحدٍ إلى جانبي، العيش يقتلني.

قرأت غابرييل العشرات من الكتب، وزارت المئات من المواقع الإلكترونية، وسرعان ما أدركت أنّ الحالة الإنباتية تبقى لغزاً غامضاً حتى بالنسبة إلى الأخصائيين. لا أحد يعرف حقّ المعرفة ما الذي يجري في رأس المرضى. . .

- ماما، لا بدّ أنّ هناك معنى لكلّ هذا! لقد عشتِ أكثر من

ثلاثين سنة طريحة الفراش في صمتٍ. إذا كان جسدكِ قد قاوم طوال كلّ هذه السنوات، فلا بدّ أن يكون هذا في سبيل شيءٍ ما، أليس كذلك؟

بعد عشرة سنواتٍ من وقوع النوبة، فكّرت والدة فالنتين بالاستسلام. ما الجدوى من كل هذا الإصرار؟ ما الجدوى من رفض الحداد؟ لقد أوشكت عدة مرات على الموافقة على إيقاف التغذية عن ابنتها لتتركها تموت في سلامٍ، ولكنّها في نهاية المطاف، لم تستطع حسم أمرها. وقد لعب إليوت كوبر دوراً حاسماً في ذلك، إذ استثمر الطبيب الجرّاح الكثير من وقته في متابعة حالة فالنتين الصحّية، مجدّداً كلّ سنة الفحوصات وصور الرنين المغناطيسي تماشياً مع تطوّر التصوير الطبّي.

ومن خلال فحص المادة البيضاء لدماغ فالنتين، توصّل إليوت إلى قناعة بأنّ شعيرات الخلايا العصبية التي انقطعت أثناء الجلطة كانت قد تجدّدت ببطء ولكن ليس بما يكفي لإخراجها من الغيبوبة.

بالنسبة إليه، لم يكن دماغ فالنتين قد توقّف تماماً، وإنّما كان في حالة سُبات، بعد أن اجتاز سلسلة من المراحل بدأً من الغيبوبة ووصولاً إلى الحالة الإنباتية، قبل أن يستقرّ في حالةٍ من الحدّ الأدنى من الوعي.

اقتربت غابرييل من أمّها أكثر. صخبت العاصفة الرعدية في الخارج وانهمر المطر مدراراً، يضرب النوافذ الزجاجية ويهزّ الستائر القديمة المهترئة.

- إذا كان هناك شيءٌ من الحقيقة في كلّ ما يُقال... إذا كنتِ تستطيعين سماعي في مكانٍ ما... إذا كنتِ أنتِ أيضاً معهما هناك... فيجب أن تساعديني!

غالباً ما شعرت بأنّ أمّها تفرج عن ابتسامةٍ عندما تدخل الغرفة أو تروي لها أمراً مسلّياً. كان يريحها الاعتقاد بأنّ عينيها تبتلان حين تبوح لها بمآسيها، أو أنها تتبعها بنظرها أحياناً حين تتجوّل في الغرفة. ولكن هل كانت هذه الحقيقة، أم أنّها فقط أرادت أن تصدّق ذلك؟

- اصنعي معجزةً، يا أمّي! توسّلت إليها. أوجدي طريقةً لتعيدي إليّ مارتن. إنّه الرجل الوحيد الذي أريده، إنّه الرجل الوحيد الذي أحبّه، وهو أيضاً الرجل الوحيد الذي سيجعل مني المرأة التي أودّ أن أكونها...

*

منطقة المغادرة

الساعة الثامنة وثلاث وعشرون دقيقة صباحاً

كان أرشيبالد وفالنتين محتضنَين بعضهما، محاطَين بزهور طازجة: ورود أرجوانية اللون، وزهور عصفور الجنة بلونِ التوت، وأزهار الأوركيد، وزهور الزنبق لؤلؤية اللون.

- ها قد رأيتِ، قال أرشيبالد، لقد أوفيتُ بوعدي بأن أذهب وأبحث عنكِ أينما كنتِ، إذا فقدتكِ يوماً.

نظرت إليه بحنان.

- أنتَ لم تفقدني أبداً، يا أرشي.

- لكن كانت سعادتنا قصيرةً جدّاً! بضعة أشهر فحسب...

- ولكننا لم نفترق قطّ في الحقيقة. خلال كلّ هذه السنوات، كنتُ موجودةً من أجل غابرييل ومن أجلك، وقد سهرتُ عليكما على الدوام.

كانت تشعّ سكينةً وثقةً، فيما كان أرشيبالد على عكس ذلك معذّباً ومغموراً بالندم وبالشعور بالذنب.

- تبدين سعيدةً، قال لها.

- أنا مدينةٌ لكَ بذلك، يا حبيبي. لقد سبق وأخبرتك: أنت من أشفيتني. من دون ذكراك، من دون حضورك، لما امتلكتُ شجاعة الانتظار لكلّ هذا الوقت.

- لقد أفسدتُ كلّ شيء، يا فالنتين، سامحيني. لم أُجد تربية ابنتنا، لم أُجد حبّها، لم أُجد مساعدتها. فمن دونكِ، لم يعد للعيشِ... لم يعد لديه أيّ معنى.

داعبت خدّه.

- أعلم أنّك بذلت كلّ ما بوسعكَ، يا أرشي. لا تعتقد إطلاقاً أنني ألومك على أيّ شيء.

نظر أرشيبالد إلى الساعة المزخرفة الصغيرة الموضوعة بالقرب من صندوق النقود. كانت الدقائق تمرّ بسرعة رهيبة. ما أن اجتمع بفالنتين، حتى ساوره القلق من أن يفقدها من جديد.

- عليّ أن أغادر، قال وهو يُخرجُ بطاقته.

سالت دمعةٌ على خدّه فجأةً لتختفي في لحيته. دمعته الأولى منذ ثلاثة وثلاثين سنة.

- إنه من المؤلم جدّاً أن أفقدكِ مرّةً ثانية، قال وهو يطأطأ رأسه.

فتحت فالنتين فمها لكي تُجيب، ولكن ضجّة قوية جعلتهما يلتفتان.

كان الممرّ الذي أتى منه أرشيبالد قد أُغلِق دون أن يعيا ذلك.

كان قد سُدّ بحائط زجاجي، وكان رجلٌ يطرق عليه في محاولةٍ لانضمام إليهما.

مارتن!

اقترب أرشيبالد من الزجاج.

لم يكن الفتى الصغير قد غادر!

بالطبع لا. لا بدّ أنّه أعطى بطاقته للصبيّة المراهقة، لكن هل كانت هذه مفاجأةً فعلاً؟

تلت ضرباتُ الكتف ركلاتَ القدم، لكن دون جدوى.

أمسك أرشيبالد بأحد الكرسيين المعدنيين الموجودين عند مدخل المتجر وضربه بكلّ ما أوتي من قوّة على الجدار الشفّاف، لكن ارتدّ إليه الكرسيّ مثل الوميرانغ. عاود الكرّة مرّة أخرى ليحصد نفس الفشل.

لا من شيء يمكن فعله.

كان الرجلان الآن يتقابلان وجهاً لوجه على جانبَي الحائط الزجاجيّ، يفصل بينهما أقلّ من مترٍ واحدٍ. بعيدان جدّاً، وقريبان جدّاً.

شعرا بأنفاس الموت تحاصرهما.

لماذا أخضعتهما منطقة المغادرة لهذا الاختبار الأخير؟

نظر أرشيبالد إلى فالنتين، آملاً بأن يستمد منها الحكمةَ التي يفتقر إليها.

اقتربت بدورها من الحائط الزجاجي. كانت تعلم أنّ قوى مضادة تتواجه بلا هوادة في منطقة المغادرة، كما هي الحال داخل كلّ واحدٍ منّا.

صراع النور والظلمات.

صراع الملاك والشيطان.

صراع الحبّ والخوف.

قالت وهي تلتفت إلى أرشيبالد:

- كلّ شيء يحدث وفق منطقٍ ثابت. لكلّ أفعالنا معنى. ودائماً ما نجد الحلول لها في داخلنا.

سمع مارتن كلّ شيء على الجانب الآخر من الحائط الزجاجي.

كان هذا الحائط الزجاجي هو خوفه، لقد شعر بذلك. هذا الخوف الذي لم ينجح في تجاوزه قطّ.

إذا كان الحبُّ الترياقَ الوحيد للخوف وإذا كان الحلّ يوجد دائماً في داخلنا، إذاً...

الألماسة.

مفتاح الجنّة.

نبش في جيب سترته: كانت الألماسة البيضوية الشكل لا تزال هناك، ساحرةً، تلمع بلونٍ أزرق داكن، رمزاً للنقاء والحظّ السعيد، شرط ألا يحصل عليها شخصٌ جشع.

قرّب الحجر الأسطوري من الزجاج.

قد تكون فيه كلّ عيوب العالم، ولكنّه لم يكن جشعاً.

وفي واقع الأمر، ما قاده إلى الاستيلاء على الألماسة كان حبّه لغابرييل. حبٌّ طائشٌ، غير ناضج، إلا أنه قويٌّ وصادق.

وضع رأس الجوهرة على الحائط الزجاجي، وبحركةٍ رشيقة، حزف سطح الزجاج ليحفر فيه خطّاً دائرياً.

أحسنتَ، أيّها الفتى الصغير! قال أرشيبالد في سره، وأمسك بالكرسي ورماه إلى الأمام.

هذه المرّة، تطاير الزجاج متناثراً في ألف قطعة، فاتحاً معبراً لمارتن.

- ماذا نفعل الآن؟ سأل أرشيبالد.

- الآن، ستدعني أتحدّث إليه، أجابت فالنتين.

*

منطقة المغادرة

الساعة الثامنة وأربعون دقيقة صباحاً

ضرب شعاعٌ من الشمس واجهة المتجر الصغير فراح الأثاث الخشبي الخارجي يلمع.

دعت فالنتين مارتن إلى الجلوس حول طاولة طويلة مجاورة للمتجر. كانت الطاولة مغطّاة بمزهريات تضم باقات زهورٍ مدهشة من حيث تميُّزها وابتكارها. امتزجت زهور السوسن البرية مع شقائق النعمان الفاقعة اللون، مع زهور عباد الشمس الزاهية، مع الزنابق المتنوّعة، مع القرنفل الأحمر مثل الدم.

- أتعلم، أنا أعرفكَ جيّداً، بدأت فالنتين.

فتحت ترمساً مغلّفاً بالجلد وصبّت لهما فنجانين من الشاي قبل أن تواصل حديثها، قائلةً:

- طوال السنوات الأخيرة، حدّثتني غابرييل عنك كثيراً: مارتن هنا، ومارتن هناك...

كانت حركاتها بطيئة ورصينة كما لو أنّها ظلّت غير مبالية بخطورة الوضع.

- هو أيضاً، كان يحدّثني عنك كثيراً، قالت وهي تشيرُ إلى زوجها.

كان أرشيبالد في غاية القلق، واقفاً بالقرب من بوابة الصعود،

منعزلاً بعض الشيء. كان استقبال المسافرين قد بدأ للتوّ وتقدّم حشدٌ كثيفٌ وصامتٌ لكي يأخذ محله في هذه الطائرة التي كان للرجلين مكانٌ محجوز على متنها.

- لم يمضِ أسبوعٌ واحد دون أن يزوّدني بأخبار الفتى الصغير، قالت فالنتين، ممازحةً.

نظر إليها مارتن بافتتان: كانت لها نفس نبرة صوت ابنتها، ونفس شموخها، ونفس النظرة الحادّة.

- هل تعلم لماذا لم تأتِ غابرييل إلى موعدك في نيويورك؟

تجمّد وجه مارتن، ولبضع ثوانٍ، طاف في الهواء هذا السؤالُ الذي عذّبه كثيراً، قبل أن تمنح له فالنتين التفسير.

- في خريف عام 1995، حين تُوفِّيت جدّة غابرييل، تركت لها رسالةً تُخبرها فيها بأنني على قيد الحياة. تخيّل: خلال عشرين سنة، كانت ابنتي تعتقد أنني ميّتة في حين كنتُ في حالة غيبوبة!

بدا مارتن متأثراً بما سمع. أدار رأسه وشرد نظره في الفقاعات الملوّنة لمجسّمٍ من الزهور، بدت فيه زهرة القمر(1) وكأنّها مجمّدة في ماءٍ رقراق.

تابعت فالنتين:

- علمت غابرييل بالخبر في بداية عطلة عيد الميلاد. كانت قد حزمت حقيبتها لتذهب إلى مقابلتك، لكنّ هذا الاكتشاف حطّمها. في البداية، كانت تمضي أيامها في المستشفى، ملتصقةً بسريري وهي تتوسّل إليّ أن أستفيق من الغيبوبة. وعلى مدى ثلاث سنوات، ظلت

(1) زهرة القمر هي نبتة تتفتّح أزهارها مرّة واحدة فقط في السنة، عند حلول الليل، وتذبل في صباح اليوم التالي.

تأتي كلّ يوم لزيارتي، مقتنعةً بأنّ وجودها إلى جانبي قد يساعدني على الخروج من الغيبوبة.

حثّ صوتٌ عبر مكبّرات الصوت المسافرين على التقدّم نحو مكاتب التسجيل.

غير مبالية بهذه الضجّة، شربت فالنتين رشفةً من الشاي قبل أن تواصل حديثها:

- لا داعي للخوف، يا مارتن. غابرييل هي تماماً كما تتخيّلها: مغرمة ومخلصة، تطمح إلى تقديم «كلّ شيء للآخر». فطالما ستكون موجوداً من أجلها، ستكون هي موجودةً من أجلك.

- ولكني لا أستطيعُ العودة، قال مارتن مظهراً بطاقته.

- بلى، تستطيع ذلك، أكّدت له فالنتين وهي تُخرجُ من جيب سترتها بطاقة ورقية مصفرّة مشكوكة برأس دبوس.

تفحّص مارتن الوثيقة. كانت بطاقة قديمة جدّاً لطائرة من نوعٍ خاص بعض الشيء.

المغادرة	الوجهة	التاريخ	التوقيت	المقعد
منطقة المغادرة	الحياة	-	-	-

- لماذا لا يوجد تاريخ وساعة للعودة؟

- لأنّها بطاقة مفتوحة[1]، أجابته. يمكنك أن تغادر متى ما تشاء.

فتح عينيه واسعاً. لم يكن متأكّداً من أنّه فهم جيّداً.

(1) بطاقة تفرض تاريخاً للمغادرة، ولكنها تمنح المسافر إمكانية اختيار تاريخ العودة بحرية.

- كانت لديكِ، طوال ثلاثة وثلاثين عاماً، إمكانيةُ العودة؟! ولكن لماذا لم. . .

رفعت يدها لكي تُقاطعه:

- خلال غيبوبتي، كنت أسمع كلّ شيء، يا مارتن، وخاصّةً تشخيصات الأطباء المتشائمة جدّاً بشأني. كنتُ سأعود إلى الحياة، ولكن في أيّة حال؟ بعد جلطتي الدماغية، تجمّد جسدي في شللٍ تامّ ودائم. لم أشأ أن أكون عبئاً لا على أرشيبالد ولا على غابرييل. وباختياري البقاء هنا، منحتُ نفسي دور الأميرة النائمة. دورٌ أسهلٍ من دور جسم ميت بذهن نشط. فهمت؟

أومأ برأسه بالإيجاب.

- أنا بحاجة الآن إلى أن تُسدي لي خدمةً، يا مارتن.

- أتُريدينني أن أقبل بطاقتكِ؟

طأطأت فالنتين رأسها. داعب غبارُ الشمس المشرقة سويقات أزهار الليلك الموضوعةِ أمامها في مزهريةٍ زرقاء داكنة.

- بل أريدُك أن تعطيني بطاقتكَ. . .

29

لكَ إلى الأبد

صوت القبلةُ أقلّ صخباً من دويّ المدفع،
لكنّ صداه يستمر لزمن أطول.
أوليفر ويندل هولمز

منطقة المغادرة
المَدرَج رقم 1
الساعة التاسعة صباحاً

وصلت الطائرة إلى أوّل المَدرَج ثم توقفت.

- الإقلاع سيكون بعد دقيقةٍ، نبّه صوتٌ أنثوي من قُمرة القيادة.

كانت للطائرة نوافذ واسعة ومقاعد مريحة وممرّات مُشرقة.

تشبّثت فالنتين بيد أرشيبالد.

- أنت تعلم أنّ هذه أوّل مرّة نستقلّ فيها الطائرة معاً...

- هل تشعرين بالخوف؟ سألها.

- معكَ، لا أشعرُ بالخوف أبداً.

انحنى نحوها وقبّلها بشيء من الخجل، كما لو كانت المرّة الأولى.

منطقة المغادرة

المَدرَج رقم اثنان

الساعة التاسعة صباحاً

حين وصلت إلى بداية المدرج، توقّفت الطائرة الضخمة فجأةً، بانتظار الإذن بالإقلاع، وكانت محرّكاتها الأربع تطنّ بهدوء.

جالساً من جهة النافذة، شعر مارتن بحرقةٍ في عينيه. أهو بسبب التعب؟ أهو بسبب الشمس الساطعة المبهرة للبصر، المنعكسة على الإسفلت؟ أهو بسبب التوتّر المُتراكَم خلال الأيام الأخيرة؟ أهو بسبب الفراغ الكبير الذي يشعر به في جوف بطنه، في نهاية هذه الرحلة إلى أعماق نفسه، وهي رحلة مضنية بقدر ما هي مُنقِذة؟

*

كانت الآن الطائرتان متقابلتين على هذين المدرجين المتوازيين، كنقطة انطلاق لوجهتين معاكستين تماماً.

بدأتا بالتحرّك في نفس اللحظة، ورجّتا الإسفلت من تحت مجموعة عجلاتهما الرئيسية.

في اللحظة التي التقيتا فيها، هزّ نوعٌ من التفاعل الطائرتين، مذكّراً المسافرين بأنّه لا يفرّق بين الحبّ والحتف سوى بضعة أحرف.

- الآن، سوف نكون معاً إلى الأبد، صرّحت فالنتين.

أومأ أرشيبالد برأسه وأحكم قبضته أكثر على يد زوجته. منذ اليوم الذي وضع عينيه عليها، لم يرغب في أيّ شيءٍ آخر.

أن يكون معها فحسب.

إلى الأبد.

*

حين بلغتا نهاية المَدرَج، أقلعت الطائرتان الفضيتان برشاقة.

في لحظة مغادرة الأرض، شعر مارتن بألمٍ شديدٍ ينتشر في كلّ أنحاء جسده كما لو أنّ ناراً اشتعلت فيه.

ثمّ أصبح كلّ شيء أبيض اللون...

*

سان فرانسيسكو

مستشفى لينوكس

الساعة التاسعة ودقيقة واحدة صباحاً

بجانب سرير صديقه، كان الدكتور إليوت يحدّق بثباتٍ في شاشة المراقبة وفي الخطّ المستقيم الميؤوس منه. إلى جانبه، لم يفهم الطبيب المتدرّب الشاب ما الذي يمنع مشرفه من إعلان ساعة الوفاة.

- هل انتهى الأمر، يا دكتور؟

لم يسمعه إليوت حتى. كان أرشيبالد في نفس سنّه. كانا من نفس الجيل ويعرفان بعضهما منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً. كان من المؤلم أن يراه يرحل.

- لقد انتهى الأمر، يا دكتور، أليس كذلك؟ ردّد الطبيب المتدرّب.

نظر إليوت إلى وجه أرشيبالد. بدا مرتاحاً، بل بدت عليه نوعٌ من السكينة. قرّر الطبيب أن يبقى على هذا الانطباع.

- ساعة الوفاة، التاسعة ودقيقتان صباحاً، قال بهدوء وهو يُغمض له جفنيه.

*

ضاحية سان فرانسيسكو
مركز جبل سينيري للعلاج الطبيعي وإعادة التأهيل
الساعة التاسعة ودقيقة واحدة صباحاً

استدعت غابرييل طبيباً وممرّضة.

كانت الحالة الصحية لوالدتها تدهورت دون سببٍ ظاهرٍ. بعد تسارعٍ عنيف، كان قلبها الآن على وشك أن يتوقّف.

- تيار بطاقة مئتَي جول! قال الطبيب وهو يثبّت اللوحتين على صدر فالنتين.

لم تُتح الصدمة الكهربائية الأولى بتحقيق التزامن في انقباضات العضلة القلبية. ولم تسفر المحاولة الجديدة عن نتيجةٍ أفضل. حاول الطبيبُ تدليكَ العضلة القلبية لفترةٍ، وهو يضغط براحة يده على الصدر بإيقاعٍ منتظم، ولكنّه أدرك أنّها معركة خاسرة.

وإذ ظلّت لوحدها مع والدتها، بعد إعلان وفاتها، وجدت غابرييل وجهَها هادئاً جدّاً ومشرقاً جدّاً بحيث أنها شعرت بالراحة.

- إلى اللقاء، يا أمّي، همست وهي تُقبّلها قبلةً أخيرة.

*

سان فرانسيسكو
مستشفى لينوكس
قاعة استراحة الطواقم الطبية
الساعة التاسعة ودقيقتان صباحاً

أدخلت كلير جولياني قطعتين نقديتين من فئة خمسين سنتاً في آلة

توزيع القهوة. ضغطت على زرّ «كابتشينو»، ولكنّ الألة لم تُطلق كوباً فسال السائل الكريمي وانتشر على الشبكة الحديدية قبل أن ينسكب على حذائها.

هذه الأمور لا تحدث إلا لي! قالت في سرها، متحسّرةً على نفسها.

ضربت بيدها غاضبةً على حصّالة الآلة تنفيساً عن مزاجها السيء، وعلى أمل أن تستردّ بعض القطع النقدية على الأقلّ.

ولزيادة الطين بلّة، رنّ جهاز الإشعار خاصّتها مصدراً صوتاً حادّاً، فغادرت القاعة لتلتحق بقسم الإنعاش على عجلٍ.

- أمرٌ لا يُصدَّق! لقد استفاق مريضكِ! صاحت إحدى الممرّضات لدى وصولها.

ماذا تقولين، أيّتها الحمقاء! كيف تريدينه أن يستفيق مع كل ما أعطيناه من حقن لتخديره؟

انحنت فوق مارتن، فوجدته يتنفّس بانتظام، مغمض العينين، ساكناً بلا حراك. استغلّت كلير فرصة وجودها هناك لتتحقّق من مؤشراته الحيوية التي وجدتها مُرضية.

همّت بمغادرة القاعة حين... فتح مارتن عينيه.

نظر من حوله ببطءٍ، ثمّ، في حركةٍ تحريرية، نزع الحقن التي قيّدت عنقه وأنفه وذراعيه.

لقد عاد.

خاتمة

سان فرانسيسكو
بعد مضي ستّة أشهر

ظهرت سيارة موستانغ مكشوفة، لونها أحمر غامق، في الضوء الشاحب للصباح الباكر.

وصلت السيارة القديمة أمام متحف الفنّ الحديث جنوب حي الأسواق المالية، على بعد بضع خطوات من الحدائق الربيعية ونوافير المياه في مركز يربا بوينا. كان متحف الفنّ الحديث ذو البناء المعماري المبتكَر أشبه بأسطوانة زجاجية انبثقت، مثل منبعٍ للنور، وسط تكدس من المكعبات المصنوعة من القرميد البرتقالي.

- إذا كانت بنتاً، قال مارتن، فأرى أنّ أسم «إيما» جميلٌ جدّاً. أو ربّما «ليوبولدين» إذا أردنا لها اسماً غير مألوف. . .

كان جالساً على مقعد الراكب الأمامي، ولا يزال يضع دعامة عنقٍ مرنة، من تبعات الحادث. كانت هذه أوّل رحلةٍ له منذ استفاقته من الغيبوبة، بعد ستّة أشهرٍ قضاها في المستشفى وفي مركز العلاج الطبيعي وإعادة التأهيل.

- ليوبولدين! هل أنت على ما يرام؟! أذكّركَ بأنّه ينبغي إنجاب الأطفال **أوّلاً**، ثم اختيار أسماء لهم. وبصراحة، لدينا أمور أكثر أهميةً هذا الصباح...

قفزت غابرييل على الرصيف برشاقة ومرونة. في صباح يوم الأحد ذاك، كان الشارع مقفراً، ولا يزال غارقاً في برودة وهدوء الصباح الباكر.

خرج مارتن من السيارة بصعوبةٍ واستند على عكّازته المصنوعة من خشب الجوز، ذات المقبض المزخرف.

لم تستطع غابرييل أن تمنع نفسها من أن تسخر منه:

- أنت مثيرٌ جدّاً هكذا، يا حبيبي. تبدو مثل دكتور هاوس!

هزّ كتفيه وانحنى فوق المقعد الخلفي للسيارة المكشوفة لكي يفكّ الحزام عن ثلاثة صناديق خشبية، مضمومة إلى بعضها.

- دعني أقوم بذلك، قالت غابرييل وهي تمسك بالصندوق الأول الذي ظهر منه الوجه ذو التقاطيع الحادة لإحدى لوحات بيكاسو.

كانت هذه الصناديق تضمّ الكنوز التي سرقها أرشيبالد خلال العشرين سنة الماضية. لوحاته الفنيّة المفضّلة التي لم يطلب فديةً لقاءها أبداً: لوحات أسطورية لآنغر وماتيس وكليمت وغويا... والتي ستستعيد مكانها قريباً في مختلف متاحف العالم.

كان أرشيبالد قد أخبر ابنته بالعنوان السرّي الذي كانت اللوحات مخبّأة فيه أثناء حديثهما المؤلم والشافي في آنٍ واحدٍ في خليج سان سيمون الصغير، كميراث يتركه لها.

في ثلاث نقلات وفي غضون أقلّ من دقيقتين، كانت غابرييل قد وضعت كلّ الصناديق أمام مدخل المتحف الشهير.

وحين عادت إلى السيارة، لاحظت أنّه بقيت هناك لوحةٌ شبه مخفية خلف المقاعد: البورتريه الشخصي لفان غوخ، وعلى خلفيته الفيروزية النظرة الهاذية للرسّام ولحيته وشعره الناري.

- ربّما يمكننا الاحتفاظ بهذه، غامر مارتن بالقول.

- أتمنى أنّك تمزح!

- هيّا! لوحة واحدة! قال ملحّاً. كذكرى من والدكِ. لوحة لقائنا الأوّل على جسر بون نوف!

- هذا ليس وارداً إطلاقاً! لقد اخترنا أن نكون نزيهين وعلينا أن نكون كذلك حتى النهاية!

لكن لم يكن مارتن مستعداً للاستسلام:

- اعترفي بأنّها ستبدو جميلة في شقّتنا! سوف تُضفي جانباً راقياً لصالوننا. ليست لديّ مآخذ على أثاثكِ المنزلي من ايكيا، ولكن. . .

- أثاثي المنزلي ممتاز، قاطعته قائلة.

- قد يختلف الأمر بحسب وجهات النظر.

وبشيء من الأسف، قَبِل بإعادة التحفة الفنّية فخطا بدوره، وهو يعرج، بضع خطوات نحو المتحف ليودع لوحة «الرجل ذو الأذن المقطوعة».

ثمّ عاد إلى السيارة المكشوفة التي أقلعت مسرعةً.

*

نزلت الفورد موستانغ جادة فان نيس ثمّ انعطفت نحو شارع لومبارد.

لوّنت الشمسُ المشرقة المدينةَ بضوءٍ ورديّ متوهج تحوّل في

تدرّجاته في كلّ دقيقةٍ، في حين حملت رياحُ المحيط رائحةً بحرية صيفية نحو الجنوب.

وبعيداً، كان جسر البوابة الذهبية ملفوفاً بثوبٍ حليبيٍّ رقيق، مظهراً ظلّه الهائل والمألوف الذي تحييه الجوقة المتواصلة لأبواق العبّارات والمراكب الشراعية.

سلكت غابرييل المنحدر لتصل إلى الجسر وتوقّفت في الممرّ الأيمن في نفس المكان الذي خاض فيه مارتن وأرشيبالد مبارزتهما الأخيرة.

- جاء دورُك الآن! قالت له.

وكما فعل قبل ستّة أشهر، صفق مارتن الباب وقفز فوق الإشارات الفاصلة للمسار الخاصّ بالدرّاجات الهوائية.

انحنى بحذرٍ ووجلٍ ورأى الأمواج المتوّجة بالزبد تضرب الأعمدة المغروسة في المحيط بصلابة. أدرك مارتن، والرياح تصفع وجهه، حظّه الأشبه بالمعجزة الذي أبقاه على قيد الحياة.

وبيده المدسوسة في جيبه، لمس الأوجه الناعمة للألماسة ودورها بين أصابعه.

- تمنَّ أمنيةً! صاحت له غابرييل.

أخرج قبضته من جيب سترته وفتحها للريح. توهّج مفتاح الجنّة في راحة يده مثل ألف شمس.

لدى رؤية الألماسة تشعّ هكذا، لم يكن لأحد أن يشكّ في أنّها جلبت سوء الحظّ لمعظم مَن امتلكها.

كان من غير الوارد الاحتفاظ بها؛ كما أنه كان من غير الوارد إعادتها إلى المجموعة المالية التي امتلكتها والتي لم تجرؤ على المطالبة بها.

فنظر مارتن إلى الحجرة الثمينة مرّةً أخيرة، وألقى بها في المحيط الهادئ بكل ما أوتي من قوة.

من **الفتى الصغير**، قال مخاطباً أرشيبالد بصمتٍ.

آنتيب، 6 يونيو 2008

مونروج، 16 مارس 2009

مكتبة
t.me/soramnqraa

بيني وبينكم

نحن نلتقي كلّ صباحٍ في المترو وفي الحافلات الباريسية.

نلتقي بعد الظهيرة، على أرصفة المقاهي وعلى مقاعد الحدائق العامّة.

نلتقي في عطل نهاية الأسبوع أو عند الذهاب في إجازات، في عربات القطارات السريعة أو على المقاعد الضيّقة للطائرات.

نلتقي وأحظى أحياناً بفرصة رؤيتكم تقرأون قصصي وأسمعكم تناقشون شخصيات رواياتي.

نلتقي في آلاف الرسائل البريدية التي تشرّفونني بإرسالها إليّ والتي أقرأها كلّها دون استثناء.

نلتقي في المكتبات، وخلال حفلات التوقيع. نتبادل بضع كلمات، وابتسامة، ونظرة: لا داعي لقول أو فعل الكثير. أنا أفهم وأنتم تفهمون.

نحن نلتقي وهذا يسعدني.

لأنّه يمنحني الرغبة في أن أستمرّ في سرد الحكايات لكم.

للحفاظ على هذه العلاقة الغريبة والجميلة، التي تكوّنت على مدار الكتب.

لإطالة أمد هذه الصلة الخاصّة التي لن تترجمها المقالات الصحافية والبرامج التلفزيونية أبداً.

ولكن ليس هذا ما هو أساسي.

ما هو أساسي، بالنسبة إليّ، هو أن أشكركم فحسب.

أن أشكركم على انتظار قصصي.

أن أشكركم على جعلها تحيا.

أن أشكركم على مشاركتكم لها.

إلى لقاءٍ قريب، بين صفحتين...

غيوم، 24 مارس 2009

المحتويات

1. في ذلك الصيف... 11

الجزء الأوّل

تحت سماء باريس

2. كبير اللصوص... 37

3. أخي في الوحدة 45

4. رجلان في المدينة 57

5. عشّاق جسر بون نوف 69

6. باريس تستيقظ 85

7. المتبارزان 97

8. مفتاح الجنّة 115

9. الآنسة هُوْ 131

10. دوّامة الحياة 143

11. اليوم الذي سترحل فيه 147

12. دعني أذرف دمعةً 159

13. الجزء المفقود 169

الجزء الثاني
شوارع سان فرانسيسكو

14. فالنتين 177
15. توأم الروح 193
16. ها أنا قادم يا كاليفورنيا 203
17. التعطش للآخر 215
18. الذكريات والحسرات أيضاً. 227
19. أترى، لم أنسَ شيئاً. 237
20. عاشقان 253
21. لقد أحبَّ أحدنا الآخر كثيراً 263
22. رسالة فالنتين 279
23. في منتصف الطريق إلى الجحيم 285

الجزء الثالث
رفقة الملائكة

24. الهروب الكبير 299
25. منطقة المغادرة 309
26. الأشياء الجميلة التي تحملها السماء 321
27. أيّ مكانٍ خارج العالم 335
28. سوف أظلّ أحبّك. 355
29. لكَ إلى الأبد 367

خاتمة 373

بيني وبينكم 379

غيوم ميسو

كيف سأكون من دونك؟

إنّها أمريكية، طالبة في السنة الثالثة بجامعة بيركلي.
في ذلك الصيف، ستعيش قصّة حبّها الأولى.

إنّه فرنسي، وقد نال حديثاً شهادته في القانون من جامعة السوربون.
في ذلك الصيف، سيعيش قصّة حبّه الأخيرة.

اعتقدا أنّ قصتهما انتهت، ولكن...

❖❖❖

انكبّ مارتن، الشرطي الباريسي الشابّ، على عمله لينسى قصة حبٍّ فطرت قلبه، واستمر بلا هوادة في ملاحقة أرشيبالد ماكلين، لص اللوحات الشهير المطلوب في جميع أنحاء العالم. وبعد مطاردة مجنونة عبر باريس، قاده تحقيقه إلى سان فرانسيسكو، حيث تقاطع طريقه من جديد مع طريق غابرييل، المرأة التي أحبّها قبل خمسة عشر عاماً.

أذهله ما اكتشفه حينها: أنّ غابرييل ليست سوى ابنة عدوه اللدود!
فهل هذا محض صدفةٍ حقاً؟

❖❖❖

«تحتل قوةُ الحب مكانةً مركزية في هذه الرواية الجديدة التي تجمع ببراعة بين الخيال والتشويق». **مجلّة تيليه سيت جور**

«كتاب مفعم بالإيقاع والتقلبات التي تحبس أنفاس القارئ».
صحيفة لو دوفينيه ليبيريه

«يأخذنا المؤلف بمهارة إلى عالمٍ من التشويق يتنازع فيه الغموضُ مع الحب». **مجلّة نوتر تان**

مكتبة
t.me/soramnqraa

سما للنشر

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com